بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين ..

أخانا فى الله هل نقدم لك أستاذنا الجليل رحمه الله ورضى عنه وأرضاه أم نترك ذلك لما بين يديك من كلماته الوضيئة التى يتناولها فى شفافية أخاذة وروحية آسرة وعقلية واعية مُدركة وعبارة مشرقة تعيها أذن واعية وتستنير بها قلوب مؤمنة وتأنس بها نفوس أسقمها البُعد ونأى بها تطاولها عن القصد .

وكيف لا .. وعمدته القرآن « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » .

أستاذنا هذا (فيما أحسب ولا أزكى على الله أحدا) ...

عبدٌ أخلص العبودية لله والإيمان به واليقين فيما وعد به عباده من حسن الجزاء والثواب إذا استجابوا له ومن سوء الجزاء والعقاب إذا أعرضوا عنه فأفاض عليه من فيض قوله تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله » ومن قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيماورد عنه (من عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم) .

وهذه الرسائل قُلّ من كُثْر مما أفاض الله على شيخنا من فتوحات ربانية وإشراقات محمدية فى تزكية النفس البشرية .

نسأل الله أن يهدينى وإياك التوفيق والعيش فى جو هذه الرسائل الروحى سلوكا وإيمانا .

وما توفيقى إلا بالله

والسلام عليكم ورحمة الله

فتح الله حمودة

بسم الله الرحمن الرحيم

فى الإيثار

وَجَّهَ أَحَدُ الإخوان إلى مولانا وشيخنا رضى الله عنه ورحمه السؤال الآتى :

كيف يتعلم الإنسان أن يحب لأخيه ما يحبّ لنفسه ؟ وكيف يتعلم أن يؤثره على نفسه ؟ فأجاب رضى الله عنه .

أخى :

تلقيت خطابك شاكراً ربّى نعمه وأفضاله ﴿ **وإن تعدُّوا نِعمةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾

فحياة الإنسان كلُّها مشحونة بالنِّعم ، مليئة بالأفضال ، ولكن النِّعم حينما تكون اعتياديَّة لا يَشْعُر بها المنعَم عليه إلا المؤمن المتّصلُ بالله ، ولأنها كثيرة ذكر الله المنْعِم تعذُّر حصرها ، فمن نظر إليها بعين الله أدرك ذلك لا محالة ، ومن نظر إليها بعين نفسه حصرها استقلالًا ، وربّما غفل عن الموجود جريًا وراء المعدوم ، فاعلم أخى أنَّ مجرد العِلم بالسبب لا يأتى بالمراد فإن العلم بالشيء أسهل من العمل به ، والعمل به من حيث هو عمل ميسور سهل ولكن توحيد الله فى العمل أصعب من الصَّعْب والتوحيدُ معناهُ الإخلاصُ فى القصدِ به وحبُّ الله وحدَه ، والمشكلة الكبرى تدور حول هذا القصد .

قد يكون العمل لله والمقصود بذلك الأجر والثواب ، وقد يكون لله والمراد به مرضاته وحده سواء أكان الأجر لك أو عليك ، وهناك وجه آخر وهو العمل حبًّا فى العمل وحبًّا لما يحب الله سواء أكان له أجر أو لم يكن له أجر

دون نظر إلى ما ينتظَر منه . والك أن تقول : الإخلاص معناه : العمل مع إغفال النظر إلى ذلك العمل بحيث يكون اللهُ شغْلَه الأكبر وعملَه المراد . ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيّبُ والعملُ الصّالِحُ يرفَعهُ ﴾ ﴿ قُل إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبعونى يُحْبِبْكمُ اللهُ ﴾ .

وأحبّ أن أقول لأخى : إن التخلّق بصفات الخير لا يكونُ إلّا بالعلْم ؛ فالعلم بالخير والشّرِ هو الأساس فإن علمت فالْزَمْ ، والالتزام لا يكون إلا بالتّصْديق ﴿ وفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَليمٌ ﴾ ، الإيمان بالله هو أساسُ العمل ، وإن هذا الإيمان يَنمو ويزيدُ ويحْيا على قدر ذكر العبْدِ لربّه وإخلاصه فى ذكره وصِدْقه فى إخلاصه كما وضحّت سابقاً ، وكلما نما وزاد ، ازداد العبدُ فعلًا للخير وسهل عليه ما كان يصعب عليه من قبل . فإن زيادة الإيمان فى القلب كزيادة الضّوْء فى المصباح ، والنور فى الضوء وعلى قدر اتّساع الضوء وانتشاره يكون الكشف للظلمات . فكذلك الإيمان يكشف ظلمات النفس ويظهر مكايد الشيطان وحيلَه . ومتى ما أدرك العبد ذلك سهل عليه العلاج وتيسر عليه الطلب ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلّا مَا آتاهَا ﴾ ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلّا وُسْعَها ﴾ .

وفوق كل ذى علم عليم فالحمد لله .

تسألنى يا أخى كيف أتعلّم الإيثار ؟ وكيف أحبّ للنّاس ما أحبّ لنفسى ؟

وعليه أقول : إن الزهد فى الدنيا هو أساس هذا الشعور وأساس هذا العلم ، فالزهد ليس معناه الترك كُلًّا . إنما معناه النظر إلى الدنيا وما فيها بعين الزوّال والفناء . والنظر إلى متاعها وحطامها على أنه وسيلة ومطية . فينظر إليها كما ينظر إلى العملة يقضى بها مصالحه يدفع الجنيه أو العشرة إلى صاحب السلعة راضية بها نفسه مطمئناً بها قلبه حيث المراد بها غيرها لا ذات العملة فالمال النقدى حبيب إلى النفس ؛ ولكنها تجود به لما هو أحبّ إليها منه ، فكذلك المؤمن الزاهد يبذل ما فى يده ، ويزهد ما عنده ويتنازل عن حقه المعلوم للجزاء المرتقب وللسلعة الغالية التى يرجوها بالغالى الفانى « ألا إن سلعة الله غالية ،

ألا إن سلعته الجنة » .

فإن من لم يزهد المال لم يتصدق ، ومن لم يزهد الوقت لم يتعبد ، ومن لم يزهد الملذّات فلن يجد حلاوة الإيمان، ومن لم يزهد الجهل فلن يتعلم ، ومن لم يزهد الدنيا فلن يسعى إلى الآخرة ، ومن لم يزهد أنانيته البشرية فلن يتحقق بالعبودية ، ومن لم يزهد ما يراه حقًا له فلن يؤثر أخاه، ومن لم يعرف ربّه بصفاته وأسمائه الحسنى فلن يحبّ للناس ما يحبه لنفسه . فإذا أردت أن تتعلم الإيثار على النفس فتعلّم أولا إيثار الآخرة على الدنيا ، وإيثار الغائب الحق على المشاهد الملموس ، وتعلم إيثار أمر الله على هوى نفسك ﴿ **فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الحَياةَ الدُّنيَا * فَإنَّ الجحيمَ هِيَ المأوَى * وأَمَّا مَنْ خافَ مقامَ ربِّه ونَهى النَّفْسَ عنِ الهَوَى * فَإنَّ الجنَّةَ هِيَ المأوَى** ﴾ .

وأرجو أن تبدأ فى ذلك بأحبابك وأقرب النّاس إليك ، فإن هؤلاء مدرستك الصغرى ، وعليهم وفيهم يكون التعلم والتكيّف . ومتى نجحت فى هذه المدرسة انتقلت إلى غيرها . فإن الإيثار لا يكلفك أكثر من جهاد ساعة من الوقت .

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حبّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم

إنك لو جاهدت نفسك فى ساعة الحاجة إليها بلغت مرادك . والحاجة المقصودة منك لا تتجاوز الفائض عنك سواء أكان مالًا أو وقتاً . ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ ماذا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ** ﴾ أما الشىء الذى لا تستطيع الغِنى عنه فلا يطالبك الشرع ببذله ولا التخلى عنه . فابدأ بنفسك ثم بمن تعول . فالإيثار يدور حول الفائض وكل ما يمكنك الاستغناء عنه . ولا يكون افتقارك إليه شغلًا وعملًا فهو فائض مثل الطعام الذى تخرج به إلى ضيفك ومثل القديم من الثياب الذى يمكنك الغنى عنه ، ومثل العطاء اليسير الذى لا يرهق ميزانيتك ، ومثل المجاملة الواجبة التى تقطع بعض وقتك ، ومثل البشاشة وطلاقة الوجه حينما تقابل من تحب ..... والأمثلة كثيرة .

فمن أراد أن يتعلم كيف يؤثر أخاه على نفسه ، فليعلم أولًا أن الإيثار

درجات . أعلاها الإيثار المطلق . وأدناها الإيثار المحدود .

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

فالإيثار المطلق يسبقه الحب للمؤثر ويسبقه الإيمان بالله المالك للشيء المراد إيثاره به قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِم يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِم وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّما أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ ...﴾ الآية : فانظر أخى إلى معنى هذه الآية الكريمة وتدبر ما فيها تجد الجواب على سؤالك حيث لابد من الأخذ بالترتيب بمقتضى الآية . وفوق كل ذى علم عليم . فوالله إنى إذا تعرضت لتفسيرها وتناولت شرح ما فيها لخرجت بك إلى بحر عميق وربما خرجت من موضوع السؤال إلى ما لسنا فى حاجة إليه فى هذا الوقت ، فإن حاجتنا تدور حول المقام الأول فى الإيثار : الإيثار الذى يسعنا تربية النفس به تدريجياً هو الإيثار المحدود . الإيثار الفائض عن الحاجة كما قلت من بذل المطبوخ وتقديم المأكول ، والتضحية باليسير من الوقت والمال ، وحب الخير العام للناس عامة سواء أكان بالمعونة أو التمنى فى حالة العجز والفقر . وذلك أضعف الإيمان . فلا بأس أن نأخذ بالمستطاع حتى يبلغ الله بنا ما هو أعلى وأسمى .

﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسعَهَا ﴾.

اعلم أخى أن من أراد أن يتعلم الإيثار ، وأن يحب للناس ما يحبه لنفسه . فعليه أولًا الأخذ بأسباب القرب إلى ربه سبحانه وذلك بشحن الفراغ . وملء الوقت بذكره وتسبيحه بحيث يكون الذكر همّه والتسبيح شغله فهذا هو المراد . وهذا هو التّعلم الذى ورد فى قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

فإن من سلك طريق القرب والعلم بالله أدرك بنفسه ما لَهُ وما عَلَيْهِ . وتهيّأ له من قلبه واعظ الحق ﴿ إِنَّهم فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِم وَزِدْنَاهُمْ هُدى ﴾ ففى

قلب كل مؤمن واعظ من الله . وحينما يكون الانبعاث من المصدر ، والأمر من الداخل يكون التأثير قوياً والاندفاع اضطراراً . مثل المريض فى تجرعه الدواء المُرّ وفى تعرضه للخطر الذى يرجو به زوال علته عن نفسه . فلو لم يكن الانبعاث الداخلى نتيجة إحساسه بالمرض وحاجته إلى الشفاء لما تناول ما يكره وهو يشعر بالمرارة والحرارة . وهكذا يكون حال المؤمن السالك إلى أن يبلغ الله به ما تقرر له من الاتصاف بالخير ، والانشراح بالشرع . « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به » أو كما قال .

وإن هذا الطريق إلى الخير أقوى فى نظرى من ألف واعظ ومذكر وألف معلم ومرشد ، لأن وظيفتهم تنحصر فى التذكير . ﴿ **وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ فمن لم يكن مؤمناً بالشىء لا ينتفع بذكره ، ومن لم يكن مؤمناً بالمذكور كذلك . وللمثل والتوضيح أقول : إذا ذكَّرت المُخنَّثَ بجمال المرأة وزينتها فهل يجد لما تقول طعماً أو يشعر بلذّة القول ؟ فلا إقدام ولا تحرك ، ولا انتفاع ولا همّ . فكذلك المنحرف عن طريق الله الغافل عن ذكر المعبود . ومن هنا نعلم لماذا يكون التأثير على النفوس حين يكون الوعظ والتذكير ثم لا يكون الاتعاظ بعد الفراغ من الوقت . فالرجل فى المسجد غيره فى الحانوت ، والمسلم فى مجلس الوعظ غيره فى المكتب والمصنع والبيت والطريق ، وربما يشهد الجنازة ، ويصحب الميت المحمول فترة من الوقت وكله تأثير وتأثر وبكاء ونحيب ثم نراه يعود بعد ذلك إلى أهله كأن لم يكن شىء ! لماذا ؟؟

لأن الغفلة مستحوذة عليه ، ولأن الاتجاه معكوس ، والهدف الذى يعيش به وعليه أقوى فى نفسه من أى شىء آخر . فلو كان السلوك صحيحاً ما غاب ولا احتجب ولكن هيهات هيهات !

أخى : إن من أراد أن يتعلم الإيثار وأن يحب لغيره ما يحب لنفسه فلينظر إلى الدنيا ومقومات الحياة فيها كما ينظر إلى الأرض ، يطأ عليها الحابل والنابل والرفيع والوضيع ، والمسلم والكافر . لكل منهم جزء مقسوم . فلا يضرك أن يمر أمام بيتك من يمر ممن تحب أو لا تحب من الناس . ولا يشغلك مرور االكافر

سواء أكان راكباً أم راجلًا . فى الأرض أو فى الجو . فإن المنع اعتداء . والتعرض شقاء . فالنفس قد تضيق ولكن الشعور بالواجب الإنسانى العام ، وبالحق المكتسب له يردُّ النَّفس ويُرغمها على قبول الواقع . فكذلك المؤمن فى أول أمره ، يتناول علاج الشُّحّ فى نفسه بهذا اللون من الأسباب وبهذا الشكل من القياس . ثم يتدرج فينظر إلى الدنيا وأسباب الحياة فيها كما ينظر إلى المائدة والطعام يقدمه للضيف . فإن الإحساس بالواجب يحمله على هذا . فتارة يكون الدافع إليه ما سبق ، وتارة أخرى يكون الدافع حب المُخْرَج إليه والمقدم له الطعام . وفى كلتا الحالتين يستفيد الغير من مائدته ويقع الإيثار طوعاً أو كرهاً .

وشأن المؤمن فى حياته أن يندفع إلى إيثار الغير وإيقاع النفع له فى كل ما يتعلق بالحياة على قدر استطاعته طوعاً أو كرهاً . تارة بالاختيار . وتارة بالاضطرار حيث لا مفر من ذلك ما دامت الحياة مشتركة ، وما دامت المسئولية قائمة ، ومادام الإيمان والتصديق . فكما تدين تدان . وللعلم أقول إن الاعتراف بِرُوح الله الذى نفخه فى الإنسان يترتب عليه تقدير هذا الجانب مهما كان المنفوخ فيه . فإنه لو لم يكن جديراً بذلك لما كان . وقد تكفَّل الله برزقه العام والخاص لأنه خلقه وسوّاه . ونفخ فيه من رُوحه تكريماً وتمييزاً . فكيف يحقِّق ذلك من لا قدرة له على شىء . والأدب مع الله وحده يكفى مراعاته ويغنى عن مجادلته ويلزم الخضوع الذى لا مفر منه ، وفى هذه الحالة يبدو الإيثار واضحاً جليًّا ، وحب الخير للغير ناصِعاً لامعاً لا محيص عنه .

أخى : سألتنى فى خطابك كيف يتعلم المؤمن الإيثار ؟ وعليه أوجز الجواب فأقول لك تلخيصاً لكل ما مرّ وتركيزاً لكل ما مضى من معانٍ :

كلّما بدا لك أمر وظهر لك حال سواء أكان مع نفسك أم مع غيرك . استَشْعر مراقبة الله لك . وانظر إلى مُرادِه منك . وبمقتضى هذا الشعور مضافاً إليه العلم بالمراد . اعمَلْ واترُك . واعلم مقدّما أن الشيطان سيقف فى سبيلك . والنفس التى بين جنبيك ستعترضك وتثاقل عليك . فاجتهد فى مخالفتهما . مُيَمِّماً شطرك نحو المراد منك مستعينا بالله ربّى وربِّك . فإن بلغت المراد فاحمد

الله . وإن لم فاستغفر الله لتقصيرك وقصورك/. وهكذا دواليك المرة تلْوَ المرّة حتى يبلغ الله بك ما يحبّه ويرضاه لك فـ ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلَّا القَوْمُ الكافِرُونَ ﴾ .

واعلم أخى أنه بهذا اللون من الشّعور ، وبمثل هذا النوع من الفهم والإدراك يكون التحقيق تدريجا . فاذكر الله يذكُرْك . واشكُرْه يزدْك .

واعلم أخي أن هذا هو الجواب المقتضب لسؤالك فإن من أراد أن يبلغ مُرادا ويحقق أمراً فعليه أولا تحديد الهدف فى نفسه . وتخصيص الغاية بالأهمية بحيث يكون الشُّغْل بها والفكر عليها . فإن تَمّ ذلك تجمعت الأسباب فى القلب ، وتظاهر الحق بالقوة الربّانية والمراد السماوى . فالحق أبْلج[1] والباطل لجْلج[2] ، والحق نور ، والباطل ظلام . والحق أنّى قذفْته على الباطل دَمغه وقضى عليه ، فاتّق الله يُعنْك ، واعبْده يتولّك . ولا تقبل على شيء قط تريد عمله إلا إذا كنت مستعينا بالله سواء أكان ذلك من أعمال الدنيا أم من أعمال الآخرة . وإياك إياك الاستعانة بنفسك فإنّها عدوّ مبين . واخْشها خشيتك من أعدى أعدائك . واحذرها حذرك من النّار . وتَحايَلْ عليها محايلة الحدّاد على الحديد يصنعه ويذيبه . وغُض طرفك من خطرها وهواها . فالنفس أشد خطراً على صاحبها من غيرها . ولولا رحمة الله ما نجا منها أحد . فيارب سَلّم سلّم . ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ فالحمد لله على السلامة .

* * * *

(١) مضيء مشرق .

(٢) يتردّد من غير نفاذ . والمراد لا يصل بك إلى غاية لضعفه .

النَّفْس البشرية كما يراها العارفون

أخي :

إن النفس باعتبارها مصدر الحياة الإنسانية بخيرها وشرها لا نهاية للعلم بها ما دامت الحياة فى مجراها الطبيعى بخيرها وشرها وقد علمتُ أخى أن الحكم عليها يكون بالواقع منها . فإذا كان الواقع مطابقاً للشرع موافقاً للدين فهو الخير المراد منها . وإذا كان العكس فهو الشر الذى نهى الله عنه وحذر منه . والحكم على ضوء ما علمتُ غير مملوك لأحد من الخلق فالذى يملك هذا هو الله سبحانه وتعالى وقد حدّد الله ذلك بيوم اللقاء .

ومن هنا نعلم أن كل حكم يصدر لصالح النفس قبل هذا اليوم مَرْدُودٌ منقوض لأنه صدر قبل الموعد المحدد . وصدر ممن لا يملك الأمر والحكم . ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ ولما كان الأمر كذلك فالمؤمن الحق الصادق الإيمان بالله واليوم الآخر يضع نفسه فى قفص الاتهام طيلة حياته حتى يصدر الحكم بتقرير المصير يوم القيامة . ﴿ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمورُ ﴾ ﴿ والأَمْرُ يَوْمئذٍ لِلَّهِ ﴾ وكل حكم قبل ذلك فهو باطل . قال تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ فالنهى عن التبرئة حكم من الله على عباده . وحكم الله لابُدَّ من تنفيذه – والسَّعْى إلى تنفيذ حكمه سبحانه طاعة وعبادة . فإن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ أى لا أدَّعِى تبرئتها من سُوئِها لأنى لا أملك ذلك . حيث لا يملك هذا إلا الله وحده الرحمن الرحيم .

فالتبْرئة لها من الله لا من العبد . فمن بَرَّأها من عباده وهو لا يزال فى الحياة الدنيا فقد خالف ربّه وعصى مولاه . أعاذنا الله وإيّاكم من شرورها وأوضارها وسيئات أعمالها . وقد علمت أن نَفْى التبْرئة طاعة لله وعبادة له . فالذى خلقها

وسّواها وألهمها فجورها وتقواها أدرى بحالها وأصدق فى الحكم عليها بما يعلم عنها . ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ .

ومن هنا نعلم أن الأخذ بعدم التّبرئة من صفات المؤمنين وسمات المتقين ، وشعار المقربين عملا منهم بإرادة الله ، وقياما منهم بحكم الله .

ولذلك يضعونها فى قفص الاتهام حتى يرحمها الله بالبراءة والخلاص . وهذا هو السّر فيما هُمْ عليه من الخوف والحزن مدى الحياة . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم .

أخى :

إن هذه اللفتة فى التعريف بالنفس وهذا البيان فى وصفها قضاء من الله وقرار منه . فالعارف بالله يعيش مع نفسه فى الحياة الدنيا فى ثنايا هذا التعريف الإلهى والبيان الربّانى راضياً مطمئناً بقضاء الله وقراره .

وقد علمت أخى أن صفات النفس كلها خيرها وشرها تتضمّنها هذه الآية الكريمة . فقد وصف الله النفس البشرية بعدة أوصاف . منها الأمّارة . ومنها اللّوّامة . ومنها الملْهمَة . ومنها المطمئنة قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۞ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ ﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ والصفة الجامعة لهذه الأوصاف قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ حال المؤمن العارف ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ صفة للنفس ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ بالتوبة والتهذيب والهدى والتوفيق . وهذا مقام العمل والأخذ بالأسباب .

﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ استقرار وتمكين فى المقامات والدرجات السالفة الذكر المطمئنة بالله فى رحمته وربوبيته والرجوع إليه بالاستعاذة به من شرور النفس وأوضارها ، وصفاتها الأمارة بالسّوء .

وقد علمت أخى أن قول المؤمن ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ إيمان وإحساس بإلهام الفجور ولذلك يعتبر هذا القول من إلهام التقوى لأن إلهام الفجور منها لا يظهر إلا بظهور إلهام التقوى ؛ فإن إلهام التقوى هو الذى يكشف إلهام الفجور . والأخذ بإلهام التقوى يكشف حقيقة النفس وفجورها . وكلما تضاعف الأخذ تضاعف الكشف ولا نهاية للتقوى ولا آخر لمداها . ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ولذلك لا نهاية لفجورها فعلى قدر تقواها يكون كشف فجورها أو يكون ظهورها بإلهام فجورها . فقول المؤمن ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ عبوديَّة صادقة ، وتوحيد خالص لله ربّ العالمين ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ تجريد وتجرّد وفناء وفقر وافتقار ، وذلّة وخضوع وخشوع لله ، وانكسار وتفويض ، وتوكل واعتماد على الله ولجوء إليه ، ورغبة صادقة خالصة فى السلامة والنجاة منها . ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ استعانة بصفات الرّبُوبية عليها كأن تقول أيها المؤمن : اللهم إنك تعلم أنه لا خير من نفسى التى بين جنبى . فهى كما خلقتها وسويتها وألهمتها فجورها لا تزال كما هى . فألهمنى الرشد والصّواب ، وزكّها أنت خير من زكاها . أنت وليها ومولاها فإنه لا خير لى إلا منك فإنك ربى الغفور الرحيم .

وقد علمت أخى أن قوله سبحانه : ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ بعد وصفها بالسّوء يفيد أن الرحمة هى الإحسان الذى هو ضد السّوء منها . إلا ما رحم ربى بالتوفيق والسداد . والهدى والرشاد . إلا ما رحم ربّى بالتزكية والتّطهير . ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ﴾ إلا ما رحم ربى بالتبرّئة والعفو والمغفرة ، إلا ما رحم ربى بالتجاوز والتكفير للسيئات والذنوب . إلا ما رحم ربّى بالتّولية والنصر والكشف والنور ؛ لأن الله هو الرّب الغفور الرحيم . فقول المؤمن ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ مقام التوحيد يقابله قول المؤمن الحق : سبحان الله تنزيهه سبحانه عن النّقص وتمجيده بصفات ربوبيته ، وتوحيده فى ألوهيته ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ مقام العبودية لله والاعتراف بالنقص والحاجة إلى الله . وفى نفى الكمال عن النفس والاستغناء عنها إثبات الفقر إلى الله وصدق الافتقار إليه . ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ مقام التوكل والتفويض بالاعتماد عليه ، وإسناد الأمر

إليه مع الأخذ بصفات التّرييب ﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُور رَّحِيمٌ ﴾ مقام الطمأنينة . الكاملة التامة بالله تبارك وتعالى وبكل ما ذكر من صفات النفس . ﴿ الَّذِينَ آمنوا وَتَطْمئِنُّ قُلوبُهُم بِذِكْر اللهِ أَلَا بِذِكْر اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ ﴾.

وقد علمت أخى أن قوله سبحانه وتعالى مخاطباً النفس المطمئنة ﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ﴾ الآيات يراد بهذا الخطاب النفس التى اطمأنت بمعانى الآية الكريمة السالفة الّذكر واطمأنت بشهود العجز عن التبرئة إيماناً بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِى ﴾ اطمأنت على اقتران صفة السوء بها . اطمأنت على أن النجاة والسلامة من شرورها وأوضارها بفضل الله ورحمته . اطمأنت على أن المغفرة والرحمة من صفات الله الحق . اطمأنت طمأنينة كاملة بصفات الله وصفات النفس كما وصفها الله وذكرها .

وقد علمت أن من بلغ هذه الدرجة من الطمأنينة الكاملة الثابتة فإنه بمقتضاها يرجع إلى ربّه فى جميع أموره وشئونه . وفى كل حركة وسكون ارجعى إلى ربك راضية بربوبيته عليك فى كل ما منه إليك ؛ فإنه بذلك يرضى عليك ، ويدخلك فى حظيرة العبودية فى الآخرة فتدخلى جنته التى أعدها للمتقين من عباده . ﴿ فَادْخُلِى فِى عِبَادِى وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴾.

فانظر أخى وتدبّر ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ .

وقد علمت أخى أن قول المؤمن : ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِى ﴾ الآية نهاية مقامات العبودية فإنه لا يتّهم نفسه إلا من عرفها ، ولا يعرفها إلا من عرف ربّه ، ومعرفة الله لا تكون إلا بالتقرّب إليه والقرب منه ، وذلك لا يكون إلا بالمجاهدة والمكافحة . فهكذا أخى حياة المؤمن الحق . سلسلة من الجهاد حتى يلقى الله ربّه فالحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم . ولتعلم أن نهاية العارف بالله الوقوف عند هذه الآية الكريمة وقد ذكرها الله فى كتابه على لسان سيدنا يوسف عليه السلام وهو النبى ابن النبى الشريف ابن الشريف . الرسول الأمين . فانظر أخى وتدبّر ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ وما دام القائل هو سيدنا يوسف ، ومقامه معلوم معروف فبالنسبة إليه بداية وهى بالنسبة للعارفين نهاية حيث نهاية الأولياء المقربين بداية النّبيّين والمرسلين .

وقد علمت أن الولى المقرب حياته فى الدنيا بين قوله سبحانه ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ وبين ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُور رَّحِيمٌ ﴾ فإنه كما يؤمن بصفات الله ويرجو مغفرته ورحمته ، فكذلك يؤمن بفقره وافتقاره إلى مولاه . وذلك نتيجة علمه بنفسه التى بين جنبيه . فهو بين الخوف من شرور نفسه . وبين الرجاء فى رحمة مولاه إلى أن يلقاه . فوالله إن العارف بالله يزداد تباعا فى اتهام نفسه على قدر إيمانه بربّه الذى وصفها بالسّوء فإنه سبحانه وتعالى ذكرها أمارة بالسوء الذى هو ضد الحسن والأحسن . فالسوء هو الفعل القبيح . والسيئة ضدها الحسنة . فالسوء من النفس كل عمل لا تحمد عقباه فى الأخرى . والسوء كل ما يجلب عليها غضب الله ويحقق عذابها . والسوء وصف مطلق . وربما كان إلهام الفجور عموما من قبيل السوء لأنه ما لم يكن تقوى فهو سوء بلا شك . والسّوء الشّر والضر سواء أكان على ذات النفس الأمارة أم على الغير .

وقد علمت أخى أن كل ما يبعد العبد عن ربّه فهو سوء وكل ما يشغله عنه سوء وكل ما لا ينتفع به المؤمن فى أخراه فهو سوء بلا شك . والسوء عموماً ضد الحسن وضد الخير . ولا عبرة بخير الدنيا إذا لم يكن خيراً فى الآخرة . فالدنيا فانية زائلة . والآخرة باقية خالدة . فمن رحمه الله بدل سوءه حسنا فمن عرف نفسه بالسوء لا يعترف لها بالحسنة فإذا وقع منها حسنة نسبها إلى الله شاكراً حامداً وذلك من فضل الله على عباده . فالحمد لله والشكر له .

أخى :

إن ما بينته لك عن النفس الأمّارة يكفى هذا القدر . ولنقف معاً مرّة أخرى عند قول الله تعالى : ﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ الآيات الكريمة ليعلم أخى وإخوانى جميعاً أنه ليست العبرة فى الحقيقة بطمأنينة النفس : إنما العبرة بخطاب الله وندائه عبده بقوله عز وجلّ : ﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ فالخطاب منه سبحانه هو الذى ينشىء الطمأنينة ويكسب النفس صفتها ومعانيها . فإنه لا طمأنينة أبداً للنفس المؤمنة إلا بسماع هذا الخطاب من المولى عزّ وجلّ . ولما كان الخطاب من الله قد وقع فعلًا فى عالم الأرواح حين خلقها

فالأرواح التى سمعت هذا النداء حين كانت مجردة من الأشباح فى عالم الغيب حين تتجرد مرَّة أخرى من الأشباح والعوالم الأرضية أحسبها تسبح فى جو الخطاب والنداء بصورة لا أستطيع أن أصِفها لك ./

أخي : إن خطاب الله عز وجلّ ونداءه من كلامه سبحانه . وكلامه من صفاته عز وجل . وصفاته قائمة بقيامه . فهو الأول والآخر . والظاهر والباطن . فالخطاب قائم والنداء كذلك تسمعه الرّوح المهيّأة للسماع كما سمعته من قبل حين خوطبت وهى فى عالم الغيب . فإنه لولا هذا الخطاب وأثر النداء فى الأرواح قبل ذلك ما استطاع المؤمن أن يتغلّب على الشيطان الذى يجرى منه مجرى الدم . ويشاركه فى المال والولد ، ويجلب عليه بالخيل والرّجِّل قال تعالى : ﴿ **وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وشَارِكْهُمْ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ** ﴾ .

فاعلم أخى أن من قدّر الله له أن يكون من المخاطبين بهذا النداء العظيم فهو من الذين ذكرهم الله فى كتابه بقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ** ﴾ .

ومن هنا تدرك أن الله سبحانه وتعالى قررّ المصائر حينما قال : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ نعم قرر المصائر يوم أن خلق النفوس وسواها . قال رسول الله ﷺ : « رفعت الأقلام . وجفّت الصحف . وكل مُيَسَّر لما خلق له » وحسبك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ** ﴾ فالنفوس الملهمة بالفجور هى التى أعدّ الله لها النار مصيرا ونهاية . والنفوس الملهمة بالتقوى هى التى أعدّ الله لها الجنة مصيرا ونهاية . ولما كانت التقوى أفعالًا وأعمالًا قال تعالى مشيرا إلى مقر أهل الفجور مخاطبا إياهم : ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُها النَّاسُ وَالْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ .

وكما علمت أخى مما سبق أن الفجور هو ضد التقوى وبذا يتأكد أن كل عمل لا يكون تقوى فهو داخل فى نطاق الفجور . ويصح أن نفسر التقوى

بأنها : القيام بالمأمورات . والانتهاء عن المنهيات . بمعنى أن كل عمل يقع من الإنسان بإرادة النفس سواء أكان قولًا أم فعلًا أم حركة أم سكوناً . حسًّا أو لمسًا . إشارة أو إيماء إذا لم يكن تنفيذا لأمره سبحانه وتعالى واتباعا لرسوله ﷺ فإنه خارج عن دائرة التقوى ونطاقها المحدود : لذلك فإنه يدخل تلقائياً فى دائرة الفجور .

ولما كان الإنسان لا يخلو من عوامل الفجور والأسباب المؤدية إليه بمقتضى التصميم الربّانى الذى يتميز به عن سائر المخلوقات الأخرى كالملائكة والشياطين أمره الله سبحانه وتعالى ألا يركن إلى نفسه . ولا ينزع دائماً إلى هواه . وجعل السعادة كلها فى إلهام التقوى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ .

وإلى هنا يكفى هذا القدر من القول .

أستودعكم الله . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * * *

النفْسُ البشرية بين فجورها وتقواها

أخي :

إن الإلهام الفجورى للنفس متعلق كله بحياتها فى عاجل أمرها وآجله فيما يتعلق بأمور الدنيا . أما إلهام التَّقوى فإنه يتعلق بحياة النفس فى آجل أمرها أصلًا ، وفى عاجلها ضمنا ، فإذا سبق إلهام التَّقوى بعمله تضاءل إلهام الفجور واختفى . وإذا سبق إلهام الفجور بعمله تضاءل إلهام التَّقوى ، وهكذا حياة النَّفس بين الظلمات والنّور ، ولولا فضل الله ورحمته ما نجا منها أحد .

أخي :

إن النَّفس سّواها الله مهَّيأة لإلهامها بين فجورها وتقواها ، وخلق الدنيا وسخرها لنا ابتلاء واختباراً وكذلك خلق الشيطان وجعله من المنظرين . مهمته استغلال الإلهام الفجورى ، وإثارته للدنيا وما فيها ، وكذلك بعث الرسل عليهم السلام إلى النَّاس كافة . وجعل مُهمَّتهم استغلال إلهام التقوى وإثارته للحياة الأخرويّة نعيما وعذابا . وعلى هذا أقول : إن المؤمن الحق الصادق الإيمان بالله واليوم الآخر إذا وضع فى نفسه كلمات الآخرة ومعانيها وصفات الله وأسمائه الحسنى ، ونظر إلى حقيقة مهمته ورسالته التى خلق لأجلها ، ونهاية أمره ، وما سيصير إليه قريباً أو بعيداً يثبت إلهام التقوى ويقويه ولكن البلاء إنما يصيبنا من أننا نفسر الدنيا على طولها وعرضها بكلمات معدودة .

فإذا استقر فى أنفسنا لفظ من ألفاظ هذه الشهوات استقرّت به فى النَّفس كل معانيه من المعاصى والذنوب . وأخذت شياطين هذه المعانى تحوم حول قلوبنا فتصبحُ مُهَيْمِنَةً عليها فتدخلنا مداخل السوء فى هذه الحياة ، وتقحمنا فى الورطة بعد الورطة ، وفى الهلكة بعد الهلكة . وما هذه الشياطين إلا كالذباب والبعوض والهوامّ لا تحوم إلا على رائحة تجذبها فإن لم تجد فى النفس ما تجتمع

عليه تفرقت ولم تجتمع . فلو أننا طردنا من أنفسنا الكلمات التى أفسدت علينا رؤية الدنيا كما خلقت لكان للدنيا فى أنفسنا شأن آخر أحسن وأجمل من شكلها ، ولكانت لنا أعمال أخرى أحسن وأطهر من أعمالنا . فـ ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ .

أخى :

إن المؤمن الحق يبذل أقصى جهده فى طرد كلمة التلذذ بالحياة الدنيا من نفسه فإنه بطرده هذا قد طرد معانى الشر كلها وصلح له دينه ، وخلصت نفسه للخير ومعانيه .

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على حبِّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فلو أن رجلًا وضع فى نفسه صورة امرأة يعشقها لصارت الدنيا كلها فى نفسه كالمخدع ما فيه إلا المرأة وحدها .

قال رسول الله ﷺ : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت الله » أو كما قال .

واعلم أن الشياطين تنجذب إلى المعانى . والمعنى يوجده اللفظ المستقرّ فى القلب استقرار غرض أو شهوة أو طمع . فإذا خلا القلب من هذه المعانى فقد أمن منازعتها له وشغلها إياه . ومتى ما صار القلب فوق الشهوات ولم يجد من ألفاظه ما يعجبه ويعترض نظره إلى الحقائق انكشفت له هذه الحقائق فانكشف له الملكوت . فإذا ما مر بخاطره واحد من هذه الملذات استعلت الحقائق عليه .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ .

أخى :

إن إلهام الفجور سابق لإلهام التّقوى فى النفس حيث هو خاص بالحياة الدنيا السابقة للحياة الأخرى . ولذا قال تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا** ﴾ زكى النّفس وطهرها من عمل إلهام الفجور فإن النفس متى ما خلصت من

إلهام الفجور استولى عليها إلهام التقوى . ولذلك بشّرها الله بالفلاح فى أعمالها . ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ لأن الإلهام الفجورى إذا استولى على النفس تحكم فيها ، وتسيطر عليها فلا يكون منها إلا الشر عملًا وقولًا وفعلًا . فإن لم يكن شيء من ذلك فعدم العمل للخير هو الشّر بعينه حيث الأجل محدود . وما مضى لا يعود . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم .

واعلم أخى : أن الخلاص من إلهام الفجور يتعذر علينا أبدا ما لم ننظر إلى الحياة الدنيا بعين الله لها : فالدنيا خلقها الله وسيلة ومطية . فمن رضى بها وركن إليها وجعلها غاية ينشدها أو ادعى العجز عن التخلص من جهاد التعلق بها فقد باع آخرته بها وخسرها وخسر الآخرة معاً حيث المقام فيها مستحيل مادام الموت أمامنا والأجل ينتظرنا . ومن نظر إليها كما خلقها الله محاولًا جهده التخلص منها حُبًّا وتعلّقا أحسبه استطاع بعض الشيء التخلص من إلهام الفجور الداعى إليه .

واعلم أخى : أن معرفة النفس على حقيقتها لا تغنى عنك شيئاً ما لم تمض إلى مجاهدتها ، وتذهب بها إلى محاربتها ، فإن العلم بالشيء إذا لم يكن مصحوباً بالعمل لا قيمة له ، ولا اعتبار له . وللعلم أقول : إنه لا يزال من علوم النفس ما لم نصل إليه . فاستعن بالله على نفسك بما أعلمك الله يزدك الله علماً . وصدق رسول الله ﷺ « من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم » أو كما قال .

أخى :

لا يعذب الإنسان على إلهام الفجور ووجوده فى النفس إذا انحْصَر أمره داخل النفس ولم يتجاوز جدارها . فإذا انطلق إلى خارج السّور النفسى وبُعِثَت الجوارح على العمل بمقتضاه وقع العذاب على الإنسان فى حدود العمل الصادر منها . فإذا تاب ورجع إلى الله مستغفراً مَحَا الله عنه أعمال الجوارح وغفرها . أما الإلهام فلا يزال باقياً ما بقيت النفس على حياتها .

ومن هنا نعلم أن الخواطر الطيبة التى تنشأ من إلهام التقوى فإن لها أجراً وثواباً لأنه نتيجة تقوى ، ولأنها من الله أو من المَلَك المـوَكّل بصاحبها .

أما خواطر إلهام الفجور فإنه من عمل النفس أو من عمل الشيطان قرينها . ولذلك لا أجر ولا إثم عليها بل محوها أجر وثواب لأن المَحْو من إلهام التقوى . فالعبرة بالأعمال الصادرة من كِلَا الإلهامين .

وقد علمت أخى أن إلهام الفجور سباق بالعمل وفى العمل لتوفر المواد وغزارة الأسباب حيث الحياة الدنيا بكافة معانيها ودواعيها من العوامل المثيرة لها الداعية إليها وعليها . أما إلهام التقوى فإن موادَّه غَيْبيَّة ، وأعماله تكاليف والتزامات يتأخر الجزاء عليها إلى يوم القيامة ، وإن أجل الله لآت . ولذلك تسرع النفس إلى الحياة الدنيا رغم إيمانها بالحياة الأخرى ولذا كان الزهد من مقررات الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر . فالزهد يضعف من إلهام فجور النفس ويقصّ من أجنحته ويحدُّ من طغيانه ، ويقضى على أسبابه . فلا يجد الإلهام الفجورى مجالا يتبختر فيه ، ولا ميدانا يصول عليه . وأحسبه ينكمش إذا نقص المداد أو قطعت الأسباب . وللعلم أقول : إن الزهد من عمل إلهام التقوى ومن أسلحته القاضية على الإلهام المضاد . فإن داء النفس ودواءها منها وإليها . داؤها فُجُورُها . ودواؤها تقواها . داؤها هواها . ودواؤها مخالفتها . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وللعلم أهمس فى أذن أخى بل فى قلبه وقلب كل مريد سالك فأقول : إن الزهد المطلوب ليس فى المال فقط كما يفهم أمثالنا الضعفاء . إنما هو فى كل ما تحب النفس وتشتهيه . وكل ما تميل إليه بمقتضى غريزتها وجبلّتها . فالزهد فى المال وعن المال فرع من فروع الزهد . وقد يكون لعلّة . ولما كان المال محبوباً لَدَيْنا عزيزاً علينا فهل نذهب إلى تحديد الزهد فيه . كلا والله فانظر أخى إلى سبب معصية آدم عليه السلام فإنه لم يوفق إلى الزهد فى الشجرة طمعاً فى البقاء والخلود مدفوعاً بالحرص وحب الملكية . فالزهد فى كل شىء وعن كل شىء إلا الله تبارك وتعالى . ومراده منك حيث العبودية لا تتحقق لله والقلب متعلق بشىء سواه . فالزهد عن المال والزهد عن الحياة دينياً أو دنيوياً ، والزهد عن الأهل والولد والزهد عن الرياسة والوظيفة ، والزهد عن كل ما تحب النفس ظاهراً وباطناً ، وكل ما لم يكن من تقوى الله فهو فُجُورٌ محض ولو كان حلالًا صِرْفا ما لم يكن المراد به التوسُّل والتوصل إلى محابّ الله ومرضاته حيث عمل النفس البشرية إما بإلهام التّقوى ، وإما بإلهام

فجور ولا ثالث لهما . وكل عمل لم يكن مقصودا به وجه الله ومرضاته فهو من حظ النفس وفجورها أيًّا كان نوعه ولونه وذاته وأثره . فالإنسان عمله بين إلهامين . فالمطابق الموافق لدين الله وشريعته هو من إلهام التقوى والعكس هو من إلهام الفجور . ولذلك يحاول أهل الورع ترك بعض الحلال خشية الوقوع فى الحرام الذى هو من عمل إلهام الفجور . فالحلال بين ، والحرام بَيِّن . وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس . فمن اتّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . فالحلال داخل فى إلهام التّقوى ، والحرام داخل فى نطاق إلهام الفجور حيث الفرق بين الإلهامين بَيِّن واضح . ولكن الخطورة فى المشتبهات . ولما كان لا سلامة من إلهام الفجور نظراً لدقته لاتحاد المصدر قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ وهم الذين لا يدعون مجالًا لإلهام الفجور حيث يقضون عليه أولًا بأول . يتوبون إلى الله من كل ما يصدر من النفس ولو كان من تقواها خشية هواها وحذراً من فجورها . وعلم الله لولا خشية الإشفاق عليكم لفسّرت لكم هذه الآية بما هو أدق من ذلك فما أريد أن أشق عليكم وفوق كل ذى علم عليم . ولكن لا بأس أن أقول لكم . إن التوبة من الحلال ، والتطهر من الحرام وذلك لقطع اللذة على النفس . فأقرأ إن شئت قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ .

فاعلم أخى : أن الفرق بين الحلال والحرام فى مأتى النفس رفع العقاب ونزوله . فإذا كان المأتى والمفعول حلالًا فلا عقاب عليه ، وإذا كان حراماً فالعقاب والعذاب . ولما كان لا غنى للإنسان عن غشيان ما أحلّ الله فالثواب من الله على أساس الابتعاد عمّا حرّم الله عليه .

وقد علمت أخى وسيدى أن التوبة من الحلال ليس لذنب مرتكب أو مخالفة يعاقب الله عليها . كلّا كلا وألف كلا . إنما هو للتخلف عنه بعض

الوقت وللاستئناس بسوى الله ظرفاً وحالًا . فإن النفس بمقتضى طبيعتها تستأنس بما تحب . واستئناسها بشيء يشغلها عن شيء . والله يحبّ التوّابين الرجاعين إليه من حظوظ أنفسهم وشهواتها .

فاعلم أخى : أن حقيقة التوبة ومعناها لغة وبيانا هى الرجوع إلى الله بمحابه ومرضاته والرجوع إلى الله بعد تعاطى الحلال أيا كان نوعه ولونه يجعل المفعول المتعاطى طاعة وعبادة لأن الرجوع إليه سبحانه يفيد الرجوع عن النفس واستدبارها ويفيد الاستعاذة به من شهواتها وحظوظها ، ويفيد الاعتراف بنعمه وأفضاله عليها ، ويفيد الشكر بأجلى معانيه ويفيد الاعتذار عن استغراق الوقت فى شهوة لا طائل تحتها . ويفيد معنى العبودية المحررة من استرقاق الشهوات النفسية لها . فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . ومعنى هذا أن ما يراه الأبرار حسنة ويأتونها هى عند المقربين سيئة يقترفونها . والمقرب هو المحبوب . ولذلك يتوب إلى الله متابا من كل ما هو منه لعلمه بقدرة ربه واقتداره . ولإدراكه معنى التوفيق والهداية يضع نصب عينيه قوله تعالى : ﴿ **قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً** ﴾ .

فاعلم أخى : أنه ليس للمؤمن أن ينظر إلى الحلال الذى أحلّ الله بعين ما حرم عليه . كلّا وألف كلا . إنما عليه أن ينظر إلى كل شيء بعين الله – الحلال حلال ، الحرام حرام . فالتوبة من الحلال ليس معنى هذا تحريمه إنما معناه التحرر من ربقة النفس وشهواتها . فإن الشهوات كلها خلقت ابتلاء واختبارا لا غاية وهدفا مقصوداً . قال تعالى : ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفوا وَلَمْ يَقْتُروا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَواماً** ﴾ .

وقد علمت أخى : أن النفس رغم أنف صاحبها تأخذ نصيبها من الشهوات مهما كان الضغط عليها . ولذلك أمرنا بنهيها عن هواها باعتبار كل ما فيها هو من هواها . أعاذنا الله وإياكم من شرورها وأوضارها ، وسيئات أعمالها .

أخى :

إن من جاهد نفسه فيما أحلّ الله أحسبه يشتد ساعده عليها فيما حرّم الله عليها فالنفس إن تركتها على حالها لا تشبع من حلال ولا حرام ولو جمعت لها الدنيا كلها فى صعيد واحد فالفقر صفتها ، والافتقار دأبها قال تعالى : ﴿ **يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الحَمِيدُ** ﴾ ولذلك يحب الله التوّابين ويحب المتطهرين . فالتوبة مظهر الفاقة والافتقار إليه سبحانه : فالتوّاب هو الذى لا يستغنى عن الله بشىء ويرجع إلى ربه فى كل شىء . فقره إليه قائم ، وافتقاره عليه دائم ، يحبه الله لأنه يحاول الحياة بربّه ولربّه شأن الملائكة الكرام رغم بشريته ورغم مناهضة العدُوّ له يحبه لكثرة استغاثته بربه من شرور نفسه ، ومن حبائل الشيطان وحيله – يحبه لاستيحاشه من كل ما تهوى النفس ولو كان مشروعا . فالحمد لله والشكر له . فالتوبة من الحلال شكر عليه حيث لم يحرمه الله عليه . وهو يملك ذلك بمقتضى ربوبيته . فالحمد لله والشكر له .

واعلم أخى : أن التّوْبة على أقسام – توبة من الزّلات . وتوبة من الغفلات . وتوبة من رؤية الحسنات والتوبة التى عليها مدار حديثنا هى التوبة من الشرك بمعنى إشراك النفس . قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ * بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾ فانظر أخى وتدبر ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلماً** ﴾ .

وختاماً أقول إن الله خلق النّوم راحة للبدن والروح قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلنا نَومكُم سُباتاً** ﴾ والمسبوت هو الميت والمغشى عليه . والإنسان فى حال النّوْم يخرج من عالمه إلى عالم آخر يجهله ، ومن حركة إلى سكون . ومن تعب إلى راحة . والنوْم يقطع الإنسان عن الحلال والحرام . وبذا تستريح النفس ، وتستقر الروح ، فتسبح ما شاء الله لها أن تسبح ثم تعود إلى البدن بنشاط جديد واستعداد جديد حيث أخذت من الراحة نصيباً وافراً ، ولولا هذه الراحة للروح فى النوم لما استطاعت التجانس مع البدن . فإن الروح لابد لها من حياة محسوسة بالنسبة لها فى عالمها المغاير لعالم البدن ، فإنه من أمر الله

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ فإذا نام الإنسان تجرّدت الروح من تبعات البدن وتخلصت من الاسترقاق حيث لا انشغال بحلال أو حرام أو شهوة أو أى غرض آخر : روح خالصة من كل شيء سوى ربّها وخالقها قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِالَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهارِ ﴾ وقال ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ فهي فى حالة النوم بأمر الله وفى أمر الله . ولذلك ترتاح فى النوم وتستأنس بمناسبة وجودها مع الله وتحت أمره المباشر .

ومن هنا نعلم السر فى أن أولياء الله المقربين لماذا لا يرهقهم عدم النوم وهم بشر أمثالنا لأن أرواحهم خلُصَت من تبعات البدن . فلا شاغل لها عن الله خالقها وبارئها . فالصحو كالنوم بالنسبة لراحة الروح واستقرارها . ولذلك يصعب عليهم النوم لما يجدون من استئناس الروح وراحتها من الاشتغال بالله ، والاستئناس به سبحانه فإن الروح إذا تعلقت بشيء فرّ منها النوم لأنها مشغولة بهذا الشيء معلقة به .

وقد علمت أخى وسيدى وفوق كل ذى علم عليم أن استئناس الروح بعالمها وهى فى البدن لا يجلب النوم الذى تطلبه الروح للصعود إلى عالمها . وإلى هنا نكتفى بهذا القدر . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * * *

طلب المغفرة ضرورة للمؤمن

أخي :

إن حياة الإنسان أحب شيء لديه ، ولا شيء سواها أحب إليه منها ، سواء أكانت له أم عليه حالا ومآلا ، فإنه بمقتضى طبيعته يؤثر الحياة على الموت حتى ولو كان الموت وعداً له من الله ليدخله جنة الخلد يتمتع فيها كيف يشاء . قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * والآخرة خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وهذه الحياة حاصلة له من الله بغير سبب منه ، ولا قدرة له فى الحصول عليها ، والاكتساب لها حيث إنّها من الله وحده يرزقها من يشاء ويمنعها من يشاء .

فبالحياة المطلقة المضافة إليه سبحانه وجود الإنسان وقدرته على الحركة فيه وله وعليه . ومن تعقّل هذا وتدبّره بالعقل – الذى أكرمه الله به وميزّه على سائر الأحياء من المخلوقات مثله – أحسّ من أعماق قَلْبه مدى فضل الله عليه ونعمه إليه . وفى هذه الحالة تتملكه شريعة العدل فيعطى ربه حقه من الحمد والشكر على نعمة الحياة التى لا مثيل لها فى النعم والأفضال حيث لا نعمة أكبر منها ، ولا فضل أعظم منها ؛ لأنها أم النّعم ومحل النعم الأخرى وموضعها .

وقد علمت أخى أن نعمة الحياة فى ضرورتها وآثارها ودقّتها وغفلة الإنسان عن شهودها ، وذكرها بالنسبة للنعم الأخرى التى يتطلّع إليها أشبه بنعمة الروح بالنسبة للبدن ، ولما كان لنعمة الحياة صفة الجريان والاستمرار فالنسيان لها والغفلة عنها دأب الإنسان وطريقته . وسبب هذا استدامة الحياة للإنسان بلا كسب منه ولا تسبب من جانبه مع علمه ويقينه بعظمة هذه النعمة وأنها من الله وحده ولا فضل لمخلوق عليه . وهذا ما يسمّيه أهل العلم بالله ويصفونه بنعمة الإيجاد . أما النعم الأخرى التى لا حصر لها فهى نعمة الإمداد . قال تعالى فى وصف الإنسان الغافل عن هذا فلا يذكره ولا يشكره ﴿ قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾

الآيات، هذا فيما يتعلق بالحياة الدنيا المحدودة الأجل . فمن آمن بالله واليوم الآخر أخذ طريقه إليها بكل ما ذكر فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ . شاكرا ربه على كل ما أنعم به عليه إمداداً وإيجاداً ، وعلى ما وعد به من نعمتى الإيجاد والإمداد للمؤمنين من العباد فى الدار الآخرة التى إليها مصير الخلق ﴿ **وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وإِلَيْكَ المَصِيرُ** ﴾ .

وللعلم أذكر لإخوانى أن شكر الله وذكره من جانب الإنسان مهما بلغ من درجات الإيمان لا يتناسب إطلاقاً مع نعم الله وأفضاله . ولأنه سبحانه وتعالى يعلم ذلك منه فرض عليه ما فرض من الأوامر والنواهى ليكون على صلة به امتثالًا واجتناباً . فإذا قام العبد بذلك رغبة ورهبة وخوفاً وطمعاً غفر له جهله به وغفلته عن ذكره وشكره فيما أنعم به عليه لأنه بمقتضى بشريته وطبيعته وحياته فى عالم الشهادة لا يرى إلا نفسه ومن على شاكلته من المخلوقات الأمر الذى يحجبه عن مشاهدة صفات الله فى كل ما هو كائن ، ولأجل هذا فرض على المؤمنين طلب المغفرة منه ، كما فرض عليهم الطاعة . وبهذا نعلم أن الطاعة إن لم تكن مصحوبة بطلب المغفرة فهى ليست بالطاعة التى فرضها الله على عباده مهما كانت مظهرا وصورة لأن طلب المغفرة من العبد من مشتملات الطاعة التى أمرنا الله بها ،ولذلك جاء طلب المغفرة مقترناً بالطاعة . فالسماع يقتضى الطاعة . والطاعة تقتضى الفعل والترك وبالفعل يتقرب العبد إلى ربه . وبالترك يبتعد عن نفسه . وعن كل ما يعوق طريقه إلى الله . وبهذا النوع من السلوك يحصل للمؤمن العلم بأسمائه والمعرفة بصفاته . ومتى علم وعرف وقف عند حده . ومن وقف عند حدّه لجأ إلى ربّه بكل ما عنده من قوة وجُهد . وعليه أقول لإخوانى : إنّه لا ينتفع بنعمة الله بالإيمان والعلم إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها . ولم يتجاوزه إلى ما ليس له ، ولم يتعد طوره ، ولم يقُلْ هذا لى . وتيقّن أنه لله ومن الله وبالله . فهو المانّ به ابتداء بلا سبب من العبد ولا استحقاق منه فالحمد كله لله أولًا وآخراً : فإذا تحقق العبد بذلك أدرك معنى قوله تعالى : ﴿ **غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ** ﴾ وفى هذه الحالة يتجرد من شهود أعماله وأفعاله لما تيقّن وتبيّن له من مراده تعالى فى التكاليف عليه .

وبهذا نعلم أن الطاعة له سبحانه وتعالى تقرب العبد من ربه ، وبالقرب منه يتكشَّف له من أمر الحياة ما كان محجوباً عنه . فيرى بنور الله ما لم يره بنور نفسه وعقله وصفاته قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوُا إن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنوُا اتَّقُوا الله وآمِنوا بِرَسُولِه يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِه وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَو مَن كَان مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ .

أخي :

عليك أن تعلم أن الذين يعيشون فى الدنيا بصفاتهم الإنسانية محجوبون عن مشاهدة صفات الله التى من آثارها وأفعالها هذه الحياة التى يحبونها والصفات التى يشعرون بها ولتعلم ويعلم إخوانى أن ما كلفّنا الله به من الطاعات والعبادات مقصود بهذا التكليف التعرف عليه سبحانه . فإذا حصلت المعرفة توسلنا إليه عزّ وجلّ بكل ما هو منا ليغفر لنا جهلنا به وغرورنا بأنفسنا التى لا حول لها ولا قوة فى كل ما نتصوَّره أنه منا . فمن نظر إلى ما هو من الله إليه خلقاً وإيجاداً وإنعاماً لا يرى لغيره عملًا ولا فعلًا . ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى ﴾ فإذا كان هناك ما يصح أن ينسبه الإنسان إلى نفسه أو غيره من المخلوقات ظاهراً فالإيمان به سبحانه على ضوء المعرفة المشار إليه يقتضى من العبد أن يرى كل ما هو منه توبة واستغفارا لأنه مَدينٌ لله بحياته ووجوده وتوفيقه فى كل ما هو فيه . ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِالله ﴾ وبهذا نعلم أن الله تبارك وتعالى أكرمنا بكل ما فرض علينا ودعانا إليه من صالحات الأعمال ليغفر لنا ذنوبنا وآثامنا فمن عرف الله عزّ وجلّ بهذا الكيف لا يَمُنُّ على خالقه بعمل ولا قول ولا فعل .

ومن لم يعرفه بهذا الكيف فإنه لا يرى إلا ما هو منه ولو قليلًا . أعاذنا الله وإياكم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ومن الجهل والغفلة . والغرور . فإنا لله ابتداءا وإليه انتهاء وإليه راجعون نهاية . فمن علم الحق الذى لابد منه سارع

إلى طلب المغفرة من ربه قال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ ولما كان معلوماً لدينا بأن الجنّة من الله وحده ، ومن خلقه وحده فكذلك الشأن فى المغفرة وهذا وجه الاتصال فى الآية بين المغفرة والجنة . فالمؤمن كما يطلب الجنّة من الله فضلًا ورحمة . كذلك يطلب المغفرة منه فضلًا ورحمة .

أخى :

إن الإنسان بحكم طبيعته ، ومقتضى بشريته قد ينسى نعمة الخلق ، والإيجاد . ولذلك جاء تكليف الله بذكر نعمة الإمداد والإيجاد لأنها لا تنقطع أبداً حيث هى مجددة باستمرار . قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ فمن لم يعرف الله بالنعم الجارية عليه بصفة مستمرة وصور مختلفة متجددة فإنه لا يمكن أن يعرفه بالنعم السالفة ، والنعم التى وعده الله بها . وقد علمت أن الإيمان بالله على ضوء ما أنزل وأرسل هو الطريق إلى معرفة النعم السالفة ، والنعم اللاحقة ، والنعم الحاضرة .

ولما كان لا حصر لنعمه سبحانه ولا يمكن الإحصاء لها . فقد أكرمنا عزّ وجل بتيسير الطريق إلى معرفة نعمه قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ولا نهاية لهذه الزيادة . فمن شكره على نعمه بصّره بنعمة هو فيها قد يكون جاهلًا بها ولها ، وأعطاه نعمة أخرى زيادة على النعمة التي هو فيها . وهكذا إلى مالا نهاية حتى يلقاه بنعيم الجنة ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُم أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ ومن هذا نعلم أن من شكر الله على نعم الحياة الدنيا مُمْتَثِلًا أوامره ومجتنباً نواهيه زاده الله بنعم الآخرة .

ولأن الأمر كذلك فالشيطان يعمل جهده لمنع المؤمن من شكر الله فى الدنيا . قال تعالى حاكيا عنه ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ وقال عزّ وجلّ ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وإِمَّا كَفُوراً ﴾ وقال سبحانه : ﴿ فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ .

* * * *

أخى :

قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

أخى :

إن كل ما حض عليه الشرع من الأعمال ودعا إليه من الأحوال فهى صالحة لا شك فى هذا ، سواء أكانت دنيوية أم أخروية : قال رسول الله ﷺ « إن الله يحبّ من أحدكم إذا عمل عملا أن يتقنه » أو كما قال .

فالأعمال الدنيوية إذا كانت فى موضعها ولم يعترضها الشرع فهى صالحة فى ذاتها . ولذلك يحيى الله عاملها وفاعلها حياة طيبة إذا كان مؤمناً . والمقصر فيها يجزى عليها فى الآخرة حيث الحياة الطيبة نتيجة حتمية للأعمال الصالحة وخاصة بالنسبة للمؤمن بمقتضى ارتباطه بربّه وإيمانه بربوبيته وألوهيته . وللعلم أقول : إن التخصيص بقوله ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ يفيد أن غير المؤمن إذا عمل صالحاً لا يحيا بعمله الحياة الطيبة لأن الذى يحيى ويميت هو الله لا ذات العمل . فالحياة الطيبة يملكها الله . وهو الذى يتصرف فيها ولا يملكها كائن من كان فى هذا الوجود لأنها متعلقة بالقلب ، والقلب بيد الله . ولذلك نجد الرجل يملك الدنيا كلها جاهاً ومالًا وسلطاناً وعزًا ولكن لا يملك حياة طيبة رغم توفر أسبابها بمقتضى الحكم الظاهر . فإنا مما علمنا أن مصدر الحياة الطيبة هو القلب والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء .

ومن هنا نعلم أن الأعمال مهما كانت درجة صلاحها سواء أكان صلاحها متعلقاً بالدنيا أو الآخرة لا تسعد الإنسان فى حياته ما لم تكن مسبوقة بالإيمان بالله ورسوله قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ

عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ فإن قوله تعالى ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ هى الحياة الطيبة حيث الحياة الطيبة تتولّد من صلاح البال : القلب ، العقل ، الفكر – وللعلم أقول : إن الآية تشمل كل عمل صالح من الإنسان . ولكن الحياة الطيبة يختص بها المؤمن دون غيره . ممن يعمل بمثل عمله . وهذه إشارة لطيفة إلى أن الأعمال مخلوقة . والمخلوق لا يفْعل للمخلوق مثله شيئاً حيث الأعمال وسيلة لا غاية . وللوسائل حدودها ومعالمها بحيث لا تتعدّاها ولا تتجاوزها . وقد أراد الله تعالى أن يلفت أنظارنا ويوجّه قلوبنا إليه لا إلى الأعمال فى ذاتها فلا نعْبدُ الأعمال . إنما نعبده ونتعبده بالأعمال الصالحة التى شرعها لنا وقد قال شيخنا وإمامنا ابن عطاء الله السكندرى : من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزَّلَل . فالعبرة بالمعانى لا المبانى .

أخى :

بهذه الآية وغيرها منعنا الله ونهانا أن نضع الدرجات على أى عمل يصدر منا . ونهانا أن نقرر مصائرنا بمقتضاها حيث لا قيمة للأعمال ولو صالحة ما لم تكن مسبوقة بالإيمان بالله حيث هو المراد منا ، فكثير من الأولياء الصديقين لا تجد منهم بعض ما تجد من عوام المسلمين من الأعمال الصالحة فى صورها ومعانيها . وبخاصة الأعمال التى تقوم بالمال والعزّ والسلطان . كبناء المساجد وعمارتها والصدقات والنّفقات وفتح البلدان . وغزو الكفار ، ونشر الإسلام ، وبث الدعوة المحمدية . وما إلى ذلك من الأمثال .

ومن هنا نعلم أن العبرة والأساس بالإيمان لا بذات العمل وقد كدنا بهذا نفهم الحديث الشريف الذى عليه عماد الدين الإسلامى : « إنما الأعمال بالنيات ...» الحديث .

فما الأعمال إلا وسائل ودلائل قال رسول الله ﷺ ما معناه : « لقد دخل رجل النار بذُبَابَة فقيل كيف يا رسول الله ؟ قال : لقد كان جماعة من الأعراب يعبدون صنماً فمر عليهم الرجل الأول فمنع من المرور حتى يتقرب إلى إلههم ومعبودهم بشىء . فقال لا أملك شيئاً . فقالوا تقرّب إليه بقربان

ولو بذبابة وقد فعل . ولذا دخل النار بذبابة . أما الآخر فقد أبى وامتنع وأقسم ألا يتقرب إليه ولو بذبابة فُقتل فدخل الجنة » . أو كما قال . فانظر أخى وتدبّر ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ .

وللعلم أذكر لأخى أن عمر رضى الله عنه كانت خلافته لمدة عشر سنوات وكلها مصروفة فى طاعة الله وعبادته . وتاريخه معروف مشهور . أما أبو بكر فقد كانت خلافته سنتين تقريباً ؛ ولم يبلغ ما بلغ عمر من الأعمال الصالحة التى يرويها التاريخ عنهما . ومع ذلك فهو الفاضل وعمر المفضول . والفرق بين المقامين معلوم . قال رسول الله ﷺ « ما فضل عليكم أبو بكر بصلاة ولا صيام . ولكن بشىء وقر فى صدره . وهو حبّ الله ورسوله » أو كما قال . وقال ﷺ ما معناه . « لوْ وُزن إيمان أهل الدنيا بإيمان أبى بكر لرجح بهم إيمان أبى بكر » إذ ليست العبرة بالعمل الصالح فى ذاته . ولكن العبرة بالداعى إليه ولمن عُمل هذا العمل . فإذا كان لِلّهِ طيَّب الله حياة من عمل هذا العمل . وإذا كان لغير الله فلا تطيب الحياة بهذا العمل . وربما يكون كالطعام الشهى الحلو اللذيذ الذى تشتاقه النفوس كلها. وتتطلّع إليه . ولكنه يجلب الداء والمرض بعكس المراد منه .

أخى :

إن الضمير فى قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ راجع إلى الله عز وجل وهو الذى يؤمن به العامل حيث بمقتضى إيمانه عمل هذا العمل الصالح . ولذلك يجازيه الله بالحياة الطيبة . الحسنة بعشر أمثالها . ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ .

وللعلم أقول : إن الطيب ضد الخبيث – الطيبون للطيّبات والخبيثون للخبيثات – والطيب شامل . والخبيث شامل . وقد ذكر الله الحياة الطيبة بصيغة التنكير لتباين الشعور وتغاير الإحساس ، وتفاوت المنازل والدرجات . فما تطيب به حياة شخص لا تطيب به حياة الآخر ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ فالمؤمن العادى لا تطيب حياته

إذا كان هناك نقص فى دنياه . والمؤمن القوى لا يبالى بنقص دنياه . ولذلك لا يعكر صفو حياته ما يجد من النّقص فى دنياه . وبعض الأتقياء من المؤمنين تطيب حياتهم بذكر الأجر والثواب . وما أعد الله لعباده من الجزاء ومن هم فوقهم فى الدرجات تطيب، حياته بذكر مولاه وخالقه وشهود الله وحده دون سواه . فكذلك تختلف الحياة بمقتضى تفاوت الدرجات وكلها طيبة مادامت بالله . وقد جاءت الحياة فى الآية بصيغة المفرد لأن الأمر يتعلق بالمؤمن خاصة . فلا يشعر بفضل هذه الحياة سواه . ولأن هذه الحياة تتعلق بالقلب وأعمال القلب غير ظاهرة للعيان ولأنها غيبية . والغيب لا يعلمه إلا الله . فالقلب غيب ، والرّب غيب واتصّالُ الْغَيْبِ بالغيب لا يَشْعر به إلا مَنْ وَالَاه .

وقد سُئل شيخنا الجنيد عن المعرفة بالله أهى كسْب أم ضرورة . فقال رضى الله عنه : رأيت الأشياء تُدرك بشيئين فما كان منها حاضراً فبالحسّ وما كان منها غائباً فبالدليل : ولما كان الله سبحانه غير بادٍ وظاهر لحواسّنا كانت معرفته بالدليل والتدبّر . وقال إمامنا الجنيد أيضاً رضى الله عنه . « إن الله يخلص إلى القلوب من برّه على حسب ما تخلص إليه القلوب من ذكره » فانظر ماذا خالط قلبك ؟ فالمريض بجوار المريض يختلفان فى الشعور ، ويتباينان فى الإحساس رغم المجاورة والمحاذاة .

ومن هنا نعلم لماذا جاء الخير بصيغة المفرد أما الجزاء العام الذى يكون فى الجنة فقد جاء بصيغة الجمع فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ لأن هذا الجزاء معاين ومشاهد ومحسوس ملموس . فهذا مقام فلان . وذاك قصر فلان وهذه جنة فلان جزاء وفاقاً . «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . وقال تعالى : ﴿ **وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُور رَّحِيم** ﴾ . ﴿ **كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا** ﴾ ﴿ **وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ** ﴾ ﴿ **كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمن يَشَاءُ** ﴾ وقد قال الله تعالى فى الآية ﴿ **بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ لأن العمل فى الدنيا

يكون بتكلف ومشقة . أما الجزاء هناك . فلا تكلف ولا مشقة فيه ، والتنعم فى الجنة لا تصحبه غُصَّةٌ ولا كلفة كما هو شأن التنعم فى الحياة الدنيا . قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ألا فليعلم أخى أن العمل الصالح هو كل مانصّ عليه الشرع ودعا إليه ﴿ وَالعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ ... ﴾ السّورة .

فالعمل الصالح هوا لذى يكون من المؤمن بمقتضى الأمر يقصد به وجه الله . ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .

العمل الصالح هو ما يكون صالحاً للقبول عند الله . ﴿ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ ﴾ .

العمل الصالح هو الذى يصلح نفس الإنسان لمولاه . ويصلحها لآخرتها ودنياها .

العمل الصالح هو ما يكون فيه صلاح الغير من خلق الله . ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَق مَّعْلُومٌ * لِّلسائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ ﴿ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ .

العمل الصالح هو ما يستفيد منه المجتمع العام الكثير والكثير ..

العمل الصالح هو كل ما يخالف النفس والهوى طاعة لأمر الله وتنفيذاً لشريعته سبحانه . وقدّم الله الذّكر على الأنثى فى الآية لأن أعمال الأنثى دون أعماله ، ولأنها من أعماله ، ولأنه مسئول عنها مكلف بإصلاحها وإصلاح أعمالها . ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ هى حياة الرضا والقناعة فإنه من رضى بقسمة الله سعدت حياته حيث لا يشعر بنقص يجُرّ عليه تنغيص حياته . ولا يحسّ بقلق على مصيره . وإن نازعته نفسه . وتطاول عليه هواها ردّ الأمر إلى ربّه

وخالقه متجردا من حوله وقوته إلى حول الله وقوّته . فاقدا الإحساس بالاستحقاق والجدارة بالنسبة لنفسه شاكرا ربه على ما يواليه به من نعمه وأفضاله . ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ وهكذا يخاطب نفسه إن نازعته بهواها وفجورها فيتغلب عليها حتى ترضى بقسمة الله لها وعليها .

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُه إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ .

حياة طيبة لأنها غير مصحوبة بندم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .حياة طيبة لأنها تجلب لصاحبها سعادة الدارين . حياة طيبة لأن صفقتها رابحة مربحة . حياة طيبة لأنها سماوية محضة وربانية صرفة . حياة طيبة لأن صاحبها مع الحق لا مع الخلق . وفى الجنة لا فى الدنيا ، وبروحه لا بنفسه . والروح من أمر الله . حياة طيبة لأنها حياة المعرفة والعلم بالله . حياة النظر إلى الأشياء بوجهة واحدة هى وجهة الحقيقة . حياة طيبة لأنها حياة الأنس والمشاهدة . حياة النور والإشراق والفتح والإغراق . حياة طيبة كيف أصِفُها لأخى وهى التى نطق بها الحق جلّ جلاله . والله إنها لحياة طيبة حقاً ومن ذاق عرف .

- أخى :

أستطيع أن أقول لك : الزم باب ربك ، واترك كل ما دونه . واسأله السلامة من دار الفتون . فنحن والخلائق كلنا عبيد . والإله فينا يفعل ما يريد . أشهد أن لا إله إلا الله وحده . وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله .

على المؤمن أن يدور حول هذه الكلمة كيفما دارت . أخى تجرد من حظك وهواك فى أعمالك . تجد الحياة الطيبة بنورها وإشراقها : ﴿ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ فهذه هى الحياة الطيبة التى عرفناها ويجب أن يعرفها كل مؤمن . وهى أيضاً المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّق بِالحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُه لِلْيُسْرَى ﴾ .

* * * *

أنماطٌ وأنواعٌ مِنَ الإيمان

أخى :

إن الغاية من الأعمال الشرعية التعبدية منها والتعاملية والخلقية التقرّب بها إلى الله تبارك وتعالى . لا بلوغ الأهداف النفسية ، والمطامع الشخصية التى لا نهاية لها ولا حصر . فإن العبودية تقتضينا أن نعيش فى فلكها دواما بصورها ومعانيها بغض النظر عن النتيجة لنا أو علينا فإن تقدير النتائج من حق المعبود لا من حق العابد . ومن حق الربّ لا من حق العبد .

وقد علمت أخى أن النفس البشرية لا تملك هذا الحق وإن ادعته أو تظاهرت به فذلك هو الافتراء المحض ، والضلال المبين .

وقد علمت أخى أن مهمتنا تنحصر فى ملاقاة الله بما يحب ويرضى ، وفى ملاقاته بسؤال العفو والعافية من غير اعتماد على أعمالنا ، ولا نظر إلى ما كان منا ، فإن أعمالنا لا قيمة لها مقابل نعمه علينا . هذا إذا كانت خالصة له صادرة من أعماق قلوبنا بمقتضى عبوديتنا له . فإذا كانت من أنفسنا ولحسابها الإنسانى فإنها غير جديرة بالرفع ، ولذلك لا وزن لها ، ولا جدوى منها . ﴿ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ ﴾ ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُه ﴾ .

وقد علمت أخى وربما لا قيمة لعلم أمثالى علمت وفوق كل ذى علم عليم أن العمل الخالص هو الذى يكون مجرداً من حظوظ النفس وأهوائها أى لا يكون مراداً به هدفاً من أهدافها وغاية من غاياتها . إنما لا بأس أن يتوسل العبد إلى ربه بصالحات الأعمال ليصرف عن نفسه ما يخشى ويخاف من الشرور والأضرار ، ومن البلايا والمصائب .

﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ ومثل ذلك أن يدعو العبد ربه بالصيغة التى

يختارها فى حدود المأثورات النبوية ليشفيه من علة ، ويبرئه من مرض وسقم ، وأن يأخذ بيده إلى ما فيه سعادة الدارين . فإن الدعاء مظهر الفاقة والافتقار ، ودليل الاعتراف بالعبودية لله تبارك وتعالى . أما الأعمال الأخرى التعبدية فله أن يأتيها بنية التقرب إليه سبحانه . وهو يفعل بعبده ما يريد .

ولما كان لا نهاية للقرب ولا آخر للوصول إليه سبحانه : كذلك لا نهاية للأعمال ولا آخر لها ولو عاش العابد ملايين السنوات .

وقد علمت أخى أن النفس البشرية بمقتضى طبيعتها لها فى كل فترة طمع ، وفى كل لحظة أمل حيث تتصور النتائج عقب كل عمل ، دبر كل فعل . فلست أدرى كيف يكون حالها إذا قضى الله حوائجها بمجرد عرضها ، وقد عرفناها لا تلجأ إلى ربّها إلا عند الشدة والبأس ، والفقر والضرر . أليس من فضل الله علينا جميعاً أن يمسك عنا ربنا حوائج أنفسنا علّها بمقتضى حوائجها تلازم باب ربّها وخالقها بشعور الفاقة والافتقار إليه سبحانه .

أخى :

إن الله غنى قدير ، ومن صفاته الكرم ، الجود ، العطاء ، ولكنه يمسك عن قضاء الحوائج بصفاته الأخرى الحكيم العليم القابض المانع الحكم العدل اللطيف الخبير . فإن صفاته كلها ذاتية بعضها من بعض يعطى ويمنع بمقتضى حكمته الربّانية يُعجل لمن يشاء ، ويؤخر لمن يشاء ، ويقبض ويبسط فى حدود مصلحة السائل ، والعبد الطالب . ولذا اعتبر العارفون بالله منعه عطاء ، وقبضه بسطاً . فهو العزيز الحكيم .

وقد علمت أخى أن الرجل الذى يطيع الله ويعبده . إنما يقصد بطاعته وعبادته وجه الله ومرضاته . فإذا كان الأمر كذلك فلا نهاية لمرضاته . ولا آخر لقصد وجهه الكريم ﴿ **وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى** ﴾ .

فانظر أخى إلى كلمة الأعلى . أين مداها ؟ وأين حدودها ومعالمها ؟ ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ ﴿ **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ** ﴾ ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ** ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا..... ﴾ الآية .

وللعلم أقول : إن أول العبودية والإيمان الحمد لله ربّ العالمين ونهايتهما كذلك . ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ فالحمد لله والشكر له . وعليه أقول إن من كان شأنه كذلك ويعبد الله بهذا القصد فليس له أن يتوقف عن طاعته وعبادته ولو فقد الدنيا والآخرة . وذلك محال . ورب رجل يطيع الله ويعبده خشية العذاب ، وطلباً للثواب فمن كان هذا شأنه وقصده فالعذاب والثواب محلهما الدار الآخرة لا دار الدنيا . إذاً فالمشوار طويل ، والطريق ممدود . فلا داعى للاستعجال حيث العذاب والنعيم يكونان بعد الموت لا قبله ، فإذا طلبهما أو طلب النعيم فى الدنيا فلا نعيم له فى الآخرة حيث أخذ نصيبه من الدنيا شأنه شأن الكافر . أعاذنا الله وإياكم من الكفر والضلال فأما الذى يطيع الله ويعبده ليسعد فى حياته الدنيوية فإنه تعالى يكرمه ويعطيه مراده فى الدنيا وقصده منها . وهو بهذا قد ضل السبيل ، وأخطأ الطريق ، وتجاوز الحد ، وخسر آخرته ﴿ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ ﴾ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنيا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ ﴾ أعاذنا الله وإياكم من ذلك . ورب آخر يعبد الله ويطيعه دون فكر وروية . ودون تقدير ولا تحرير بمقتضى الوضع والنشأة والبيئة . ومن كان هذا شأنه فهو إلى التقليد أقرب منه إلى التحقيق . ولذا فهو معرض للخطر فى كل لحظة إلّا من رحم الله وهدى . ومثل هذا لا ينمو الإيمان فى قلبه ولا يصعد أبدا إلى أعلى . فهو فى مكانه . ويموت على ما عاش عليه من التقليد والجهل . وأمره إلى الله ورب رجل آخر يعبد الله ويطيعه وهمه الأكبر دنياه ، ولا يكون منه لربّه إلا ما فرض عليه من العبادات كيفما اتفق وحيثما يكون ومن كان هذا شأنه لا يذوق طعم الإيمان ولا يجد حلاوته ولا يصل إلى مراد الله منه يعيش كما تعيش الأنعام حول العلف والعمل بلا رويّة ولا تبصرة . ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ ﴾ ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ورب رجل آخر يعبد الله ويطيعه ويحب ذلك من قلبه . ولكنه لا يتزوّد من النوافل المقربة ولا يأتى

الأسباب المضاعفة للإيمان المنمية لليقين إنما يتمنى ويطلب ويرجو ويقول لمن يعْتَقد فيه الخير ادْعُ الله لى : وما إلى ذلك من الأقوال والأفعال . أما الحياة الدنيا فيحرص عليها وعلى أسبابها بهمة ونشاط كأنما هى الأصل وغيرها هو الفرع . ومثل هذا ينطبق عليه قول الله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِم ﴾ ومثل هذا نرد عليه بقول الرسول عليه الصلاة والسلام . « ليس الإيمان بالتمنى . ولكن ما وقر فى القلب ، وصدقه العمل » . أو كما قال .

وربّ رجل آخر يعبد الله ويطيعه ، ويحاول أن يشغل فراغه كله بالطاعة والعبادة راجياً من هذا أن يلقاه الله بالتّرحاب ، ويعانقه بالرحمات والإشراقات ، ويفيض عليه بالفتوحات المادية بحيث يكمل شعوره بهذا ، ويثبت يقينه بالوصول إليه ، وأنه بلغ من الأمر شيئاً محسوساً . وقد تولاه الله بما أفاض عليه . فصار له شأن يذكر وخير يذاع . فهذا هو المفتون أبداً . المغرور أبداً . المعجب بنفسه أبداً . المرائى أبداً . الضال الطريق القويم أبداً . أعاذنا الله وإياكم من السلب بعد العطاء ، والكفر بعد الإيمان والجهل بعد العلم ، فالحمد لله والشكر له .

أخى :

أحسبنى بهذا العرض عقدت الأمور وشوكت الطريق وبثت الألغام فى الطول والعرض ، بحيث لا خلاص ولا منجى ولا فرار ولا بلوغ . فوالله إنى لا أقول إلا ما علمت وما أحسست به وأدركت وفوق كل ذى علم عليم . فإذا لم يكن الأمر كذلك ، والخطر أشد من ذلك فعلام كان رسول الله ﷺ يضرع ويناجى ويدعو ويبتهل بالصيغ المعلومة لدى المسلمين جميعاً مع أن الله قد بشره بالمغفرة ومدحه وزكاه وصلى عليه وتولاه ، وأمرنا بالصلاة عليه تكريماً وتفضيلًا بحيث إن الصلاة عليه تقربنا إلى الله سبحانه وعلام كان يركع ويطيل ثم يسجد ويطيل حتى ظنت السيدة عائشة رضى الله عنها أنه قبض فوالله إن من ذاق عرف ، ومن التمس الطريق شعر بالصعوبة التى تعترضه والحواجز التى توضع أمامه ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ .

أخى :

سألتنى كيف العمل ؟ وما الطريق إلى الخلاص من عداوة النفس والشيطان ؟. وعليه أقول لأخى : إن من النادر أن يغلب الواحد الاثنين. وبخاصة إذا كان الاثنان أقوى من الواحد ، أو أحد الاثنين أعلم وأمكر وأدهى من الواحد، والثانى أجذب وأسحر من ساحر جذاب وعالم ماكر لا يمكن التغلب عليهما بحال فانظر أخى وتدبر . عقل الإنسان واحد ، والإنسان واحد ، النفس والشيطان اثنان . وهما ألد أعدائه ، أعداء العقل ، أعداء الإنسان ، فالنفس لها صفة السحر والجذب ، والشيطان له صفة العلم والمكر ، والإنسان دونهما فى الصفتين . إن الله الذى خلقنا وخلق هؤلاء لما يعلم من ضعفنا وقوتنا فرض علينا فى اليوم مرات عديدة فرضاً نعاقب عليه إذا تركناه أو تجاوزنا عنه أو تساهلنا فيه لكى نستعين به ونستمد القوة منه . ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

اسمع أخى بقلبك لا بأذنك ، وأنصت إلىّ بروحك لا بجوارحك . فإن مصير الجوارح الفناء ، ومصير الروح البقاء « إياك نعبد » . أى حقيقتك نعبد . وقد ذكرت هذه الحقائق على قلبك ولسانك وهى صفاته الأربعة ربّ – إله – رحمن – ملك – ولكل صفة من هذه الصفات معانيها . فالرّب هو الذى يربى خلقه ، ويتولى شئونهم ينفع ويضر . ويعطى ويمنع ، يرفع ويخفض وما إلى ذلك من أفعال الرب وصفاته . والإله هو الذى يعبد بحق ، وهو المعبود فى الوجود بحق ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الحى القيوم بديع السموات والأرض . الرحمن هو الذى يرحم ويرأف فالكائنات كلها قائمة برحمته . موجودة بحكمته إن اللقمة تضعها فى فمك لا تأتى إليك إلا بأمره ورحمته . ولولا أنها مأمورة لما استطعت هضمها ولما لانت لك وذابت فى حلقومك وبلعومك . انظر أخى كيف تستطيع أن تذبح الحيوان وتأكله بينما تحجم نفسك وتأنف أكل حشرة من الحشرات لأنها غير مأمورة وليست من نصيبك . فانظر أخى وتدبر فى صفات ربك كيف يربى خلقه ، وكيف يعطى ويمنع ، ويقبض ويبسط . وانظر أخى إلى هذا الترتيب الكونى والنظام الربانى . ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ الملك :

هو الذى يملك الجزاء ويقدر عليه . ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّين ﴾ أى الوقت والجزاء مملوك له فإنه سبحانه كما يملك الجزاء يملك الوقت . وقد خص يوم الدين بالذكر لارتباط الثواب والعقاب به خالياً من أى اعتبار آخر مما تعارف عليه الناس فى الدنيا من الموازين والمقاييس ﴿ يَوْمِ الدِّين ﴾ كما يقول الموظف يوم القبض عند المرتبات الشهرية بمقتضى أيام العمل فإن العامل ربما ينسى ما عليه من الجزاء أو الساعة التى تخلف فيها عن العمل . وفى هذا اليوم يعلم أو يخبر بماله وبما عليه ﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ حيث الحكم والقضاء والفصل والميزان والثواب والعقاب على أساس الأعمال الصالحة والسيئة من تعاليم الدين الإسلامى . ﴿ يَوْمِ الدِّين ﴾ يوم تكون الكلمة فيه لله الحق بمقتضى كتابه المنزل ونبيه المرسل ﴿ يَوْمِ الدِّين ﴾ . يوم تكون الإدانة للنفوس بما كان منها من خير أو شر ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلَامُ ﴾ فمن أدان نفسه فى الدنيا أطلقها الله فى هذا اليوم بلا قيد ولا شرط . ومن أطلقها فى الدنيا أدينت فى هذا اليوم ﴿ يَوْمَ لَا ينفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ سليم من التبعات – سليم من الأغيار – سليم من الحظوظ والأهواء سليم من الرعونات سليم من الآثار السيئة . ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ إن من زكاها فى الدنيا يلقى الله فى هذا اليوم وليس عليه من الذنب ما يجره إلى النار التى أعدها الله لتزكية النفوس من أدرانها لأن نار الآخرة لا تحرق بطبيعتها . إنما تحرق بغضب الله وسخطه على الإنسان .

ولذلك يمُرّ عليها المؤمن الذى زكى نفسه فى الدنيا كالبرق الخاطف لا يشعر بحرارتها إلا لماما كما يشعر العامل بالرايش الساخن الذى يعمل على المخرطة فإن هذا لا يعوقه عن عمله . وربما يكون إحساس بعض المؤمنين كإحساسهم بالماء الساخن يستعملونه فى الغسل والوضوء ساعة البرد القارس حيث يجدون اللذة فى المس والاستعمال ، ويشعرون بالراحة والأنس فى الجمع بين الساخن والبارد . وهذا شأن المؤمن فى الجمع بين الأضداد – يوم الدين – ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيًّا ﴾ .

أخى :

إن القلب يضطرب ويرتجف من تهيب اللقاء لشدة الموقف وما يرى من أحوال الناس ؛ فيأذن الله له بالمرور على الصراط ليخف من حدة الاضطراب وشدة الارتجاف فى هذه الحالة يحصل التفاعل فتطمئن النفس حيث ينادى المنادى ﴿ يَـٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ ﴾ .

أخى :

إن من قدّر هذه الأمور فى الحياة الدنيا وأعد العدة عاش سليما من الموانع والأعراض : ومن لم يقدر هذا لقيه الله بقوله يوم القيامة . ﴿ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

أخى :

إن السلامة فى مراجعة القرآن وتلاوته ، وتدبّر ما جاء من عند الله . فوالله الذى لا إله إلا هو إن تلاوة القرآن بتدبر وإمعان مع الإيمان واليقين بأنه من عند الله وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تحمل المؤمن على الاستعداد . وهى التىّ تشده إلى تقوى الله شداً وتسوقه إليها سوقاً . ﴿ الـٓمٓ * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

* * * *

العُبُودِيَّة الْحَقَّة

أخى :

العبودية الحقة هى الخضوع والذلّ : والمعبود : هو الذى يُخضع له ويُذل - والعبادة هى الطاعة والعبد هو الخاضع الذليل الفقير إلى معبوده . والعابد هو الذى يطمع فيما أمره به : طمعاً وخوفاً ورغَبًا ورهَباً فإذا كان العابد لم يقصد بعبادته طاعة ربه لا تكون عبوديته لله تبارك وتعالى : مع صحة العبادة من حيث الشكل والموضوع مثل الرجل يصلى صلاة صحيحة من الناحية الحكمية صلاة مطابقة للشرع من حيث الشكل والموضوع . ولكنه يقصد بها وجه الناس . أى يريد أن يحمد بها ويشكر عليها ، ويعرف بينهم بالطاعة والعبادة ؛ فذلك هو الشرك الخفى الذى يَدِقّ فهمه ، ويتعذر نبضه . ﴿ **وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ** ﴾ .

وقد علمت أخى أن العابد لله حقيقة هو الذى يجرد أعماله وعبادته وطاعته من قصد وجه الغير . فلا يشرك بعبادة ربه أحداً ، ولا يقرن بنيته حظ نفسه من شهوات وهوى . ﴿ **قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّين** ﴾ ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ** ﴾ ومن هنا يتبيّن معنى الحديث . « أخلص دينك يكفك القليل من العمل » أو كما قال .

وقد علمت أخى أن النفس بمقتضى طبيعتها تميل إلى لقاء الناس بأعمالها حتى الأعمال الخاصة بالشريعة التى يراد بها وجه الله . وإذا خلصت النفس من الرياء العام ، فربما لا تخلص من الرياء الخاص الذى هو شهواتها وأغراضها . فإنك تحب من يراك يراك متمسكاً بدينك حريصاً على طاعة الله وعبادته . بحيث لو ذُكرت بغير ذلك تثور عليك نفسك . وربما تبغض صاحبك لأنه أنقص

قدرك ، ولم يذكر فضلك وهذا نوع من الرياء دقيق . ولما كان التخلص من هذه الحالة أمراً عسيراً فإن الله تبارك وتعالى بمحض فضله ورحمته بعباده يغفر الذنوب جميعاً . وهذا هو السر فى ختم الآيات الأمْريَّة (التى فيها أمر) والبيانات التقريرية بقوله سبحانه . ﴿ **وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ .

أخى :

إن الإنسان مهما بلغ من درجات الإيمان واليقين ما عدا الأنبياء والمرسلين لن يكون ولن يبلغ فى يوم ما الكمال المطلق كما يتصور الكثير من أمثالنا لأن النفس البشرية مهما خلُصت وصَفَتْ وَنَقتْ لن يكون لها صفة الملائكية ، ولا صفة العصمة الذاتية . ومن هنا جاء قوله تعالى ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾ ﴿ **لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾ فالله سبحانه وتعالى قد وصف لنا حقيقة النفس وصفاً كاملاً دقيقاً ، وذكر لنا مادة تصميمها ، وجوهر ذاتها لئلا يكون الركون إليها والاعتماد عليها ، والغفلة عنها . ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ .فهى ملهمة بالفجور وملهمة بالتقوى . وفجورها سابق لتقواها . كما هو شأن الداء والدواء . فالداء هو السبب فى طلب الدواء . ولولا الداء ما كان ثمة داع للدواء . فكذلك فجورها الطبيعى هو السبب فى طلب تقواها فهى فاجرة وعلاج الفجور التقوى . وفجورها لا ينفك ولا يزول أبداً . ولكنه يتفاوت حسب صلابة الأيمان وقوة اليقين ولذا قال تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ ولم يقل سبحانه قد أفلح من محاها أو أذهب فجورها لأن فجورها لا يزول ولا يمحى . إنما قال تعالى قد أفلح من طهّرها أى أزال ما يعلق بها من آثار فجورها وأعمالها وذلك بتقوى الله أى الخوف منه الذى يقيك شرورها وفجورها لأنها كما هى ملهمة بالفجور فكذلك هى ملهمة بالتقوى . وحين خلقها الله خلقها وفيها الاستعداد لذلك ، ومن هنا ندرك معنى الأمر بالتوبة التى يخاطب الله بها المؤمنين من عباده . ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ ﴿ **يَاأَيُّهَا**

الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾ والتوبة النصوح هى تقرير المصير . وهى التوبة الصادقة الخالصة .

أخى :

إننا جميعاً مطالبون بالتوبة غير مطالبين بالعصمة الذاتية لأنها ليست من طبيعتنا كما أننا مطالبون بأن نتلافى الزّلّة كلما زللنا وسقطنا . والكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . وإدانة النفس معناها حبْسها عن شهواتها ، ونهيها عن هواها . ومن معانى الحبس . عدم تمكينها من التّلذذ بشهواتها . أى قطع السبيل عليها بالندم والحسرة بحيث تفقد الشعور بالراحة التى بمقتضاها وطلبها لها ارتكبت المعصية . وقارفت الذنب . فالنفس أيها الأخ تتصوّر الراحة والسعادة فيما تأتى وتذر . فإن تغلبت على صاحبها وأتت المحظور فما على صاحبها إلا إدانتها . ومتى ما أدانها شعرت بالندم . وإذا شعرت به ذهب عنها ما تصوّرته من الراحة والسعادة فتنادى بالخلاص من هذه الورطة حيث سجنت فى أضيق نطاق وهنا يسهل على صاحبها أن يسوقها إلى المخرج بكل ارتياح فتنقاد طلباً للخروج من هذا الضيق فما المخرج إذاً ؟؟ . ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ « وأتبع السيئة الحسنة تمْحُها ... » الحديث. تمحها من النفس أولًا . وبمقتضى محوها من النفس يكون محوها من صحيفة الأعمال . وهنا تسكن الحسنة فى النفس محلّ السيئة فيكون الإقبال على الله مضاعفاً . وهذا معنى أن الحسنة بعشر أمثالها حيث الحسنة التى تلى السيئة وتعقبها تجد الموضع طاهراً نقياً . ولذلك تكون خالصة لوجه الله حيث لا حظ للنفس فيها وقد أتتها راغبة فى التخلّص من ورطتها .

وليعلم أخى أن النفس إن تساهلت معها فى معصية صغيرة أو غفلت عن محاسبتها فيما ارتكبت انطلقت بلا روّية ولا هوادة بحيث يتعذر على صاحبها كبتها ورد عدوانها . فالنهى عن الهوى معناه حجزها عن أسباب الخروج والانطلاق . ولا بأس أن أضرب المثل فى ذلك ليكون العلم والبيان : شخص من الناس خاصم آخر وبينهما سوء تفاهم . فإذا ما سمح لنفسه بالاحتكاك حصل الاصطدام . وإذا لم يقف بها فى أول الأمر حصل التسابُب والتضارب

والشكايات وما إلى ذلك . فالنهى المطلوب منا إيقافها عند حدها عندما تبدأ فجورها ، وتفجر بصفاتها وطباعها ولأن جبلتها متابعتها لهواها . من أجل هذا أمرنا الله باستعمال أقوى الأسلحة فى ردّها وإيقافها عند حدها . ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى * فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى** ﴾ مقامك أيها الإنسان بين يدى ربك . ومقام الله بصفات الألوهية والربوبية فإنه متى ما أدركت النفس أن الله ينظر إليها ويعاينُ موقفها ارْعَوت وارتدعت . ﴿ **إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** ﴾ ﴿ **فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى** ﴾ فالمأوى هو المكان الذى يأوى إليه الإنسان وينزل فيه . والجنة هى محل الإيواء لكل من خاف ربه أى محل سكنه وإقامته .

ولما كانت الأعمال الصالحة هى التى تأوى المؤمن فى الجنة ذكرت الجنة بدلًا . فالمراد من خاف مقام ربه أوى إلى صالحات الأعمال التى يصاحبها دخول الجنة حيث الإيواء فى البيت بالمتاع لا بالجوار ﴿ **فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى** ﴾ خاف العبد مقام ربه فسكن إلى ما يقيه من غضبه وعقابه وهى الطاعات والعبادات وصالحات الأعمال ﴿ **لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمُ الفَائِزُونَ** ﴾ فالمراد مصاحبة الجنة بالأعمال الدالة عليها ﴿ **وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلم عَلِيمٌ** ﴾ .

أخي :

إن النفس بمقتضى طبيعتها تتوهم وتتصور ، فهى كما تتوهم الخير تتوهم الشر والضر . وقبل كل شيء تتوهم الفقر حيث الشيطان يعدها بذلك . ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالفَحْشَاءِ** ﴾ .

وللعلم أقول : إن النفس مع كراهيتها للموت لا تُحب أن تتصوره وتتخيله . وهى بهذا لا تعمل له حساباً إلا إذا دنت منها الأسباب كالمرض وغيره وذلك أن الموت حق . ولابد من ملاقاته طال العمر أم قصر . والنفس تعلم ذلك علماً لا مفر منه . لكنها لا تتصوره ولا تتوهّمه ؛ لأن التّصور والتوهم يحملان النفس على الاستعداد للموت وعلى ما بعده ، وفى هذا تكليف عليها ومشقة كبيرة لها . كما يترتب على ذكر الموت نَهْيُها عن هواها .

ولما كانت هى مجبولة على الهوى فإنها ترفض كل ما يتعارض مع هواها ولو كان الحق . ومن هنا نعلم سر فرارها من ذكر الموت الواقع لا محالة ؛ ولهذا فهى تفرّ من الضّربة العابرة أو الشّوكة التى تمسّ اليد لأنها تتوهم الشر والضّر فيما يصيبها فى دنياها ولا تتوهمه فى أخراها ؛ لأن قرينها وشيطانها أجله معها عند نهاية أجلها من الدنيا ، ولا صلة لها به بمجرد القضاء عليها بالموت . ولذلك يحملها على المحافظة على حياتها الدنيوية لتكون النتيجة واحدة ، والمصير احداً . ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وسر عداوة النفس والشيطان موقف إبليس عندما خلق الله سيدنا آدم عليه السلام وأمره بالسجود وامتناعه عنه حقداً وتكبّراً . ألا قاتل الله النفس والشيطان المفسدين لحياة المؤمن . حفظكم الله ورعاكم وأيدكم بتوفيق من عنده .

* * * *

التوْحيدُ والنَّفسُ البَشَرِيّة

أخي :

إن المراد منا أصْلًا وفرْعاً توحيدُ اللهِ وتَرْبيتُه والإيمان به سبحانه وتعالى ربًّا قادراً سميعاً بصيراً عليماً خبيراً مُحْيِياً مُميتاً فعالًا لما يريد . نوَحّده سبحانه لأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد . ولما كان بلوغ هذا المقام من الإيمان أمراً لا يتيسر لمخلوق فقد شرع الله الأسباب ، وبيّن الطريق ، ووضّح السبيل الموصّل المبلغ ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكفُر ﴾ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ .

وقد علمت أخي أن الطريق إلى الله واحد لا يتعدد . ولذلك يتعذر سلوكه لندرته وعزته حيث الإنسان أمامه طرق وسبل . فالله هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوَاً أحد . والإنسان عبارة عن نسخة من هذا الكون المتعدد . ولذلك فحياته لا تخلو من الشرك ولا يتجاوزه غباره وأُوَارُه : فهى بمقتضى طبيعته من شِرْك إلى شِرْك . ومن كفر إلى كفر . ولكن ربّك الغفور ذو الرحمة يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ولا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

وقد علمت أخي أن حركات الإنسان كلها وسكناته جميعها مزيجة بالشرك خليطة بالكفر لما يتصف به من الأنانية البشرية ، ولما يدعيه ويتصف ويتظاهر به من صفات القدرة والاقتدار والعلم والاستقلال . ولما كان هذا شأن الإنسان وطبيعته التى لا مفر منها فقد رسم الله له طريق الخلاص من هذه الدعاوى ، وألزمه السير على هذا الطريق والانتظام عليه باذلًا أقصى جهده فى المحافظة على آداب السلوك لما يعلم سبحانه من أن غفلة لحظة من الوقت تَرُدّ السالك إلى طبيعته البشرية فيتقحم من جديد فى أوْحَالِ العُجب والغرور وما إلى

ذلك من معانى الكفر والشرك . ولما كان الاستمرار على نهج الصراط المستقيم والمداومة على الاحتفاظ بآداب السلوك أمراً لا يحتمله الإنسان ولا يطيقه فقد اتصف الله تعالى بالمغفرة والرحمة ، وبالتجاوز عن السَّقطات والزّلات التى تقع من السالك على غير إصرار وعناد فقال : ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ ومن هنا نعلم أن الإنسان مهما أوتى من قوة ، ومهما بلغ من الاستعداد . ومهما بذل من جهد فإنه معرض للسّقطات والزّلّات التى لها صفة الإشراك ولها معنى الكفر والضلال . فإن تاب ورجع إلى الله عفا عنه وغفر له ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ** ﴾ الآية .

ولما كان الإنسان بمقتضى طبيعته مُعَرَّضاً للشرك حتى فى إيمانه بربّه وطاعته له وعبادته إياه قال تعالى – يلفت الأنظار ويوجه القلوب إلى الحقيقة التى لا مفر منها وإلى معنى التوحيد الكامل لله تبارك وتعالى –: ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ فالخطاب موجه إلى المؤمنين جميعاً . إلى كل مؤمن بالله مهما بلغ من درجات الإيمان لأن الصفة البشرية ملازمة للإنسان ملازمة الظلّ للعود . فالنفس بمقتضى تسوية الله لها ملهمة فجورها وتقواها . قال تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ .

وقد علمت أخى أن التوبة تزكية للنفس فى حال المعصية وفى حال الطاعة – تُزَكّى فى حالة المعصية بالطاعة وفى حالة الطاعة بشُهُودِ المِنَّةِ لله تبارك وتعالى وشكره عز وجل على التوفيق والهداية ، وبالتجرد من حولها وقوتها إلى حول الله وقوته .

إخوانى :

المؤمن الحق يتوب إلى الله من الطاعات كما يتوب إليه من المعاصى لأن مصدر الطّاعة هو مصدر المعصية ألا وهى النفس . ولذلك يفرّ إلى ربّه تائباً مستغفراً أواباً منيباً ﴿ **أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ** ﴾ .

وقد علمت أخى أن من شد الرحال إليه سبحانه فإنه لا يركن إلى نفسه

لحظة من الوقت لما لها من صفات الادّعاء والشرك فوالله الذى لا إله إلا هو . إن النفس إذا وجدت ثغراً ومنفذاً كسَمِّ الخياط ضيقاً خرجت به إلى عالم الشرك والكفر ، ولذلك إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه ليستديم فقره له وافتقاره إليه.وإن هذا الابتلاء ألوان وأنواع يختلف باختلاف الدرجات والمقامات . ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ .

وقد علمت أخى أن ما يتوب منه النبىّ غير ما يتوب منه الصِّدِّيق . وما يتوب منه الصِّدِّيق غير ما يتوب منه الوَلِىّ . وما يتوب منه الولى غير ما يتوب منه الصالح . وما يتوب منه الصالح غير ما يتوب منه المؤمن العادى . ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ . حسنات الأبرار سيئات المقرّبين .

أخى :

إن الله تبارك وتعالى خلق الجن والإنس ليعرفوه وليكونوا عباداً له . وخلق السموات والأرض وما فيهن للاستدلال عليه والتعرف إليه . وبعث الرسل وأنزل الكتب للدعوة إليه وبيان الحق من الباطل : والمقصود بكل هذا توحيده سبحانه فى رُبُوبِيَّته وتوحيده فى أُلوهيَّته . ولكن الإنسان رغم كل هذا حريص على تربيب نفسه وعبادة هواه . ولعلم الله سبحانه بهذا خلق الجنة والنار ترغيباً وترهيباً . ولكن الإنسان هو هو فى كفره بربّه ، وشركه بخالقه . ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ولما كان الأمر كذلك فالمؤمن بالله يجمع شمله كله ، ويحصر همه جميعه فى معاداة نفسه ومحاربتها بكل الوسائل المعروفة ، والتكاليف المفروضة . وعلى قدر إيمانه يكون جهاده ونضاله ، وعلى قدر علمه بربّه يكون علمه بنفسه ؛ فإنه كلما ازداد علماً بالله ازداد علماً بنفسه التى بين جنبيه ، وازداد شعوراً وإحساساً بمدى استعدادها للكفر والشرك . ولذلك لا يخضع لرغباتها ، ولا يسلّم لأمرها . ولا يركن إلى هواجسها وخواطرها مهما تظاهرت بالصفاء ، وتلونت بصفات العبودية لله . أعاذنا الله وإياكم من شرورها وأوضارها وسيئات أعمالها . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

* * * *

أخى :

بالله عليك اسمع منى . أرجو أن يعلم الأخ أن الإيمان إذا دخل القلب ، وسكن الفؤاد ، وتخلل المشاعر والوجدان ، وتعمق تفكير المؤمن وتريَّض صار غريزة أصلية ثابتة بثبوت الغرائز البشرية التى لا انفكاك عنها ولا مفر منها . وأحسبه يكون أقوى منها بمقتضى بقائه ودوامه ، وعليه تكون حياة المؤمن متعلقة به ، مشمولة بظله سارحة بأسبابه ودواعيه . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ؛ ولأنه إيمان بالعلى فإنه يعلو بصاحبه ، ويعلو بالغرائز البشرية ، ويعلو عليها بمقتضى القوة والاتصاف . فإن فلتت غريزة إلى ما لا تحمد عقباه كبح جماحها وردها إلى الصّواب بقوة وعنف ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ ولأنه إيمان بالعظيم فإنه يعظم صاحبه ، ويعظم على الغرائز كلها بحيث تكون أعمال سائر الغرائز صغيرة حقيرة رغم ما لها من قوة التغلّب على الإنسان فى بعض الحالات . فإن كل ما دون العظيم حقير ذليل . ولما كان الأمر كذلك كان التقرير الحق : لا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم أى لا قدرة ولا محاولة إلا بالله الربّ الخالق . النافع . الضار . المحيى . المميت . الباعث . المهيمن . القابض . الباسط . المعطى . الوهاب . العلى . العظيم بهذه الصفات الذاتية .

أخى :

لقد علمت وفوق كل ذى علم عليم أن الإيمان إذا بلغ حد اليقين تجاوز ذلك إلى مرتبة المشاهدة والمعاينة التى يشير إليها قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ وكما قال حاكياً عن الحواريين أنصار الله أصحاب عيسى عليه السلام قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ**

الكُفْرَ قَالَ مَنْ أنصَارِى إِلَى اللهِ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۞ رَبَّنا آمَنَّا بِمَا أنزَلْتَ واتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ فاعلم أخى أن الإيمان إذا بلغ هذا الحد صار قوة تهدّ الجبال ، وتدك الأرض دكاً وذلك بمعنى التغلب على الطبائع الأرضية والتسيطر على الغرائز البشرية بحيث يكُون سلطانه كاملًا ومباشرته فعالة . وعلى أن هذا هو الحق ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ وقد علمت أخى أن الإيمان إذا سكن القلب، وتخلل المشاعر صارت هذه الدنيا الواسعة العريضة أضيق من سم الخياط بمقتضى انحصارها فى أضيق نطاق حيث تحددت الحياة ، وارتسمت الغاية بأجلى معانيها . فلا نزوع إلا إليه ، ولا استقرار إلا به ، ولا راحة إلا معه .

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : كيف أصبحت يا حارثة ؟ فقال أصبحت مؤمناً . قال ﷺ : وما علامة إيمانك وحقيقته ؟ فقال لقد عزفت نفسى عن الدنيا فأظمأت نهارى وأقمت ليلى ، وكأنى أرى عرش ربى بارزاً . وكأنى أرى الجنة وأهلها يتزاورون فيها . وكأنى أرى النار وأهلها يتعاورون فيها . قال رسول الله ﷺ الآن : يعنى أصبحت مؤمناً أو كما قال . فكيف لا تضيق الدنيا برجل هذا حاله . فوالله إنها تصير أضيق من سَمِّ الخياط . وقد قال شيخنا وإمامنا السكندرى رضى الله عنه : إذا أشرق نور اليقين فى القلب رأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها . فوالله لقد صدق . ومن ذاق عرف .

أخى :

إن الإيمان إذا وقر فى الصدر صارت الموقورات البشرية كلها فى صدر الإنسان تحت سيطرته ومباشرته فلا تتحرك غريزة واحدة إلا بإذنه وإعلامه . وهذا معنى (الكُنْتِيَّة) التى أشار إليها الحديث القدسى (كنت سمعه ، وكنت بصره ، وكنت فؤاده إلخ » الحديث حيث قلبه هو المالك المسيطر على الأعضاء والجوارح ، وهو المحرك للغرائز والدوافع . ومن هنا نعلم معنى قوله ﷺ فى أبى بكر رضى الله عنه : « لم يفضلكم بصلاة وصيام . ولكن بشىء وقر فى قلبه » أو كما قال . فالإيمان كالعملة التى تُعْقَد بها الصَّفقة وتقضى بها الحوائج

وتشترى بها المطالب فمن دخل السوق وهو فارغ منها لا يخرج من السوق بشيء مع وجود الإستشراف والرغبة إلى ما فى السوق من حوائج . وهذا شأن الإيمان فى عقد الصفقات الأخروية ، وفى الظفر بالمطالب الروحية . فإنه على قدر قوة الإيمان يكون الربح الذى يكون على قدر العرض والطلب فابحث عن الإيمان أولًا فإنك إذا ظفرت به هان عليك الصعب ، وسهل عليك التعب ، وقد علمت أنه يكون بالتدرّج فليكن يومك خيراً من أمسك ، وغدك خيراً من يومك حيث لا نهاية للمراحل الإيمانية ولا حصر للهداية الربانية فمن مرحلة إلى مرحلة ، ومن هداية إلى هداية حتى تلقى ربّك . ﴿ **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ﴾ .

أخى :

إن العمل القليل مع الإيمان الكامل يبلغ بالمؤمن أعلى الدرجات ، ويصعد به فوق السموات . ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ فبالكلم الطيب القرب ، وبالعمل الصالح ترفع الدرجات . ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا** ﴾ ﴿ **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ** ﴾ فإذا أراد الأخ أن يعرف الإخلاص ومعناه ، والصدق وفحواه معرفة صادقة أكيدة ليعرف بها حاله مع ربّه وخالقه ، وليوازن بها ما يصدر منه إلى مولاه فلينظر إلى نفسه حين يقبل بها على شهواته وحظوظه . كيف يكون الاتجاه ولحساب من يكون الحرص على التناول . فالطعام مثلًا نقبل عليه لنأكل منه ، والغرض من الأكل إشباع غريزة الجوع . وفى هذا الفعل صورة الإخلاص ومعناه . ولكن للنفس . فعلى هذا القياس تكون الهمة بالإخلاص فى العبادات والطاعات . والإخلاص هو أن يكون العمل الصادر منك مقصوداً به وجه الله ومرضاته بحيث يكون حظك منه محصوراً فى طاعته وعبادته وأن يكون العمل مطابقاً لأمره وحكمه . وهذا أول درجات الإخلاص . وبعد ذلك كثير وكثير .

وإجمالًا أقول : إن الإخلاص توحيد المطلوب والصدق ، وتوحيد الطلب . وفرق بين هذا وذاك .

أخى :

اعلم أن الإيمان منازل ودرجات . ولذلك لا يخلو منه مؤمن ، وربما لا يخلو منه إنسان حيث الكل يؤمنون بالله ربًّا وخالقاً قديراً نافعاً ضاراً . أما الإيمان الذى نتحدث عنه فهو الإيمان الشامل لصفات الله عز وجل . الإيمان برسوله صفة ومعنى . الإيمان بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً كاملًا . الإيمان بكل ما أنزل الله فى كتابه وما جاء به الرسول ﷺ من عنده بحيث يكون الشعور يقيناً ، والإحساس قريناً . أما الإيمان المنقطع فإنه لا يبلغ بصاحبه درجات اليقين . ولذلك يتخبط ، فتارة يصيب ، وتارة يخطىء بينما تراه مؤمناً . وبينا تراه كافراً ، وتارة تراه صدّيقاً وتارة تراه زنديقاً . فإنك ترى الرجل منّا حين يأتى وقت الصلاة يفزع إليها حرصاً عليها فيؤديها بمقتضى إيمان صحيح خاص بالصلاة . ولكن بمجرد الفراغ منها يكون على غير ما كان عليه من الإيمان بسائر العبادات والمعاملات . وكأن الذى فرض الصلاة عليه غير الذى فرض عليه سواها من العبادات والمعاملات.أفليس الإيمان واحداً وبواحد ! فعلام هذا التغيّر والتحوّل ؟ وعلام هذا الإيمان ساعة والكفر ساعات نعم الإيمان واحد . والمؤمَنُ به وهو الله واحد . ولكن درجة الإيمان ضعيفة .

أخى :

إن الإيمان كالصحة للبدن ، والعافية للجسم . فإذا كانت الصحة سليمة ، والعافية تامة يستطيع الإنسان أن يؤدى واجبه على الوجه الأكمل من حركة ، وسكون ، وإقبال ، وإعراض فلا يصعب عليه شيء مما هو فى مقدوره ، ولا يقصر عن إتيان ما هو فى حاجة إليه من أسباب حياته . وكذلك الإيمان إذا اكتمل فى القلب يكون أثره فى الأعمال كأثر الصحة فى البدن ، والعافية فى الجسم وحين يكون ضعيفاً ينحصر فى الإقبال على الطاعات والعبادات التى لا تكلف صاحبها جهداً ولا بذلًا ؛ فيصلى كيفما اتفق ويصوم كيفما يكون ، ويبادر إلى الشكليات من العبادات توهّماً منه وتخيّلًا حيث يصوّر له الشيطان بأنه لم يَدَعْ شيئاً ، وأنه على أحسن حال ، وأنه خير ممن هو سواه ممن لا يصلى ولا يصوم : إلخ ما هو معروف من إغواء الشيطان اللّعين .

أخي :

إن الإيمان هو التصديق الصحيح ، وعلى قدر التصديق يكون التحقق . والتَّحقّق معناه : التلبّس بمقتضيات التصديق . فمن زعم أنه مصدق طولب بالتَّحقُّق . فإذا لم يكن منه ما يؤكد التصديق وقع الشك عليه فيما يدّعيه . وإن أردت المزيد فأقرأ خواتيم سورة البقرة ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ .. ﴾ الآيات .

* * * *

إنَّ الإنسَانَ لَظَلُومٌ كفَّارٌ

أخى :

إن الإنسان قد يتمنى لأخيه الخير ويدعو له بقلبه ولسانه وشعوره وإحساسه . فإذا ما بلغ الأخ أمنيته ، واستجاب الله دعاءه وقف الدَّاعى المتمنى حاسداً حاقداً إذا لم يجد من صاحبه عطفاً وبراً وفضلاً وكرماً . إلا قليلاً من عباد الله المؤمنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون !! لماذا هذا الانقلاب ؟ وعلام هذا التحوّل يأيها الإنسان الظلوم وقد كنت بالأمس داعياً متمنياً مقبلًا فرحاً .

أخى :

يتبين لنا من هذا أن الإنسان حين يدعو ويتمنى لأخيه الخير إنما يعنى نفسه ، ويقصد مصلحته الشخصية بدعائه وتمنّيه ، ولذلك حين يحرم أثرهما يذهب إلى الكفر بهما . رحماك ربى وعفوك ، وهكذا تتجلى حقيقة الإنسان ، وتنكشف طويته عند المناسبات والظروف . أما فى الأحوال العادية فإنه يلبس مسوح العبادة ، ويتدثر بمكارم الأخلاق ، ويظهر بالتقوى والصلاح كأنه النور الذى يشرق للناس .

أخى :

إن الإنسان بمقتضى أنانيته يدعو لنفسه فيطرق الباب متصدِّراً بغيره مستتراً بسواه وربك لا تخفى عليه خافية . ومن هنا يصح أن نعلم لماذا لا يستجيب الله دعاءنا . فعفوك ورضاك ، وحسن لقاك .

أخى :

إن حبّ الدنيا أساس كل خطيئة ، ومحور كل بلاء ومصيبة . فوالله لا نجاة ولا خلاص إلا برحمة الله وعفوه . واعلم أن العارفين بالله حين أوقفهم الله على

الحقائق الإنسانية وقفوا بها مع نبهم موقف العائذ المستغيث . فلا راحة ولا هدنة ، ولا استقرار ولا هدوء فالحرب سجال . ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ فانظر أخى إلى حقد الإنسان على أخيه . وانظر إلى غيره من المعاصى والذنوب ؛ فإن كل هذا يكفى الإنسان طول عمره جهاداً ونضالًا ، وحرباً سجالًا . وانظر إلى ما تنطوى عليه النفس من فجور وضلال وكفر وإضلال فستعلم يقيناً معنى قوله سبحانه ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ .

أخى :

لاتحسبن أنه بمجرد التوبة من المعاصى الظاهرية – كالزنى والسرقة وشرب الخمر وما إلى ذلك من المحرمات – تنتهى وظيفة النفس ومهمتها ، ويذهب عنها شرورها وأوضارها وصفات الشر فيها وتصبح عابدة تقية مؤمنة نقية يضرب بها المثل فى الصلاح والتقوى مثالية يُحتذى بها ويقتدى كلّا وألف كلا : أخى : إن من عرف نفسه فقد عرف ربه . ومن عرف ربه فقد عرف نفسه فها نحن نسمع ونقول ولا يزال الجهل والانغماس فيه شأننا فرحماك ربى وعفوك .

أخى :

المؤمن الحق الصادق بالله يدعو لأخيه المؤمن ، ويتمنى له الخير لحساب المدعو له لا لحساب نفسه يدعو له ويتمنى ما يحبه لنفسه . فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . يدعو له باعتباره هو حيث المؤمنون كُلٌّ كما قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادِّهم وتَراحُمِهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمى » . أو كما قال .

* * * *

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِه

أخي :

قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنهَا ومَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيب ﴾ انظر إلى معانى الآية وتدبّرها بكل ما أوتيت من فهم وقوة مستعيناً بالله فى فقهها وإدراكها وهو ولىّ التوفيق وأقول : إن الإرادة هنا هى النّية . فإذا كان مراد المؤمن الآخرة فإنه لا ينفك عن العمل من أجلها ولا يتخلف عن الرّكب متى ما كانت النية حازمة جازمة لأن الله سبحانه وتعالى بمقتضى نية العبد وإرادته يضاعف له السعى ويزيد له العمل حيث الحرث معناه العمل . فإن أعمال الآخرة لا نهاية لها فمن عمل إلى عمل ، ومن هداية إلى هداية . ولا نهاية للهداية . وقد علمت أخى أن المؤمن إذا خلُصت نيّته وصفت سريرته كشف الله بصيرته فيرى ما لا يرى الناس ويشعر بما لا يشعرون . وعليه نجده فى حالة تعبئة عامة فى كل لحظة من لحظات حياته لأن الاتجاه السليم إلى الله سبحانه وتعالى تتولّد منه الحرارة الإيمانية التى لا تَدَعُ المُتَّجِهَ إلى الله يستقر على حال . فمن عمل إلى عمل . ومن سعْى إلى سَعْى ، ومن قلق إلى قلق ، ومن كشف إلى كشف ومن إدراك إلى إدراك إلى ما لا نهايـة. ومـن ذاق عـرف . بهـذه الآيـة وغيـرها مـن آيـات الكتـاب نعـلم ونفهم وندرك أن الدليل على صدق الطلب للآخرة هو شدة الإقبال على الله بالطاعات والعبادات ، والسعى بشتى الأنواع من الصالحات والمأثورات بحيث يكون الهم موقوفاً على الآخرة ، والرغبة متجهة إليها كلا وجزءاً . وفوق كل ذى علم عليم فإن قوله سبحانه ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ يفيد أن هذه الزيادة خاصة بالأعمال التى يستدعيها الإيمان بالآخرة .

ولما كانت هذه الزيادة من الله فإنه لا آخر لها ولا نهاية . ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ولربما تكون هذه الزيادة هى توفيق الله لعبده المريد « إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرىء ما نوى » .

وللعلم أقول : إن أعمال الآخرة لا حصر لها لأنها متعلقة بالله . وكل ما يتعلق بالله فهو من أعمال القلب . والقلب غيب ، والرّب غيب . وعليه أرجو أن نفهم جميعاً أن هذه الزيادة المشار إليها لها صلة بالإرادة التى مصدرها القلب . فهى زيادة خاصة بشعور القلب وإحساسه أكثر منه بأعمال الجوارح والأعضاء . انظروا إلى قلوبكم ومدى اتجاهها إلى الله وطريقتها فى كسب مرضاة الله وما تنطوى عليه من الصدق والإخلاص ، المودة ، المحبّة . فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء . واعلموا إخوانى أن إخلاص ساعة ربّما يتضمن نجاة الأبد . واعلموا أن النية الصّادقة هى التى تجلب المزيد من الله . والنيّة الصادقة معناها تجريد القلب من الحظوظ والشهوات بحيث لا يكون مقصوداً فى الوجود إلا الله . ولا مطلوباً إلا هو . ولا مراداً إلا هو . ولا غاية إلا هو ؛ وذلك يتطلب جهاداً عنيفاً ونضالًا مريراً فليس من السهل طبع النفس على هذا اللون من الشعور والإحساس ، ولكنها تتطبع بالزيادة التى تكون من الله . فاحرصوا على تصفية القلوب وتنقية النفس يتولّكم الله ويزدكم من الحرث . واعلموا أن الزيادة تتولد منها المحبة والمودة . فبعد أن كانت فى أول الأمر صورة للأعمال تتغير هذه الصورة من شكل إلى شكل ومن وضع إلى وضع . ومن معنى إلى معنى حيث الأعمال واحدة . ولكن الذى يقبل الزيادة والنقصان هو القلب . فالصلاة مثلًا هى هى شكلًا وموضوعاً والصالحات الأخرى كذلك فتدبّروا . وأضرب المثل للتأكد من هذا فأقول يذهب واحد من الناس إلى عيادة المريض . ويذهب آخرون معه . فالعيادة من حيث هى واحدة ولكنها تتفاوت قدراً واعتباراً من حيث المعنى القلبى والإحساس النفسى . فهذا قصده من العيادة والزيارة جبْر الخاطر وردّ جميل سابق . وذاك قصده مجاملة سطحية يريد بها رفع اللوم والعتاب عنه . وثالث يقصد الاطمئنان على صحة المريض ، وسلامته . ورابع يقصد مرضاة الله عملًا بإيمانه واقتداء بسنة رسول الله ﷺ . وخامس يدفعه إلى هذا حب الاستطلاع العام على الأحوال . وسادس يقصد رفع الشاغل عن نفسه لما بينه وبين المريض من صلة وقرابة . وسابع يشعر بذات المريض فى نفسه . فالعيادة له كالدواء يتعاطاه لشفاء مرضه وعلته .

مرض الحبيب فعدته فمرضت من عطفي عليه
شفى الحبيب وعادنى فشفيت من نظرى إليه

هكذا قال إمامنا الشافعى رضى الله عنه . فانظر أخى إلى تعدد ألوان القلب وتقلبات أحواله . وهكذا شأن العبد مع ربه فى اتجاهه القلبى إليه بأعمال الآخرة .

أخى : قال تعالى : فى آية أخرى

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيب﴾

فاعلم أخى أن الإنسان إذا حصر إرادته ، وبنى نيته على الظفر بالدنيا فإن الله تبارك وتعالى يزيد له فى أسبابها ودواعيها وأعمالها ومراقيها بحيث لا يجد فراغاً لسواها . فهو أبداً مشغول بها ليله ونهاره . همّه واهتمامه . ولذا لا يفرغ طالب الدنيا من الدنيا ولو بلغ ما بلغ منها وجمع ما جمع منها ؛ لأن الله تبارك وتعالى بمقتضى نيّته وإرادته ، وما ينطوى عليه العبد من الرغبة فى الدنيا يزيد له فى حرثها . والزيادة من الله لا حصر لها . ومن كان هذا شأنه فإنه فارغ من نصيب الآخرة ، فلا يجد ما يأوى إليه يوم يخرج من دنياه . لماذا ؟ لأنه بمقتضى مشغوليته بالدنيا لم يعمل شيئاً للآخرة ؛ كأنه غير مؤمن بها ولا مصدق لها ، وربما كان يأتى بعض الأعمال المتعلقة بالآخرة ويدع الكثير ، ولكن لمّا كانت إرادة القلب قاصرة على الدنيا ، فلا وزن لعمله ، ولا قيمة لما كان منه حيث العبرة بالمعانى لا المبانى ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى ۝ وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى﴾ وقد علمت أن الرغبة للآخرة تفسد الرغبة للدّنيا أو تعطّلها بعض الشىء حيث لابد من رجحان إحدى الكفتين وتغلّب إحدى الرغبتين . فما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

أخى :

إن الإنسان يكاد يعمل أعمال الآخرة ، ولكنه يريد بها دنياه مثل المرائى ، ومثل الذى يقصد بعمله كسب قلوب الناس وأن يكون له جاه

عندهم بدينه وإيمانه . ومثل الذى يعمل لإسعاد حياته الدنيوية من اكتساب وإنجاب ونجاح وفلاح وحفظ ورعاية ، وما إلى ذلك من المتشابهات . ومثل الذي يعبد الله ويتهافت عليه ليكون من أصحاب الخوارق والكرامات ، وما إلى ذلك من شتى الأعمال وأنواع الضلالة والبطالة والفساد . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ولقد صدق الله العظيم ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ** .. ﴾ الآية .

* * * *

سُلوك العَوامِّ والخواصّ

أخي :

إن الطريق إلى الله وعْر ملغّمٌ بالأشواك . وقد قلت ذلك مراراً وتكراراً . ولازلت أردده على النّفس وعلى المسامع والقلوب إلى أن ألقى الله . وعر شاق على النفس لتعارضه مع هواها . وعر شاق لأنه تحطيم لها وقضاء عليها . وعر شاق لأنه اعتقال لها ، وتحديد لإقامتها . وعر شاق لأنه يفرض الرقابة عليها ، ويهوّن من شأنها . وعر شاق لأنه يَكْبَحُ من جماحها . ويحد من سلطانها وذلك مدى عمرها وطول حياتها لا ساعة من الساعات . ولا وقتاً من الأوقات . فمن ذا الذى يرضى بذلك ويسعى إليه . ولا تزال نفسه التى بين جنبيه بكامل قوّتها وعنفوان شبابها تسير فى طريق ملغم بالأشواك من عمل الشيطان الذى يقعد على الصّراط . ويضع العراقيل ، وينشر الأباطيل أمام النفس الأمارة بالسوءِ . يزيّن ويُغْرى يفْتن ويُضل وما إلى ذلك من إعمال وظيفته وإنفاذ مهمته بكل الوسائل والحيل حتى لا يكون السلوك ولا يكون الانتظام على الصراط . أعاذنا الله وإياكم من شروره وأوضاره ، وضلاله ومكره . ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ** ﴾ .

أخي :

ليس من الإيمان ولا من صفات المؤمنين والطالبين الطريق تَفْتيرُ الهمّة وقتل النشاط . كما أنه ليس من الإيمان ولا من صفات المؤمنين التزييف والتزوير والإغراء بالباطل ، والتشويق بالخرافات والخزعبلات . ولذلك تجدنى فى حيرة وضيق . وفّقنا الله والطالبين جميعاً إلى ما فيه الخير . وعليه يصح أن أقول إن الطريق إلى الله واضح لا لبس فيه ولا إبهام . فمن أراد السلوك فليحرّم على نفسه ما حرّم الله عليه وليتّق الله ربّه فى حركاته وسكناته . وليكثر من ذكر الله وعبادته . ولينظر إلى الدنيا

بعين الله . وليسقط رؤية أعماله . ولينظر الجزاء والثواب إلى يوم الدين . فهذا أول الطريق إلى الله وآخره . فمن أراد غير هذا فليعْتزلنا فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم – وللعلم أقول : إن الغنى والفقر من الله ، والمرض والشفاء من الله ، والعلم والجهل من الله . ووظيفة العبد فى الحصول على مراده تعاطى الأسباب الشرعية المفضية إلى المسببات قال تعالى : ﴿ **وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً . فَأَتْبَع سَبَباً** ﴾ .

أخى :

يصح أن تسأل : لماذا تزعم وتتشدق بقولك إن الطريق إلى الله شاق ملغم ؟ وقد كلفنا ربنا بالسلوك وقال : ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها** ﴾ فالتكليف من الله يفيد اليسر ، ويؤكد القدرة الإنسانية على السلوك لأن الله لا يكلف عبده فوق ما يطيق ؟ وللإجابة عن هذا نقول : التكليف الربانى فى ذاته وموضوعه ليس بشاق فهو أيسر من اليسر ، وأقل من الأيسر . ولكن الصعوبة والمشقة مِنْ جانب النفس المكلفة . والتى جعلها الله وسيلة ومطية ؛ فانظر أخى إلى الأعمال التكليفية حيث لا تستغرق من الفاعل لها وقتاً كبيراً . وانظر إلى النفس كيف تضيق بها وتضجر مع أنها لا تضيق ولا تضجر من أعمال الدنيا طيلة يومها أو طوال حياتها . فالموظف فى المكتب ، والعامل فى المصنع يقضى ساعات طويلة وصلاة الصبح والظهر مثلاً تأخذ منه عشر دقائق . فالنفس لا تضيق ولا تضجر من الساعات الأولى لما وراء ذلك من الكسب المادى العاجل ، ولكنها تضيق من الصلاة لأن ثوابها آجل لا يزال فى عالم الغيب ، والأجر عليه مفوض إلى الله الذى لا تخفى عليه خافية . ومن هنا نعلم أن وعورة الطريق ومشقته تنجم من وضع النفس وصفتها . ولما كانت هى المصدر وهى الوسيلة . والمطية . فالمخالفة لها تتطلب جهداً ومشقة . ولأنها ملهمة بالفجور وهو من طبيعتها فهى أشبه (بالْيَاىْ) الصُّلْب الموجود بالكرسى يعود إلى أصله وتركيبه حينما ترفع الضغط عنه . فكذلك النفس فى الرجوع إلى طبيعتها ولولا أنها ملهمة بالتّقوى لما تحملت الضغط . وَلَمَا لانت لأعمال التقوى . فهى عند فجورها عنيفة جداً وعند تقواها هيّنة ليّنة سهلة منقادة كأن لم يكن لها فجور سابق ولا فجور لاحق .

انظر أخى إلى الرجل المؤمن حينما يُذَكَّرُ ويُزْجَر كيف يبكى ويحزن كيف يتأسف ويتأثر ؟ كيف يخشى ويخاف ؟ وانظر إليه حين يلهم بالفجور كيف يفسق ويضعف ؟ كيف يغضب ويثور ؟ كيف يشد الرحال إلى المعاصى والذنوب طواعية واستئناساً سهلًا منقاداً كأنه لا صلة له بإلهام التَّقوى ولا إيمان له بالله ورسوله واليوم الآخر . وهكذا طبيعة النفس فى شطريها . ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ ومن هنا نعلم أن مشقة السلوك من جرّاء طبيعة النفس . فمن استطاع التغلّب على طبيعتها هان عليه السلوك وسهل له الطريق لأن ما كلف الله به عبده لا يخرج عن نطاق الاستطاعة ، ولا يتجاوز الطاقة الإنسانية . ودليلنا على ذلك أن النفس حين تتشوق إلى المعصية أيًّا كان نوعها لو ضغط عليها صاحبها وصبر قليلًا على ثورتها وشدتها لانطفأت حرارتها ، وذهبت شدتها فتثوب إلى الرشد ناسية متناسية ما كان منها من قبل . وهذا يفيد ويؤكد على أن التكليف الربَّانى ليس بصعب ولا شاق كما تتصور النفس الأمارة وتتوهم . فانظر أخى إلى الرجل يقدم على الزنى ويستعدّ له بكل قوته وشعوره ؛ فإذا ما حال بينه وبين التلبّس بالجريمة حائل أو مانع رجع عن إقدامه واستعداده بالتوبة والندم . فهكذا أخى ملذات النفس كلها تنتهى عند الإعراض عنها أو الفراغ منها كأنه لا لذة ولا شعور باللذة . فانظر أخى إلى الرجل يتمنى المال ويجمعه . فإذا ما تحصّل وجمع المال المطلوب فقد اللذة والشعور به ، فلئلا يَقْعُد ويتكاسل تفتح النفس والشيطان باب الفقر عليه بالإشراف على ما ليس فى يده من المال وسواه من متع الحياة . قال تعالى : ﴿ **فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنيا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الغَرُور** ﴾ .

أخى :

إن السلوك إلى الله يقتضى الاستعداد الكامل قبل الدخول فى المعركة مع النّفس والشيطان ، ومع هذا فقد تكون الغلبة لهما فى الكثير من الأحيان قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ . واعلم أنه لولا صعوبة الطريق إلى الله والمشقة التى يلقاها السالك لما جعل الله الحسنة بعشر أمثالها . ولما كان مجرد إلقاء السلام على المؤمن له ثلاثون

حسنة . كما ورد بذلك الأثر ولما كلفنا الله بالدعاء فى اليوم مرات ومرات بقوله سبحانه ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيم * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

أخى :

إن الطريق وعر شاق شاق فمن أراد أن يعرف ذلك فليأخذ نفسه بالسلوك الصادق وليس باتباع هوى النفس لأن هذا ميسور لكل طالب لأن الشيطان المعارض مقامه على الصراط المستقيم ومركزه الطريق القويم . ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ ولست أقصد بالطريق ما تعارف عليه الناس كلّا إنما أقصد الطريق إلى الله بمعنى أن يكون العبد دوماً فى محابّ ربّه ومرضاته . فلا يحيد عن الطريق الذى يرضى الله عنه . ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَاتَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ .

وللعلم أقول : إن المعصية لا تفيد عدم السلوك ؛ لأن السالك معرض لها . إنما الإصرار عليها وعدم التوبة منها هو الذى يفيد عدم السلوك . فمن تاب تاب الله عليه ومن استغفر غفر له . ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ .

ولابد أن نعلم أن وعورة الطريق ناجمة وناتجة من ضعف النفس وعجزها عن متابعة السير إلى ربّها . فالطريق مفتوح فى كل لحظة للطالبين والمريدين ، والأعمال لا تدخل الجنة حيث دخولها بفضل الله ورحمته . فالأعمال مهما كانت كثرتها وضخامتها لا تساوى شيئاً بالنسبة لثواب الله ونعيمه قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ فقول الله . وفضل . دليل على تفضّله على عباده بالثواب . إذ لو كان فى مقابلة العمل لما كان فضلًا . وليعلم أخى أن

الاغترار بالأعمال من رعونة النفس . فالإنسان مهما اجتهد فى عبادة الله ؛ وكلف نفسه ، وحملها على الطاعة وعمل الصالحات فلا يؤهله عمله وحده لدخول الجنة ومن طمع أن يدخل الجنة بعمله كان كمن يطمع أن يأخذ ألف دينار على عمل لا يساوى ولا يستحق عليه فى التقدير العادل إلا ربع دينار مثلًا . ولكن الله الغنى الكريم يتغمد من يشاء من عباده المؤمنين بفضله ، ويتداركهم برحمته فيثيبهم على العمل القليل بالأجر الجزيل ، ويدخلهم الجنة فضلًا منه ورحمة . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ﴾ حيث التوفيق إلى العمل من الله وحده . ولولا التوفيق ما كان العمل . ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ وعلى هذا نجد المؤمن الصادق يبذل الجهد فى العمل ، ويكدح فى الصالحات ، ويتفانى فى الطاعات ومع هذا فالخوف يملأ قلبه ، والفزع من عدم القبول يزعج نفسه قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ .

وقد علمت أن هناك فرقاً كبيراً بين خوف العوام وخوف الخواص . والذى أعنيه دوماً من ذكر الطريق إلى الله مرتبة الخواص . فإن خوف العوام ورجاءهم وعبادتهم له حد ونهاية . أما خوف الخواص ورجاؤهم وعبادتهم فليس له حد ولا نهاية ، فالعوام يخافون العقاب على المخالفة ، ونهاية خوفهم دخول النار ، وخوف ما فيها من الآلام ، ورجاؤهم فيما وعدوا به من الثواب وجزيل العطاء بحسب الوعد الجميل . ونهاية الرجاء دخول دار الجنة والتنعم بما أعده الله لهم فيها . وعبادتهم حدّها : التزام توفية الله ما جعل الله عليهم من ألوان العبادة . ونهايتها : ارتقابهم القدرة على خلاف ذلك والاستراحة إلى قوله تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ فهذه هى طريق العوام : أما الخواص فخوفهم من الله لا حدّ له لأنهم يخافون عدله سبحانه وعظمته . ولا حدّ لعدله وعظمته عز وجل ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ولذلك إذا طرأ لأحدهم طارىء الخوف إن لم يتداركه بتنسم الفضل والرحمة انفطرت كبده ، وشحب وجهه ، وارتعدت فرائصه . كما كان يحصل لأقطاب الصوفية ، وكبار

الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ، وأما رجاؤهم فهم يرجون محض فضله عز وجل وما يرجونه لا حد له ، ويحصل لهم بذلك من شدة البسط ، وقوة الرجاء ، واليقين ما يعجز مثلى عن وصفه وبيانه ، ولربما تخف روحهم حتى يكادوا يطيرون من الفرح والانشراح ، ومع ذلك يحافظون على الأمر والنهى محافظة لا يقدر غيرهم عليها .

أخى :

إن العبرة ليست بذات الأعمال ، وإنما هى بالقوة الدافعة إليها ، وبالطاعة لله التى اقتضتها ، فإن الله سبحانه يجازى عبده على قدر طاعته له ، وإيمانه به – وللطاعات علامات ودلائل فالأعمال علامتها ودلائلها حيث الطاعة قلبية محضة – والأعمال تشترك فيها الجوارح التى هى من عالم الشهادة ومن هنا نعلم أن الأعمال إذا لم يشترك فيها العالمان : عالم الغيب وعالم الشهادة : لا قيمة لها ولا وزن . أعاذنا الله وإياكم من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، وهدانا وإياكم سواء السبيل .

* * * *

مع قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾

أخى :

قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ ... الآيات لتعرف أن معنى النفس المطمئنة الساكنة . يقال اطمأن الرجل اطمئناناً المطمئنة هى الساكنة. وهو مطمئن إلى كذا ، فالنفس المطمئنة هى التى اطمأنت بالله فى وعده ووعيده ، وفى قضائه وقدره خيره وشره . فاعلم أخى أن النفس إذا سكنت لأوامر ربها وارتاحت إليها وبرزت فى الحياة الدنيا بالأعمال الدالة عليها . سميت مطمئنة ، وقد فسر الله صفة المطمئنة بقوله : ﴿ ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً . فالرجوع إلى الله بمعنى قصده وعبادته ، وتنفيذ أوامره والانتهاء عن نواهيه ، فبالرّضا التامّ والتسليم المطلق تكسب النفس الاتصاف بالطمأنينة . وقد خاطب الله سبحانه وتعالى النفس بذلك حيث هى التى عليها المعوّل والاكتساب للصفة ؛ لأن الرجوع إلى الله قد يكون اضطراراً من الإنسان . ولما كان لا قيمة لمثل هذا الرجوع ذكر الله صفة الرضا من النفس لأهميتها . كأنه سبحانه وتعالى يقول : إذا لم يكن الرجوع إلى الله باختيار النفس ورضاها فلا قيمة ولا وزن للرجوع الاضطرارى حيث النفس غير مطمئنة ولا ساكنة لأمر الله وقضائه وقدره . قال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ ﴾ فالرجوع إلى

الله كرهاً لا أجر عليه ، ولا خير يرجى منه قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الحَمِيدُ ﴾ ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ كما قال عز وجل : ﴿ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ واعلم أخى أن العبرة بالرجوع إلى الله برضا النفس . فإن رضيت النفس ورجعت إلى ربها راضية رضى ربّها عليها . وإذا سألنى أخى وقال . ما معنى الرجوع ؟ وما هى حقيقته ؟ وما علامة الرجوع إلى الله ؟ فالجواب : أن الرجوع عموماً . هو إيثار مرضاة الله سبحانه وتعالى على هوى النفس ومرضاتها . ومخالفتها فى سبيل متابعة الحق . فمثلاً أذن المؤذن لصلاة العصر وأنت فى بيتك فالنفس تحدثك بالصلاة فى البيت لأسباب كثيرة تذكرها لك : الحق يطالبك بالذهاب إلى المسجد إيثاراً لصلاة الجماعة وتنفيذاً لأمره سبحانه . فإن خالفت نفسك وذهبت إلى المسجد فقد رجعت إلى الله . ومثل آخر أردت أن تعطى فقيراً أو مسكيناً شيئاً يستعين به على قضاء حاجته ، فالنفس بمقتضى شحها وطبعها تأبى ذلك . فإذا خالفتها وأعطيته فقد رجعت إلى الله . قال تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ومثل ثالث : حدثتك نفسك بالزنى أو أثارت الشهوة الجنسية عليك فرجعت إلى أهلك التى أحل الله لك حيث فيها ما فى الأجنبية فقد رجعت إلى الله عن مراد نفسك التى هى أعدى أعدائك . وعموماً نقول : إن الرجوع إلى الله هو الأخذ بمراده فى الأمر والعمل فى حدود الاستطاعة والجهد . وكذلك استدبار مطالب النفس ورفضها مع القيام بالعمل المضاد لرغبتها وهو متابعة الحق ومطالبة النفس بالموافقة والمطالبة بحيث يكون مرادها مبغوضاً ، وعملها مرفوضاً .

أخى :

تتفاوت درجات الرجوع حسب الإيمان واليقين والظروف والأحوال . فلو أن نفسك حدثتك بالصلاة فى البيت وبعد لحظة من الوقت ناداك أحد الإخوان للصلاة فى المسجد ففزعت إليه متابعاً له فقد وقع الرجوع إلى الحق . ولكنك فى ذلك مقهور . وهناك نوع من الرجوع خطير وهو الذى يكون

للناس فيه حساب . فأنت تقول لو تخلفت عن المسجد لاتّهمنى الناس بالنقص أو ماذا يقولون عنى إذا فقدونى فى المسجد وما إلى ذلك من الشبهات والضلالات من معانى الرياء والعجب والغرور . أعاذنا الله وإياكم منها ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وليعلم أخى أنه كما تتفاوت درجات الرجوع تتفاوت أيضاً درجات الرضا . وهى كذلك كثيرة لا بأس أن نذكر بعضاً منها . انظر أخى إلى مدى رضا نفسك بالذهاب إلى العمل صباحاً فإنك لا شك تذهب إلى عملك راضياً مطمئناً . وإذا منعت لا تمتنع ، وإذا حيل بينك وبين الذهاب ناضلت دون ذلك . لأن نفسك مطمئنة إلى الوضع راضية به مستقرة عليه . وإذا بحثت عن سبب رضاها . هل هو الذهاب إلى العمل أم لما وراء ذلك من قبض الأجر وصرف المرتب . الجواب معلوم . فهى لا شك غير راضية بالعمل إنما مضطرة إليه لما لها من الحظ فى الكسب وطمأنينتها على المرتب والأجر . فالرضا بالمكسب وعلى الكسب لا بالعمل وعلى العمل . وهل الكسب مقصود لذاته ؟ كلا إنما هو وسيلة إلى أغراض النفس وشهواتها . فإذا لم تجد ذلك الكسب نفرت من العمل لأنها تجرى وراء حياة كلها شهوات وملذات . ولما كانت الحياة بخيرها وشرها من الله أمرنا الله وحضنا على طلب الحياة به قال تعالى ؛ مبيناً هذا . ﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ وقال أيضاً ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ وقال أيضاً ﴿ **لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا** ﴾ كما قال عز وجل : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﴾ وقال ﷺ فى حديث ما معناه «أنا لست كهيئتكم إنما أبيت عند ربى يطعمنى ويسقين » وقد علم أن المراد بهذا طعام الأرواح وشرابها وما يفيض عليها ربّها من ألوان البهجة والسرور . ولينظر أخى إلى النفس يوم صرف المرتب فى آخر الشهر ، ومدى رضاها . وقارن بين شعورها فى هذا اليوم والأيام السابقة يدرك أخى الفرق واضحاً بين درجات الرضا كما ننظر إليها وهى راجعة إلى البيت فى ساعة الفطور فى رمضان أو رجوعها إلى البيت بعد نهاية العمل اليومى سيجد الفرق واضحاً ملموساً .

أخى :

إن الخطاب من الله موجه إلى النفوس التى اطمأنت به وعليه . فالطمأنينة هى أولى درجات الإيمان . وهى على ضوء ما أعتقد أول منازل التحقيق ، والدرجة التى تليها هى درجة الرجوع إلى الله بمعنى التجرد من هوى النفس كما تقول لشخص ارجع إلىّ فى الأمر فهذا معناه رفض كل ما سواه . والرجوع إلى الله أنواع ودرجات . رجوع بالأعمال . ورجوع بالصفات . ورجوع بالفناء فيه . دعنى أهمس فى أذنك أن الرجوع الحقيقى إلى الله هو ألا يكون لك حظ سواه . فهذا هو المطلوب المراد بقوله سبحانه : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ أى حقيقتك نعبد . وبحقيقتك نستعين ﴿ **وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى** ﴾ .

أخى :

قد يكون الرجوع مشوباً بحظ النفس ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ** ﴾ كما تقول لصاحب حاجة إليك ارجع إلىّ ، فإنه يرجع إليك على قدر علمه بك ، وثقته فيك ، وإيمانه بقدرتك على قضاء حاجته . وقد يرجع إليك من باب المجاملة لك ومن باب الاستئناس برأيك فى قضاء حاجته . فالعبرة برجوعه إليك شعوره وإحساسه . ولذلك قال تعالى ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ** ﴾ أى ارجعى منسلخة عن مزاجك وهواك وصفاتك وخصالك ؛ فإنى بمقتضى ربوبيتى لك قائم بشئونك ، مدبر لأمرك فى حدود ما يصلحك . فارجعى إلىّ راضية بحكمى فيك وقضائى عليك حيث رضاك بكل ما سيكون منى إليك وعليك هو الأساس فى قبول رجوعك إلىّ فإذا رجعت إلىّ راضية بحكمى فيك وقضائى عليك وأنا الرب الرءوف الرحيم فجزاؤك على هذا رضائى عليك ؛ فإن رضاك بحكم قضائى يجلب لك رضائى عليك . ﴿ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾ .

وقد علمت أخى أن من علامات رضا الله على عبده إضافته إليه سبحانه بصفة العبودية . ﴿ **فَادْخُلِي فِي عِبَادِي** ﴾ العبودية الخاصة التى يكرم الله بها الخواص من عباده . ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ**

هَوْناً ﴾ .. الآيات فإذا قال أخى . وما علامة العبودية الخاصة ؟ الجواب : استيلاء الرحمة على قلوبهم حتى تصبح طبيعتهم الرحمة والإشفاق على جميع المخلوقات والنظر إلى كل شيء من الله بعين الرحمة . فالرخاء والشدة عندهم فى الحكم سواء ، والنعم والمصائب كلها رحمة من الله قال تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ فمن كان عبداً لله ينظر إلى كل شيء بصفات الرحمة من الله حتى الموت الذى يصيبه يراه رحمة منه وفضلًا . ولذلك يمشون على الأرض هونا (أى غرباء) الإحساس فى ملامسة الأرضيات . ومعنى هذا أنهم لا يتعلقون بالحياة الأرضية تعلق الخالدين فيها . تهون عليهم الحياة الدنيا كأنهم ليسوا منها ولا إليها . لا يتعالون على أحد ، ولا يتكبرون على شيء فالدنيا عندهم كالاستراحة المؤقتة . أسبابهم إلى الحياة الدنيا هينة خفيفة ، لا يتعالون ولا يتشّددون . لا إصرار على الأسباب ولا تعلق بها ؛ لأن صلتهم بمُسبّب الأسباب . هو الله رب العالمين . يمشون على الأرض هوناً – أصبحت طبيعتهم السكينة والوقار لما يتدثرون به من هيبة الإيمان ، وصولة العبودية . ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ﴾ فعند الامتحان يُكرمُ المرءُ أو يُهان – ومن هنا نعلم أن من لم يقابل الإساءة بالإحسان ، والاعتداء بالعفو (مقابلة الشر عموماً بالخير) فما أحْسِبه من عباد الرحمن كما ذكر الله فى آياته السابقة جعلنا الله وإياكم من عباد الرحمن حقاً .

قال تعالى : ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾

فمن دخل فى حظيرة العبودية تولّاه الله ورعاه ، وكتب له التوفيق ، وسدد خطاه لأنه صار عبداً لله ظاهراً وباطناً ، وأصبح ممن قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ ولما كانت الجنة محل رضوان الله ، وموضع إكرامه كافأ الله بها عباده حيث أعدّها للمتقين منهم . ﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ .

* * * *

تذكـــر المـــوت

أخى :

إن تذكر الموت هو السوط الذى يجب أن يضرب الإنسان به نفسه ؛ فمن لم يؤدبها بهذا السوط لا يبلغ مراداً ، ولا يصلح شأناً . ولا يثبت حالًا ولا مقاماً . فالموت ضد الحياة ... والحياة ضد الموت والصراع بينهما يتولد من الشعور الحقيقى والإحساس العميق بالحياة البعدية ومعانيها . فالنفس رغم تعلقها بالحياة الدنيا تشرئب وتتطلع إلى الحياة الأخروية ومستقبلها فيها . وذلك بمقتضى الفطرة والإلهام الربانى . ومن هنا نعلم تأثر المؤمن بذكر الموت وما بعده ، وقد علمت أخى أن تذكر الموت وما بعده فرض علينا فى كل وقت كى يحملنا على الاستعداد له ولو بقَدَر يكف النفس بعض الشىء ، ويردها عن غيّها وعدوانها . فوالله الذى لا إله إلا هو : إن تذكر الموت أردع للنفس وأزجر لها من العبادات والأعمال الفارغة من التذكر . فهى ربما تغْتَرّ بأعمالها ، وتفتن بعبادتها إذا لم يكن هناك تذكر للموت وما بعده . وتذكر الموت يهز من كيان النفس ، ويهدّ من غرورها وفجورها ، ويحملها على الصدق والإخلاص فى أعمالها . والمؤمن السالك الصادق الإيمان بربّه واليوم الآخر لا يَدَعُ هذا السوط من يده ، وإن وضعه فى نهاره لا يضعه فى ليله حين يأوى إلى فراشه لما يعلم ويوقن من الصّلة بين النوم والموت . ﴿ **اللَّه يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى** ﴾ .

وقد علمت أن المؤمن الذى يعيش فى عالم الغيب لا ينفك عن ذكر الموت بقلبه وروحه . ولذا فحياته فى هذه الدنيا كحياة الضيف أينما نزل لأن الضيف مهما بلغت به وسائل الراحة . ومهما كان مظهره من الرضا والاستقرار فالشعور القلبى بأنه عن قريب مرتحل لا يفارقه ولا يزايله فهو أبداً قلق لعلمه ويقينه أن هذا

غير مقره وغير محل سكنه وإقامته . ولذلك يرضى ويقنع بما تيسر له من طعام – طعامه ما حضر ، ولباسه ما وجد – وهكذا أخى شعور المؤمن نحو الحياة . وقد اتضح من هذا معنى حديث الرسول ﷺ : « كونوا فى الدنيا أضيافاً ، واتخذوا المساجد بيوتاً .... » أو كما قال .

أخى :

إن الذى يبلغ بالمؤمن هذ الدرجة من الشعور والإحساس هو التذكر الدائم للموت ، وتذكر المؤمن للموت لا يجلبه إليه قبل أوانه ، ولا يساق إليه قبل حلول أجله . إنما التذكر يقوى العزيمة ، ويضاعف الهمة ، ويقصّر الأمل فى حب الدنيا ، ويمنع التسويف ، ويدفع إلى الطاعات والعبادات وصالح الأعمال . ولكن هيهات هيهات . مادامت النفس متعلقة بالدنيا منكبة عليها . أعاذنا الله وإياكم من شرورها وأوضارها .

أخى :

إذا سأل سائل من عباد الله كيف الخلاص ؟ وكيف البلوغ لهذا المقام ؟ الجواب : السماع ثم التصديق ثم التحقيق ثم التدقيق . وهذا الدين سماع ثم تصديق ثم تحقيق . ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ وإن الاشتغال بذكر الله ليلًا ونهاراً يقرب العبد من ربه . ومتى ما حصل القرب حصل التحقيق شيئاً فشيئاً .

أخى :

لتقف معى قليلًا لتستشف معى قول الرسول ﷺ :.« كونوا فى الدنيا أضيافاً ...» الحديث يعنى . اجعلوا إقامتكم فى الدنيا كما يجعلها الضيف حين ينزل فإنه عن قريب مرتحل . والدنيا مأوىً مؤقّت ، ومنزل محدود ، طال البقاء أم قصر فإن مصير الإنسان الارتحال ، ونهايته الانتقال مهما بلغ فيها من حال ، واعتلى من مقام واستقرار . ﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى** ﴾ فوالله لا يفلح ولا ينجح من لم ينظر إليها بهذا المعنى . ومعنى اتخذوا المساجد بيوتاً – لتكن ضيافته فى الدنيا وإقامته فى المسجد والسكن القلبى فيه . لماذا لأن

المسجد وإن كان فى الأرض إلا أنه جزء من السماء . فمن اتخذه بيتاً يأوى إليه فهو فى السماء وإن كان فى الأرض . وهو ضيف الله فى بيته لا ضيف الدنيا ، ولا ضيف أحد من الخلق حيث المسجد ملك الله فى الأرض ، وبيته الذى يأوى إليه عباده المؤمنون . قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ والتعمير لها بطاعة الله وعبادته وأعمال الآخرة التى عليها الثواب والنعيم . وليس التعمير بالطّلاء والبناء والفرش . وإن كان ذلك داخلًا فى صالح الأعمال التى يثيب الله عليها عباده – واتخذوا المساجد بيوتاً – أى تأوون إليها كما تأوون إلى بيوتكم فرحين مستبشرين مستأنسين – لا قلقين متعجلين – فرحين مستبشرين حيث المنزل محلّ الراحة للإنسان موضع حظوظه وشهواته . واتخذوا المساجد بيوتاً – تعمرونها كما تعمرون بيوتكم فى الدنيا بما تحتاجون إليه من أسباب الحياة فيها فكذلك المسجد بيتك الأُخروى . فعمره بما أنت فى حاجة إليه فى سكنك الأخروى الذى لابد منه طال عمرك أم قصر . وعوّدوا قلوبكم الرّقة فى المسجد . أى اذكروا الله فيه ذكراً كثيراً يرقق الله به قلوبكم . فإن الذكر فى المسجد له قدره وإشراقه على النفس بخلوص النية بمقتضى السعى إليه باعتباره بيت الله المنسوب إليه . ولما للمسجد من الصلة بالسماء . ولا تختلف بكم الأهواء حينما تخرجون من المسجد إلى الدنيا تبنون ما لا تعمّرون وتؤملون ما لا تدركون .

* * * *

أيها الإخوة :

لقد فرض الله علينا صيام شهر رمضان تكريماً لنا وتشريفاً ، وأنعم به علينا ليزوّدنا بخير زاد إلى دار المعاد : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّاماً مَّعْدُوداتٍ .. ﴾ الآيات . فالحمد لله على فضله وإحسانه وجوده ، وهو الرءوف الرحيم .

إخوانى :

لقد كاد الشهر أن ينتهى وأوشك على الانقضاء ، وكاد القلب أن ينفطر من الاستيحاش بانقضائه فالحمد لله على انقضائه بقضائه . وهو العليم الحكيم اللطيف الخبير أعاده الله علينا بخشيته وتقواه ، ونوره وهداه ؛ فإنه على كل شىء قدير ، وبالإجابة جدير . فطوبى لمن أنصف ربّه فأقر له بالفضل منه وإليه . وبالنعمة ، والإحسان ، والجود والعطاء .

﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فالحمد الله والشكر له . فطوبى لمن أنصف ربّه فأقرّ له بالجهل فى علمه ، والآفات فى عمله ، والعيوب فى نفسه ، والتفريط فى حقه ، والظلم فى معاملته ، فإن أخذه بذنوبه رأى عدله ، وإن لم يؤاخذه بها رأى فضله . وإن عمل حسنة رآها من منّته وتوفيقه . وإن عمل سيئة رآها من إمساك عصمته عنه وخذلانه وذلك من عَدْله فيه فيرى فى ذلك فقره إلى ربّه ، وظلمه فى نفسه . فإن غفر له فبمحض إحسانه وجوده وكرمه .

فاعلم أخى وسيدى أن نكتة المسألة وسرّها أنه لا يرى المؤمن ربه إلا محسناً ، ولا يرى نفسه إلا مسيئاً أو مفرطاً أو مقصراً . فيرى كل ما يسره من فضل ربه عليه وإحسانه إليه ، وكل ما يسوءه من ذنوبه وعدل الله فيه . ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴾ صدق الله العظيم : فالحمد لله والشكر له .

فاعلم أخى وسيدى أن قبول المحل (القلب) لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده . فإذا كان القلب ممتلئاً بالباطل اعتقاداً ومحبة لم يبق فيه

لاعتقاد الحق ومحبته موضع كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه إلا إذا فرغ لسانه من النطق بالباطل . وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكن شغلها بالطاعة إلا إذا أفرغها من ضدها . فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله وإرادته ، والشوق إليه والأنس به لا يمكن شغله بمحبة الله وإرادته وحبه والشوق إلى لقائه إلا بتفريغه من تعلقه بغيره . فانظر أخى وتدبر . وقل ربى زدنى علماً . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فاعلم أخى وسيدى أن معرفة الله سبحانه وتعالى نوعان : معرفة إقرار وهى التى اشترك فيها الناس البّر والفاجر ، والمطيع والعاصى ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَ السَّمَواتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الله** ﴾ . ﴿ **إن كُلُّ مَن فِى السَّمَواتِ والأَرْضِ إِلَّا آتِى الرَّحْمَن عَبْداً** ﴾ والثانى معرفة توجب الحياء منه والمحبة له ، وتعلق القلب به ، والشوق إلى لقائه ، وخشيته ، والإنابة إليه ، والأنس به والفرار من الخلق إليه . والمراد بالخلق كل ما سوى الله . قال تعالى فى وصف هؤلاء ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ** ﴾ وقوله : ﴿ **مَنْ خَشِىَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيب** ﴾ وهذه هى المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم ، وتفاوتهم فيها لا يحصيها إلا الذى عرفهم بنفسه ، وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم . وكل أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها وقد قال أعرف الخلق به رسول الله ﷺ : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده ما شاء له من المحامد .

ولهذه المعرفة بابان واسعان . باب التفكر والتأمل فى آيات القرآن كلها ، والفهم الخاص عن الله ورسوله قال تعالى : ﴿ **إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِى الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ والباب الثانى : التفكر فى آياته المشهودة ، وتأمل حكمته فيها ، وقدرته ولطفه وإحسانه ، وعدله وقيامه

بالقسط على خلقه . وجماع ذلك الفقه فى معانى أسمائه الحسنى وجلالها وكمالها وتفرده بذلك ، وتعلقها بالخلق والأمر . فيكون فقيها فى أسمائه وصفاته ، فقيها فى الحكم الدينى الشرعى والحكم الكونى القدرى . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم .

فاعلم أخى وسيدى أن ربًّا ذا إرادة أمر عبداً ذا إرادة .فإن وفقه وأراد من نفسه أن يعينه ربّه ويلهمه فعل ما أمره به . وإن خذله وخلاه وإرادته ونفسه . وهو فى هذه الحيثية لا يختار إلا ما تهواه نفسه وطبعه . فهو من حيث هو إنسان لا يريد إلا ذلك . ولذلك ذمّه الله فى كتابه من هذه الحيثية ، ولم يمدحه إلا بأمر زائد على تلك الحيثية . وهو كونه مسلماً ومؤمناً وصابراً ومحسناً وشكوراً وتقياً وبَرًّا ونحو ذلك . وهذا أمر زائد على مجرد كونه إنساناً وإرادته صالحة . ولكن لا يكفى مجرد صلاحيتها إن لم تؤيد بقدر زائد على ذلك وهو التوفيق كما أنه لا يكفى فى الرؤية مجرد صلاحية العين للإدراك إن لم يحصل سبب آخر من النور المنفصل عنها . فانظر أخى وتدبر . وقل ربى زدنى علماً . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فاعلم أخى وسيدى : أن الناس مذ خلقوا لم يزالوا مسافرين ، وليس لهم حط رحالهم إلا فى الجنة أو النار والعاقل يعلم أن السفر مبنى على المشقة وركوب الأخطار . ومن المحال عادة أن يُطلب فيه نعيم ولذة وراحة.. إنما ذلك بعد انتهاء السفر . ومن المعلوم أن كل وطأة قدم ، وكل أنّة من أنات السفر غير واقفة ولا المكلف واقف . وقد ثبت أنه مسافر على الحال التى يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصّل . وإذا نزل أو نام فعلى قدم الاستعداد للسير .

فاعلم أخى وسيدى : أن الطريق إلى الله وعر شاق محفوف بالأشواك . فالكيس من أسلم نفسه ، وفوض أمره إليه مستعيناً به من حيث لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه . وهو اللطيف الخبير الرءوف الرحيم . فالحمد لله والشكر له .

فاعلم أخى وسيدى :أن طالب العودة إلى الله والدار الآخرة يحتاج أن يكون مقداماً حاكماً على وهمه غير مقْهُور تحت سلطان تخيّله زاهداً فى كل ما سوى مطلوبه . كثير السكون . دائم الفكر غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم ، قائماً بما يحتاج إليه من أسباب معونته . لا تستفزه المعارضات ، ولا تشغله

الخواطر العابرة . شعاره الصبر ، وراحته التعب . محباً لمكارم الأخلاق . حافظاً لوقته ، لا يخالط الناس إلا على حذر . كالطائر الذى يلتقط الحب بينهم ، قائماً على نفسه بالرغبة والرهبة . والله الموفق للصواب .

واعلم أخى وسيدى : أن لله على العبد فى كل عضو من أعضائه أمرا وأنه عليه فيه نهيا ، وله فيه نعمة ، وله به منفعة ، فإن قام لله فى ذلك العضو بأمره ، واجتنب فيه نهيه فقد أدى شكر نعمته عليه ، وسعى فى تكميل انتفاعه به ، ولذته فيه ، وإن عطل أمر الله ونهيه فيه عطله الله من انتفاعه بذلك العضو . وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته . وله عليه فى كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إليه ، وتقربه منه ، فإن شغل وقته بعبودية الوقت تقدم إلى ربه . وإن شغله بهوى نفسه أو راحة وبطالة تأخر ، فالعبد لا يزال فى تقدم أو تأخر . ولا وقوف فى الطريق البتة قال تعالى : ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ صدق الله العظيم .

فاعلم أخى وسيدى : أن الطلب لقاح الإيمان ، فإذا اجتمع الإيمان والطلب أثمرا العمل الصالح . وحسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار إليه . فإذا اجتمعا أثمرا إجابة الدعاء . والخشية لقاح المحبة فإذا اجتمعا أثمرا امتثال الأوامر واجتناب النواهى .

فاعلم أخى وسيدى : أن تخلف الكمالات إما من عدم البصيرة ، وإما من عدم العزيمة قال تعالى : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ .

فاعلم أخى وسيدى : أن الناس حينما أرسل الله إليهم الرسل أصبحوا بين أمرين : إما أن يقول أحدهم آمنا . وإما أن لا يقول آمنا بل يستمر على عمل السيئات . فمن قال آمنا . امتحنه الله وابتلاه ، وألبسه ثوب الابتلاء والاختبار ليبين الصادق من الكاذب . ومن لم يقل آمنا فلا يحسب أنه يسبق الربّ ، فإن أحدا لن يعجز الله تعالى : هذه سنته ولن تجد لسنة الله تبديلًا قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

وختاماً أقول لأخى وسيدى : إن الإيمان عبارة عن حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً . والتصديق به عقداً ، والإقرار به نطقاً ، والانقياد له محبة وخضوعاً ، والعمل به ظاهراً وباطناً ، والدعوة إليه بحسب الإمكان . ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وكمال الإيمان فى الحب فى الله . والبغض فى الله ، والعطاء لله ، والمنع لله . وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده ، والطريق إليه تجريد ومتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً ، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله ، وبالله التوفيق .

* * * *

يُنَبَّؤُا الإنسانُ يَومئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ

أخى :

إن العبد مسئول بين يدى الله عن كل وقت قضاه فى الدنيا ، وكل لحظة مرّت عليه وهو على قيد الحياة فيها . فالشطر الأول من حياته هو فيه غير مكلف ؛ حيث القلم مرفوع عنه . فلا سؤال عليه خلالها . أما سائر الأوقات من البلوغ إلى نهاية عمره فالمسئولية واقعة على الإنسان فيها طوعاً أو كرهاً . وقد علمت أخى أن أوقات الإنسان كلها محصورة فى مجموعها . بعضها طاعة وبعضها معصية ولا ثالث لهما ، فما أشغل بالطاعة أثيب عليها وما أشغل بالمعصية عوقب عليها بالعذاب . فإنه لا شىء سوى الطاعة والمعصية يقابلهما يوم القيامة الثواب والعقاب . قال تعالى : ﴿ **كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّؤُا الإنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ** ﴾ بصيرة عما قدم من الذنوب خلال الأوقات فى الحياة الدنيا . وبما أخّر من الطاعات خلالها فى الحياة الدنيا . فما تقدم من الذنوب عذب عليها إن لم يتب منها قبل اللقاء . وما تأخر من الطاعات والعبادات حوسب عليها بالحرمان من الثواب . وهكذا يسأل الله عباده عن جميع الأوقات فى الحياة الدنيا . ينبأ الإنسان أى يخبر يومئِذٍ بعذاب ما قدم من الذنوب وثواب ما قدم من الطاعات والعبادات قال تعالى : ﴿ **وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً** ﴾ ﴿ **يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُر نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ ويخبر الإنسان أيضاً بما أخّر . أى بما لم يفعله من الطاعات والعبادات . وما إلى ذلك من المأمورات والمطلوبات . يخبر بالعذاب والعقاب عليها إذا كانت من الفرائض . ويخبر بالقطيعة والحرمان من القرب إذا كانت من النوافل . قال تعالى : ﴿ **وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ**

فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلقاهُ منشوراً * اقْرأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ ينبأ الإنسان .. الآية أى بما قدم للمعاد من الأعمال الشرعية التى عليها مدار الجزاء ثواباً ونعيماً . وبما أخّر من الأعمال التى كان فى استطاعته أن يعملها فى دار الدنيا – ينبأ الإنسان ... يومئذ بكل ما تقدم به لربه فى الحياة الدنيا يرجو ثوابه ويخاف عقابه . ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزى * إلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ ينبأ الإنسان يومئذٍ بنتيجة صدقه وإخلاصه فى عبوديته لربه وإيمانه بوعده ووعيده ، وينبأ بالأسباب التى تخلى بها عن الاتصاف بالعبودية لله فى الحياة الدنيا حيث إنه أخر الاتصاف بها إلى ذلك اليوم . ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ ينبأ الإنسان بالمتقدم من الإيمان والمتأخر عنه . وبالمتقدم من الحظوظ والشهوات التى بمقتضاها تحرم النفس من مثلها فى الجنات الخالدات . وهكذا يحاسب الله عباده على المتقدم والمتأخر « فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » أو كما قال .

أخى :

إن كل ما يشغل فراغ الإنسان فى الحياة مضاف إما إلى الطاعة ، وإما إلى المعصية . فإذا كان مما أمر الله به ودعا إليه ، وحض عليه فهى طاعة أو مضاف إليها . وإذا كان مما حذر منه ونهى عنه ، وأنذر عليه فهى معصية أو مضاف إليها . فأما ما تجاوز عنه وعفا وسمح به فهى إلى الطاعة أقرب منها إلى المعصية إذا كانت النية صالحة وإذا كان القصد منه التَّقوِّى على الطاعة والعبادة . أما ما يجر إلى المعصية ويقرّب المسافة إليها فهو إلى المعصية أقرب منه إلى الطاعة ، ولو كان حلالًا محضاً ومباحاً صِرْفاً كالإقبال الشديد على الدنيا والتهافت عليها ، واتخاذها غاية وقصداً . قال تعالى : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ ﴾ .

وقد علمت أخي أن ساعات الحياة كلها معدودة على الإنسان محسوبة عليه مضافة إليه ، فلكل ساعة خيرها وشرها فى صحيفة يقرؤها بنفسه يوم يلقى ربه فيعرض عليه ما قدمت يداه . ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِروا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِما آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون ﴾ .

وختاماً أقول لأخي إن المؤمن الحق بمقتضى إيمانه بربّه واليوم الآخر حريص جداً على شحن فراغه كله بطاعة الله وعبادته . فما تيسر منهما شحن الفراغ به ، وما تعذر عليه عوض عنهما بالاستغفار والتوبة . فهكذا أخي ما بقيت الحياة . قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ والسلام عليكم ورحمة الله .

* * * *

وَنَبْلُوكُم بالشَّرِّ وَالخَيْر فِتْنَةً

أخى : السلام عليكم ورحمة الله .

الحمد لله حمداً يوافى نعمه ويكافىء مزيده . فإنه سبحانه على كل شىء قدير ، وبالإجابة جدير . اللهم ألهمنا رشدنا وقنا شر أنفسنا. اللهم عافنا واعف عنا . واغفر لنا أنت وليّنا ومولانا : اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها . أنت وليها ومولاها . اللهم اشرح صدورنا للإسلام ، واجعل لنا نوراً نهتدى به إليك يا منان . اللهم أغن فقرنا ، واجبر كسرنا . وأعزّ ذلنا . وارفع جهلنا . واشف أمراضنا ، واهد قلوبنا ، وأصلح أحوالنا ، وأغننا بحلالك عن حرامك . واكفنا بفضلك عمن سواك والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

أخى :

لقد علمت أن الأمور كلها خيرها وشرها متوقف على العلم أولًا ثم على التصديق ثانياً ثم على الإحساس ثالثاً ثم على اليقين الذى هو خلاصة العلم . فالعلم يقتضى التصديق ، والتصديق يقتضى الإحساس . والإحساس يقتضى العمل ، والعمل يقتضى القرب . والقرب يقتضى اليقين الكامل . ﴿ وَاعْبُد رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ .

واعلم أخى أن الذى تسميه شراً هو نتيجة الإحْسَاسِ الملموس لنا ولكن متى ما علمت أن هذا الذى تشعر بشرّه عليك هو فى أصل تقديره عليك لم يكن شرًّا مراداً هان عليك احتماله ، وسهل عليك تحمله مهما كان أنين النفس وتوجّعها . فالإنسان بمقتضى جبلّته وبواقع طبيعته يفر من الشر ، ويهرب من الآلام ؛ ولذلك لا يحاول كسبه . وإنما يحاول ردّه ودفعه بقدر ما أوتى من قوة وجهد . وقد علمت أنه متى تم العلم وكمل التصديق بأن الحياة لا تخلو من الشر

والخير . حيث الخير ضد الشر . ولولا الشر ما كان الخير . فالضد يظهر حسنه الضد . نعم أقول متى ما تم العلم تمخض عن هذا العلم والتصديق الإحساس الذى لابد منه وهو الشعور الكامل بوجود الشر فى الخير والخير فى الشر . ولما كان الإنسان بمقتضى بشريته وبواقع جبلته رقيق الإحساس بالشر قوى الدفع له بشتى الوسائل والحيل . خلق الله الخير والشر فتنة ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ خلق الله وقدر هذا الابتلاء لا لكى يُؤلِمَ عبده ويلحق الأذى به . كلا : إنما ليسوقه إليه ويعرفه بنفسه منًّا وعطاءً . إحياء وعدماً ، لأن الإنسان يعرف الخير ويستأنس به ؛ ولذلك ينشغل به عن الذى أنعم عليه . وفى هذا بعض ما يقيه معنى الجحود والكفران ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ وفى هذه الحالة تكاد الصلة تنعدم بالانقطاع بين العبد والرب ، ولئلا تنعدم الصلة وينقطع الرباط يصيب الله عبده بالقليل جداً من الشر بالنسبة إلى ما هو عليه من الخير احتفاظاً بالصلة ، وتقديراً للرباط . ومتى ما عاد إلى ربه ورجع إليه صرف عنه الشر وخفف عليه ، وقدر له الأجر الذى يكافىء آلامه وأنينه : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

واعلم أخى أن الشر الذى يصيب الله به عبده هو دون الخير بحيث لا نسبة بينهما ومع هذا لا يكون الشكر على الخير مناسبا مع الضجر مع الشر ، فالقليل من الشر ينسى العبد الكثير من الخير ﴿ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفًا ﴾ وقد خلقه الله ضعيفاً ليكون الفصل محسوسا بين الخالق والمخلوق ، وبين الرّب والمربوب . فإن العلم بالخير لا يكون إلا نتيجة الإحساس بالشر .

وعليه أقول : لابد من الشر لمن أراد الخير – ومتى ما علم الإنسان ذلك وصدقه . هان عليه الاحتمال ، وسهل عليه التحمل حيث لابد من الخير فى الشر والشرّ فى الخير . وفوق كل ذى علم عليم ، وقد علمت أن العلم بالله متى ما بلغ درجة التصديق انتفت رؤية الشر فى أصل التقدير مع الإحساس بنتائجه العاجلة حيث الإحساس بالشر لابد منه . فليس المراد فقدان الإحساس وإنما المراد تحمل الواقع مع الأخذ بالأسباب الواقية . فالجرح مثلًا يصيب عضواً من الأعضاء .

وهذه الإصابة تكون نتيجة تصادم مادة مع مادة أقوى من مادة العضو فهل هذه المادة التى اصطدمت مع العضو وأصابته يترتب عليها لوم وعتاب . طبعاً – لا – لأن المصاب هو الذى تعرض لها ، واصطدم بها . فإذا كان ثمة لوم فعليه لا عليها . ومن هنا نعلم معنى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ** ﴾ فالعفو هنا متعلق بالسلامة التى تكون فى بعض الحالات مع وجود الأسباب . فالإنسان يمرض ويشفى أو يصاب ويعفى ، ويصطدم بشىء فينجو ، يتعرض فيسلم . فالشر أيها الأخ فى تقدير الله خير محض ، ومثله مثل علاج الدكتور ، فإن أعماله فى ظاهرها تعذيب ، وفى باطنها رحمة فالمريض يعرف ذلك ويعلم ، ولذلك يحتمل ويصبر حيث الإيمان بالرحمة سابق إلى قلبه ، واليقين عليها كامل ، وكذلك العبد فيما يلقى من شر القدر حسب تصوره وإدراكه . فالعبرة بالعلم أولًا وبالتصديق ثانياً . ومتى استقر هذا فى نفسه هانت الأمور ، وذللت الصعاب . وإن هذا العلم لا يتحقق بسهولة ويسر كما يتبادر إلى أذهان المستمعين . إنما يكون ذلك تدريجياً وعلى قدر سلوك الطريق الموصل إليه وهو تقوى الله . وهذه التقوى هى بناء النفس على أساس الكتاب والسنة وذلك لا يتم إلا بمخالفة هواها . والمخالفة لا تكون إلا بالعلم الذى هو بمعنى الإيمان العام بالله ورسوله واليوم الآخر ﴿ **يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً** ﴾ فاعلم أخى أنه متى مارسمت فى نفسك أن الله تبارك وتعالى لا يريد بك إلا خيراً حيث خلقك إنساناً مميزاً ومخلوقاً مكرماً يفدك هذا ويقطع عنك حديث النفس ؛ فإنه سبحانه ذكر لك فى كتابه سبب خلقك . ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون** ﴾ فمحال أن يخلقك لعبادته ومعرفته وهو لا يريد لك الخير . فأنت لا شك مكرم ولا جدال فى أنك مميز بهذه الصفة . وعليه فما يصيبك منه هو خير محض بالنسبة لتقديره وقضائه . ولما كان بعض الخير لا يكون إلا بملامسة الشر قرن الله بينهما فى حدود إحساسك حيث خلق الإنسان من نطفة أمشاج ابتلاء واختبارا فالحمد لله .

واعلم أخى أن الطيبات التى تعيش بها فى الدنيا بعضها خالصة وبعضها ممزوجة . فالنخيل والأعناب والفواكه والثمرات تؤكل من غير أن يصيبها شر. أما الخبز الذى هو أساس الحياة فإنه يمسّ بالنار والنار شر ، وكذلك شان اللحم ،

وسائر الطيبات التى تطهى بالنار وتطيب بالاحتراق . والنار فى ذاتها شر ؛ لكنها ضرورية لحياة الإنسان حيث الكثير من أسباب الحياة بها وسيلة واستخداماً . فالنار إجمالًا أساس الخير . ومحوره . وكذلك الشر أساس الخير ومحوره حيث لابد منه للحصول على الخير عاجلًا أو آجلًا . ولما كانت النار تحرق المواد وتذيبها . كذلك الشر يصيب المثل من الإنسان أعاذنا الله وإياكم من شر الفتنة . وهدانا وإياكم سواء السبيل .

* * * *

المؤمن الحق لا يُفتن بثواب عاجل

أخي :

إن الطريق إلى الله تجرد وتخلص ، وعمل واكتساب ، وفناء وإخلاص . وصدق ومحبة . فمن أراد أن يسلك هذا الطريق فليحذف وجوده الشكلى من وجود الله الفعلى ، وليعمل بكل ما فى استطاعته من جهد بأن يكون حرصه على معاده فوق حرصه على معاشه ، وأن تكون حياته لربه وخالقه أكثر منها لنفسه ووجوده . فيعمل ويعمل وينشط ، ويجد ويكافح ويناضل ، ويجاهد ويحارب مستعيناً بالله فى كل حركاته وسكناته . مستغفراً من سيئاته وذنوبه ، لا يرقب أجراً عاجلًا ؛ ولا ثواباً معجلًا حتى الرؤيا الصالحة ينفض يده منها ، وقلبه من التعلق بها وحتى الفتح لا ينظر إليه ولا يرقبه لما للشيطان من أعمال التخيل والتوهم بحيث يكون نظره إلى الله فيما يتعلق بالجزاء موقوتاً بيوم الدين ؛ كما هو شأن الموظف والصانع فى انتظار يوم صرف المرتب من أول كل شهر فهو يعمل طوال الشهر دون أن يخطر على باله معنى الحصول على المرتب إلا فى ميعاده المحدد . وهكذا شأن المؤمن الصادق السالك الطريق إليه سبحانه . والطريق وعر شاق جداً فلا يُحمل أحد عليه ما لم يكن محمولًا بنفسه إليه وإذا كان الطريق بهذه الصفة فكيف الوصول ؟؟

لا شك أن من يريد الوصول لابد أن يَمُدّ يده إلى من لا يزال على الساحل ؟ وكيف يُنقذ الغريقُ الغريق أو الذى لا يزال يسبح على سطح الماء ؟

* * * *

الغَفْلةُ مِنْ أكبر العوائق فى الطريق إلى الله

إخوانى :

اعلموا أنه ليس من الله إلا الخير لعباده ، وهو حاصل لكل إنسان حىّ فى الدنيا ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا** ﴾ وبهذا نعلم أن كل ما يصيب الإنسان فى الدنيا من منافع ومصالح فهو من الله وحده . والذين آمنوا بالله واليوم الآخر يهديهم ربهم بإيمانهم إلى معرفة هذه الحقائق التى تقتضيها كمال صفاته سبحانه . ومتى ما عرفوها التزموها سلوكاً فى حياتهم فلا يكون للشيطان سلطان عليهم لأنهم مع الله بالعبودية . والله يقول : ﴿ **إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ وإذا بعد الشيطان عن المؤمن فعلى قدر بعده يتقرّب المؤمن إلى الله بصفات بشريته على قدر إيمانه بربه ويقظته ويقينه ، وعبوديته لربه وخالقه ؛ لأن المؤمن يرى صفات الله فى كل ما هو كائن بقضائه وقدره . وإن غفل عن المشاهدة لحظة من الوقت يتدارك غفلته بذكره واستغفاره . ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ .

إخوانى :

ليس من الله إلى عباده إلا الخير عاجلًا وآجلًا . فمن جاهد نفسه متطلعاً إلى الإيمان بذلك فإنه يواجه الأحداث والوقائع بروح الإيمان بربه . فإن وجد ما يحب شكر الله وحمده . وإن وجد ما يكره أقام الحجة على نفسه التى يغمرها الإحساس بحسن الظن بالله فإذا به يدخل حضرة الحق بالصبر والرضا والله يقول : ﴿ **إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيرِ حِسَابٍ** ﴾ وقد علمت أيها الإخوة أن نسبة الخير فيما يصيب الله به عباده فى الحياة الدنيا أضعاف أضعاف نسبة الشر ، فلو قام العبد بشكر ربه على مطلق النعم التى لا حصر لها كفاه

ذلك عن التأثر بالشر إذا وقع عليه . قال تعالى مذكراً عباده : ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ فالغفلة عن شهود نعمه والاعتراف بها وإضافتها إليه سبحانه أكبر حجاب فى طريق العبد إلى ربّه . ومن أجل هذا أقول إن نعمة الحياة وحدها تكفى المؤمن ذكراً ليومه لأنها حاصلة له دون كسب منه ولا تسبب فيها . ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ فإذا عزم العبد على السفر إلى الله عرضت له الخوادع والقواطع ، وهى أكثر من أن أحصيها لكم وهى لا تنقطع أبداً حتى يلقى العبد ربه . وإن كانت تختلف نوعاً ولوناً وكيفاً . وليست العبرة بحصولها . إنما العبرة بالوقوف معها ، فمن وقف معها انقطع عن المقصود ، ومن لم يقف معها وسار ناظراً إلى مراد الله منه ، وما يحبه منه بحيث يكون عبده الموقوف على محابه ومراضيه . لا يختار لنفسه غير ما يختار الله له سواء تعب أو استراح ، تنعّم أو تألم . أخرجته إلى الناس أو عزلته عنهم ؛ لأنه مع سيده وأوامره ينفذها بحسب الإمكان ونفسه عنده أهون عليه أن يقدم مرضاتها ولذاتها على مرضاة سيده وأمره . فهذا هو العبد الذى قد وصل ونفذ أو فى طريق ذلك لم يقطعه عن ربه شىء أبداً .

أخى :

إن العبد المؤمن فى وقت من وقتين . بين وقت مضى ووقت مستقبل . فما مضى يصلحه بالتوبة والندم والاستغفار . وذلك شىء لا تعب فيه ، ولا نصب ولا معاناة . وما يستقبله من وقت فالمطلوب منه عزيمة صادقة ، ونية جازمة على الامتناع عن الذنوب والآثام فمن أضاع وقته أضاع سعادته ونجاحه وفلاحه ، ومن حفظه نجا وفاز بفضل الله ورحمته والحفظ للوقت أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها ، وأعظم تحصيلًا لسعادتها والناس فى هذا متفاوتون . ومن علامة صحة الإرادة أن يكون هم المريد رضا ربّه واستعداده للقائه ، وحزنه على وقت مرّ فى غير مرضاة ربّه ، وأسفه على عدم قربه من خالقه والأُنس به ، وجماع ذلك أن يصبح ويمسى وليس له هم غيره . قال بعض الزهاد : ما علمت أن أحداً سمع بالجنة والنار تأتى عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو إحسان . فقال له رجل : إنى أكثر البكاء . فقال لأن

تضحك وأنت مقر بخطيئتك خير من أن تبكى وأنت فخور بعملك فقال أوصنى : فقال : دَعْ الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها . وكن فى الدنيا كالنحلة إن أكلت أكلت طيباً ، وإن أطعمت أطعمت طيباً . وإن سقطت على شيء لم تكسره ولم تخدشه . فرضى الله عن الصالحين . فقد استفادوا وأفادوا .

واعلموا أن العارف بالله لا يأمر الناس بترك الدنيا فإنهم لا يقدرون على تركها . ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم فترك الدنيا فضيلة . وترك الذنوب فريضة . وكيف يؤمر بالفضيلة من لم يقم بالفريضة فإن صعب عليهم ترك الذنوب فليجتهدوا فى أن يُحبّب إليهم ذكر آلاء الله وإنعامه وإحسانه وصفات كماله ، ونعوت جلاله . فإن القلوب مفطورة على محبته ، فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب . والإقلال منها وعدم الإصرار عليها . وقد قال يحيى بن معاذ : طلب العالم للدنيا خير من ترك الجاهل لها . فالعارف بالله يدعو الناس إلى الله من دنياهم فتسهل عليهم الإجابة . والزاهد يدعوهم إلى الله بترك الدنيا فتشق عليهم الإجابة ؛ لأن الفطام عن الثدى الذى ما عقل الإنسان نفسه إلا وهو يرتضع منه شديد . ولكن تخير من المرضعات أزكاهن وأفضلهن . فإن لّلبن تأثيراً فى طبيعة الرضيع. ورضاع المرأة الحمقى يعود بالحمق إلى الولد كما يقولون . وأنفع الرضاع ما كان من المجاعة فإن قويت على مرارة الفطام وإلا فلترضع بقَدر ؛ فإن من التّخمة ما يقتل . والله ولى التوفيق .

* * * *

الْوَرَعُ جَوْهرُ الدِّين

إن الورع جوهر الدين . ولباب التقوى ، فمن لا وَرَع له لا دين قويم له ، ولا استقامة على الصراط المستقيم فإن التورع يحمل على الورع والورع يحمل على سد المنافذ على النفس . وقد علمت أن من عرف نفسه على حقيقتها وقف لها بالمرصاد . وهذه الوقفة من جانب المؤمن هي التى تسمى بالورع . فالنفس كما ذكرنا مراراً أمارة بالسوء مجبولة على سوء الأدب . كلها شهوات وحظوظ ، وجميعها فساد وضلال ومن عرفها كذلك وقف منها موقف العدو . فلا يرقب منها خيراً ، ولا ينتظر منها فضلًا . بل يحرسها بكافة الوسائل والحيل ، ويلقاها بكل قوة ليقطع الطريق عليها بحيث تكون محصورة فى أضيق نطاق لها يسمح بالضرورة اللازمة لها من أسباب الحياة فى حدود ما أحل الله وأباح ، ومن لم ينظر إلى الحلال الصِّرف بالعين التى ينظر بها إلى الحرام المحض لن يسلم من شرور النفس مهما بلغ فى العبادة وفنى فى الأعمال . فالحلال هو ما لا عقاب عليه لما له من صفة الضرورة فى حياة الإنسان فهو غير مقصود لذاته . بل إنما هو مقصود لسواه حيث هو وسيلة للحياة إذا كان ثمة داعٍ إليه . ومن هنا كان تعاطى الشيء الحلال لا حساب عليه . وتركه لا عقاب عليه . ولربما يكون فى التعاطى وفى الترك الثواب إذا كانت النية على الصواب والقصد مُرَاد الله . فالحلال بيّن لمن طلبه ، والحرام بيِّن لمن طلبه وبين الطلبين أمور مشبهات . فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه . ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

إخوانى :

إن أول مقامات الورع اتّقاء الشبهات بمعنى التحرّز والاحتراس من ملامسة الشبهات والقرب منها . فإن عدم الاتقاء لها يؤدى إلى مجاورتها ، والمجاورة تؤدى إلى المصاحبة ، والمصاحبة تؤدى إلى التناسب ، والتناسب

يؤدى إلى التلبس بها لما للنفس من قوة الاستعداد فى ارتكاب الآثام . ومتى ما أخذت نصيبها من الشبهات تمردت وقست بحيث يتعذر ردّها إلى الصواب فتقتحم الحرام وهى لا تبالى كأنه حلال محض ومباح خالص . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . لقد قلنا إن أول الورع اتقاء الشبهات فما الشبهات إذاً ؟؟ الشبهات : هى ما بين الحلال والحرام . فهى تشبه الحلال من وجه والحرام من وجه آخر . لها صلة بالحلال من حيث الشكل واللون ، ولها صلة بالحرام من حيث التقارب والتلاحق . وقد سميت شبهة لعدم ورود نصّ بالتحريم . وعدم نصّ صريح بالتحليل . فالشبهات التى بين الحلال والحرام لاحقة فى الحكم بالحرام فى عرف أهل التحقيق ومذهب أهل التوحيد حيث لا فرق عندهم بين الحرام والشبهة المؤدّية إليه وبذلك يتقون الشبهات اتقاءهم الحرام سواء بسواء . ولا بأس أن أضرب مثلا لبيان الشبهة فأقول : يدخل الرجل على ابنة عمه أو ابنة خالته على خلوة وليس على باله شيء نحوها ، ولا تفكير فى أنوثتها مُسايراً العُرف . فالدخول عليها من الشبهات إن لم يكن من المحرمات لأن النظر إليها كامرأة إن لم يثر الغريزة إليها يثرها فى شكلها وَمنْ على شاكلتها سواء أكان القصد من قبل أو لم يكن . فإذا كان القصد من قبل فهو الحرام المحض . وإن لم يكن من قبل فقد حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . مثل آخر : شخص من الناس إذا قصدته فى حاجة لا يقضيها لك إذا واجْهته بنفسك على انفراد . وأنت تعلم ذلك يقيناً . ولربما يقضيها لك إذا سألته هذه الحاجة أمام من يستحى منه أو يتظاهر أمامه بالكمال . فإذا انتهزت فرصة حيائه أمام من يستحى منه أو يتظاهر أمامهم فقصدته فهذه شبهة لأنها أخذت صورة الاغتصاب فى الحكم . ومثل ثالث : قد تقصد شيئاً من شخص فتتحدث فى مجلسه بأن فلاناً أعطاك ويعطيك كذا وكذا . وأنت تقصد بهذا إلفات نظره إلى جدارتك بالأخذ وأن الناس على استعداد لخدمتك ، وقضاء مصالحك . فالشبهات كلها تؤدى بك أو تقرب لك مجاورة ما حرم الله عليك . والنفس يتعذر قبضها حين يشتد أمرها ، ويستفحل شأنها ، لأن مادة النفس مع المحرمات كالبنزين مع النار . فمن وضع نفسه فى أماكن الشبهات أحرق بنار المحرمات حيث لا يسلم منها أبداً مهما كان مظهره من العبادة

والتقوى شأنه شأن من جمع البنزين والنار فى موضع واحد . فالشبهات أساس البلاء ومحور الفساد والضلال فمن لم يتّقها فقد خسر وهلك .

أما المقام الثانى من الورع : فهو اعتبار الزائد عن الحاجة والضرورة من الحلال الصرف أمرا من الشبهات بالنسبة لشره النفس وشحها وحرصها . وذلك بمعنى نزع الإشراف النفسى على الأشياء والإشراف قسمان : الأول منه : عدم الطمع فيما فى أيدى الناس من نعم الله عليهم بحيث تريد أن يكون فى يدك وملكك بدلًا من أن يكون فى أيديهم وملكهم . والإشراف الثانى : تمنى مثل ما فى أيدى الناس دون طمع إلى ما فى أيديهم . القسم الأول ممقوت لماله من صفة الحسد والجوْر والثانى يجيزه الشرع لماله من صفة التنافس والغبطة . وإن كنت فى حدود علمى أراه من الشبهات لما يؤدى إليه من المعنى والقصد ، لأن مطلق الإشراف النفسى على متاع الحياة الدنيا الزائد عن الحاجة والضرورة شبهة أيا كان نوع المتاع وأسبابه ؛ لأن الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة . ولأن النفس إذا أطلق لها العنان رأت كل شىء يمكنها الحصول عليه من الضرورات اللازمة . فالدنيا كلها فى نظرها تصبح من الضرورات . فمن عرفها من عباد الله المقربين وأوليائه المتقين حصرها فى أضيق نطاق وكبح جماح نفسه بشد وثاقها . وحملها على الرضا باليسير من النعم والأرزاق .

أما المقام الثالث من الورع : فإنه التورّع عن الحلال الصّرف إجمالًا وتفصيلًا وذلك بمعنى عدم التعلق بمشتهيات النفس بحيث يكون التناول للأشياء فى حدود الضرورة والإشراف على الشىء بحيث لا تكون الحياة إلا به . وأهل هذا المقام يأخذون من الحلال عند الاضطرار على قدر الضرورة القصوى كما هو شأن المُعْدَم فى السفر يأخذ من الحرام على قدر ما يسكن النفس ويجلب الحياة ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ وقد علمت أن أهل المعرفة بالله ينظرون إلى كل ما فى الدنيا من متاع الحياة بعين الفناء والزوال ، ولذلك يعتبرونها فى حكم الميتة فيأخذون بالقدر الذى يبقى الحياة ويحقق وجودها عملًا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وليس ذلك منهم من باب التحريم لما أحلّ الله . كلا ثم كلا : إنما هو من باب الحذر والاحتياط لما يعلمون من

شره النفس وحرصها . فإن النفس مهما كان الضغط عليها حريصة على أسباب حياتها . ولئلا تفلت منهم يضيّقون الحصار عليها فى نطاق التربية والتهذيب ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاها ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ .

* * * *

إخوانى :

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

ويقول الله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ فكل ما هو من الله فضل ورحمة . والفضل فى هذه الآية.. هو الإيمان : والرحمة هى القرآن . فبالفضل التصديق ، وبالإيمان العمل .

واعلموا إخوانى أنه ليس من حقنا أن نتمنى حالًا . إنما علينا أن ننهض بكل حال . ونستسلم للواقع من قضاء الله وقدره ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ .

إخوانى :

إن المؤمن الحق يفرح برحمة الله وفضله ، لا بوصفه وأعماله . فإن الله باق ، وصفاته باقية . والإنسان مخلوق وكل مخلوق إلى زوال وفناء ، وكيف لا يفرح المؤمن برحمة الله وفضله ؛ حيث يعلم يقيناً أن كل شىء صدر منه ليس منه أو إليه . كما أنه يرى الكل إلى زوال . ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ فانظر أخى بعقلك وإيمانك إلى أعمال النفس كلها . ومصائر شهواتها وحظوظها كيف تتعلق بها فى أول الأمر . كأنه لا حياة إلا بها ، ولا استقرار إلا عليها . ولا سعادة إلا بإتمامها . والتلبس بها .. ثم انظر إلى شعورها وإحساسها فى نهاية العمل وعند الفراغ منه كيف تضيق النفس وتضجر من أحب الأشياء إليها قبيل ساعة من الوقت . وأظنكم ترون أن أحبّ شىء إلى الإنسان هى الحياة ؛ ولذلك تحرص النفس على أسبابها للحصول عليها . فإن بلغتها وتحصلت عليها زهدت الأسباب إليها . لأنها أصبحت غير ذات موضوع فى نظرها وشعورها وحسابها واعتبارها بعد قليل من الوقت تعود إلى نفس الأسباب بشعورها السابق حرصاً وشعوراً وحبّاً وإقبالًا وهكذا حتى تخلص من

دار الفناء والزوال إلى دار البقاء والخلود . وانظر أخى إلى حال النفس . ووضعها من فضلات المائدة ، وفتات الطعام المتبقى فإنها تنفر منها لعدم الحاجة إليها كأنها فى غنى عنها وحين يفرغ ما عندها تعود إلى الفضلات والفتات بشره شديد ، وإقبال عنيف ، لأنها افتقرت إلى الحياة .

ومن هنا نعلم أن أصل مراد النفس هى الحياة . فإذا ما وصلت إليها زهدت كل شىء حتى الأسباب إليها . فالحياة مراد النفس وغايتها ، ولذلك تبذل أقصى جهدها فى الحصول عليها .

ومن هنا نعلم سر إقبالها على الدنيا وتهافتها وهى تعلم يقيناً فناءها وزوالها . فالدنيا وسيلة للأسباب . والأسباب وسيلة إلى الحياة . والحياة بالنسبة للنفس غاية وهدف . ولذلك فالنفس تستوحش الموت وتفر منه باعتباره ضد الحياة وعكسها . أما إذا تهذبت النفس وتروضت على حبها للحياة الأخرى فإنها تستأنس بها ولا تستوحش الموت استيحاش نفوس الضعفاء من أمثالنا . واعلموا إخوانى أن الإيمان إذا دخل القلب واستقر فيه حمل المؤمن على أن ينظر إلى الحياة بعين الله . لا بعين النفس الحريصة عليها بمقتضى طبيعتها وجبلتها . والنفس برغم علمها ويقينها بأن الحياة بيد الله . وهو الذى يملكها بقدرته ويتصرف فيها بحكمته تغفل هذا الشأن ، وتغض الطرف عنه متأثرة بشهواتها وحظوظها ، ولا تعود إلى الله المحيى المميت القادر المقتدر ، وفى استطاعتها شىء من الأسباب إليها حيث هى من عالم الشهادة وفى عالم الشهادة ، ومن هنا نعلم سر إقبالها على الحياة وعلى الأسباب المفضية إلى المسبّبات . فنحن لا نحب الأسباب لذاتها ولكننا نتصور أن الحياة بها حيث النفس حرصها على الحياة لا على الأسباب . وانظر إليها حين تبلغ مرادها من الأسباب كيف تكفر وتتمرد كأنه لا حاجة لها بعد فيما كان قبل .

وللعلم أقول : إن النفس من شدة حبّها للحياة وحرصها عليها تتصور الحياة فى كل الأسباب الموصلة إليها وقد علمت أن الله تبارك وتعالى لما يعلم من طبيعة النفس وجبلّتها حقر من شأن الحياة . وقلّل من قيمتها ليحول بيننا وبين التعلق بها كغاية تمشياً مع رغبة النفس ، وتأثراً بطبيعتها وجبلتها . وقد علمنا

بكتابه المنزل على لسان رسوله المرسل ﷺ أن هذه الحياة التى تحرص عليها نفوسكم هى مملوكة . لمن برأها وأنشأها فإنها كما كانت بعلمه وقدرته تنتهى كذلك حين يقدر لها نهايتها ؛ فإنه سبحانه يمنحها من يشاء من خلقه ويسلبها متى شاء . فإذا أراد سلبها فالأسباب لا تقف فى سبيله سبحانه . فلا تتوثّنوا[1] الأسباب وتعبدوها . إنما اعبدوا الله الذى خلق فسوى ، وقدر فهدى . المحيى المميت العليم الخبير : فالأسباب رغم قوتها المظهرية ودواعيها المحسوسة الملموسة لا تقرر مصيراً ، ولا تفصل أمراً إنما هى بعلم الله وقدرته ، وفى نطاق ربوبيته وحكمته . ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ * الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾ فالدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة من حيث تأثيرها فى قدرته ، ومن حيث عملها فى إرادته لأن الله يقول للشىء كن فيكون : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ .

إخوانى :

إن الإنسان يحرص على الدنيا بأسبابه إليها لما يظن ويعتقد توهماً وتخيلًا أنها تجلب الحياة وتحققها وتدفع المشاغل والمكاره المنغّصة للحياة فى بعض صورها ومعانيها . وأحسبه يعلم فى قرارة نفسه أن الحياة بيد الله والأمور مرتبة بقدرته وحكمته فى نطاق عدله وإرادته . فالحياة مقدّرة ، والأسباب إليها مقدرة هى الأخرى . ﴿ **وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ** ﴾ وقد خلق الله الإنس والجن ليعرفوا ذلك . قال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ أى يعرفون . فمن عرف نفسه على حقيقتها عرف ربه . وقد علمت أن المطلوب منا معرفة النفس لئلا نقع فى شركها أو نغتر بصفتها أو آثار صنعتها ، لأن معرفتها تقتضينا الحذر منها ، كما أن معرفة النار تقتضينا الحذر منها مع استخدامها لصالح الحياة . فالنار لا بد منها لحياة البشر كذلك النفس فى أهميتها وضرورتها ، فمن لم يتق شر نفسه كما يتقى شر النار أحرقته كما تحرق النار الحطب ، ولأن عمل النفس هو القضاء على الإنسان من ناحيته المعنوية جعل الله النار عذاباً لها فكما تدين

---

(١) جعلها كالوثن فى التعظيم .

تدان . ولربما كان هذا هو السر فى تعذيب الإنسان بالنار لأن حرارة الشهوات أشد من حرارة النار ؛ فمن احتملها فى الدنيا وقاه الله منها يوم القيامة . ومن أطلقها تأكل من معنوياته وحقائق إنسانيته عذب بالنار التى هى منها : ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ .

وللعلم أقول : إنه ليس مطلوباً منا القضاء على نفوسنا قضاء مبرما بالقتل والانتحار وما شابه ذلك من التضييق والتشديد والمنع والحرمان . كلا . فالنفس مطيتنا وهى وسيلتنا وعمادنا حيث لا حياة إلا بها . وقد أمرنا بتهذيبها وترويضها ليكون منا ما يصلح حالنا حالا ومآلا من الأعمال الصالحة التى يترتب عليها مرضاة الله وسعادتنا . فإن متاع الحياة الدنيا قليل . ومن هنا نعلم أن جهاد النفس وسيلة لا غاية ، وبداية لا نهاية . وأن ربك كل يوم هو فى شأن . شئون يبديها ولا يبتديها فما يقع اليوم غير ما يقع بالأمس . قد يكون مثله . وللنفس تقلباتها وتطوراتها فإن أطاعت اليوم وانقادت قد تتمرد فى الغد ، وإن خضعت لأمر لا تخضع لغيره . وهكذا الجهاد وسيلة لا غاية وبداية ليس لها نهاية . ومن هنا نعلم سر فلاح المجاهدين فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله . فإن المجاهد يبذل أقصى جهده لمخالفة النفس الحريصة على الحياة حين يقدم على الجهاد بالسيف ، فإذا ما توفاه الله أثناء جهاده فهو من الشهداء الأحياء الذين هم عند ربهم يرزقون . لأنه مات مخالفاً لنفسه مطيعاً لربه وخالقه . فإذا عاش فقد قطع شوطاً فى القرب إلى الله اكتسب به حياة جديدة ورزقاً جديداً . وهكذا يزداد قرباً إلى الله بجهاده فى سبيله سواء توفاه الله أم أبقاه . ومن هنا نعلم أن العبرة بمخالفة النفس رغبة فى إعلاء كلمة الله على كلمة النفس ورغبتها الشديدة فى الحياة . وللعلم أقول إن سبب الذين يقتلون فى سبيل الله راجع إلى إيثارهم طاعة الله على طاعة النفس وقد وقع لهم القتل وهم فى حالة يرضى الله بها عليهم ؛ ولذلك فضلوا وميزوا على القاعدين الخاملين من المؤمنين لما اكتسبوه من الحياة والرزق نتيجة مخالفة النفس ومعارضتها . فاللهم اجعلنا من المؤمنين المجاهدين فى سبيله ظاهراً وباطناً قولًا وعملًا ، صدقاً وإخلاصاً .

إخوانى :

إن المطلوب منا معالجة أمراض النفس بشتى الوسائل والحيل حيث القضاء عليها محال والتخلص منها مستحيل ، وليعلم إخوانى أن معرفة النفس لابد منها حيث لا خلاص من شرورها إلا بمعرفة دائها ودوائها . قال تعالى : ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى** ﴾ ولتعلموا أن النفس بمقتضى حرصها على الحياة تحرص على أسبابها فإذا تيسرت لها الحياة زهدت الأسباب إليها ولو إلى حين ، كما هو شأنها فى الزهد عن الفضلات والفتات . ولما كانت الحياة بيد الله فالمؤمن الحق الصادق الإيمان بالله واليوم الآخر يسقط حساب النفس فيما يتعلق بنظرها إلى الحياة التى هى من الله . ولذلك ينظر إلى الأسباب كلها بعين الله بما فى ذلك من أعمال الطاعة والعبادة . فلا يركن إلى عمل ، ولا يستند على شىء حيث اعتماده على الله واستناده إليه : ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ ﴿ **وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ فمن أسند حياته إلى الله تبارك وتعالى باعتبارها منه وإليه وفق توفيقاً تاماً فى القضاء على النفس وشهواتها بصورة محسوسة ملموسة . حيث تقف النفس فى هذه الحالة عند فهم الأشياء على حقيقتها فلا تجزع ولا تفزع من البلاء ، ولا تعجب ولا تغتر بالأعمال التوسلية التى حكمها عند الله . ومن بلغ هذا بنفسه طابت حياته واطمأنت نفسه حيث انتهى أمره إلى الله . فلا اعتماد على شىء ، ولا استناد إلى مخلوق . ﴿ **يَـٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِى فِى عِبَادِى * وَادْخُلِى جَنَّتِى** ﴾ .

النفس المطمئنة : هى التى سكنت إلى الله إيماناً به وتصديقاً له كما أخبر عن نفسه سبحانه . فلا يكون تصور ولا تخيل ولا افتئات من جانب النفس الأمارة . ومتى انتهت النفس إلى هذا النوع من الشعور والإحساس أخذت طريقها إلى الحق فى كل شىء وفى كل ما هو منها ووقفت عند حدها فى معرفة الحقائق التى لابد منها . ولذلك ترجع إلى الله بأعمالها راضية بحكمه وقضائه فيما كان وفيما سيكون مرضية عليها منه سبحانه بواقع عبوديتها وامتثالها لأمر الله . وتدخل الجنة بأعمالها . فى الآخرة جزاء وفاقاً .

المَوْتُ يَنْقُل المُؤمِنَ مِنْ عَالَمِ الاخْتبَارِ إلى عَالَمِ الثَّوابِ والنَّعيمِ

أخى :

إن عمق الإحساس بصولة الحق . أو بالحق وصولته مع مقابلته بالباطل وتفاهته . مضافاً إلى هذا نقص النفس وغرورها وتمردها عليه مع قوة الإيمان به واستجابتها للباطل بالانقياد والامتثال مع الإيمان بالخسار والهلاك فى العمل بالباطل يحيرّ الألباب ويدهش العقول ، ويرغم المؤمن على الفرار من نفسه مع اتهامها بالتزوير والتضليل ، ولذلك تجد الواحد منا يقول الحق فيما يعلم ويدرك ثم يتهرب من الانتساب إليه . والادعاء به حياء من الله الذى لا تخفى عليه خافية . ولا يعزب عنه مثقال ذرة . وهكذا أخى حياة المؤمن بيْن شِقَّى الرّحى إلى أن يلقى الله ربّه فلا حول ولا قوة إلا بالله . أخى : لا تعجب ولا استغراب من بكاء المؤمن وضراعته . ولجوئه إلى ربه . وخالقه . فإن الحق مُرّ . ولكنه مرىءٌ . والباطل خفيف ولكنه وبىء ثقيل . ومن هنا نعلم أن التمسك بالحق أشد على النفس من قبض الجمر باليد . والاحتراق به فإن تألم النفس بالحق موصول وتألمها بالجمرة محدود . ولولا فضل الله ورحمته ما تمسك متمسك ولا آمن مؤمن فالحمد لله والشكر له .

أخى :

إن الباطل الذى لا باطل فوقه أن يركن المؤمن إلى الدنيا ناسياً أو متناسياً آخرته: مسقطاً للموت من حياته وفكرته . والإنسان منا مريض بحصر الهّم والتفكير فى الحياة الضرورية يرجوها ويتأملّها فى أضيق حدودها ونطاقها وفى الموت والخشية منه باعتباره قاضياً على هذه الحياة التى يحبّها ويميل إليها .

وقد علمت أخى وسيدى : أن ذكر الموت يجب أن يعيش فى ذهن المؤمن بحيث يكون أشد تذكراً له من المريض المدنف والعليل المتعب ؛ لأنه يعيش فى

جوه بأعماله وأحواله . ويسبح فى عالم الغيب بقلبه وروحه . فهو فى حضرة الموت أبداً ذاكراً له ومستعداً ، وقد علمت أخى وسيدى أن ذكر الموت الذى لا يقدر عليه غيره سبحانه ينبّه ويلفت إلى الحياة ضده . فكما لا يقدر على الموت غيره كذلك لا يقدر على الحياة سواه . فإذا اكتمل اليقين بقدرته على الحياة والموت تأثرت النفس وانقادت لأمر المحيى المميت بمقتضى حرصها على الحياة الحبيبة إليها . فهكذا أخى يعالج المؤمن نفسه بنفسه وشعوره بشعوره . وإحساسه بإحساسه . فإن النفس إن لم تعالج داءها بدوائها لا تعالج ولا تثوب إلى الرشد . أما ما تسمعه من الغير فإنه مجرد تذكير . وللعلم أقول إن ذكر الموت فرض علينا فى اليوم خمس مرات . ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً** ﴾ فالصلاة من أعمال الآخرة من حيث القصد وهكذا ذكر الموت . فإذا لم يكن الاستعراض للآخرة خلالها لا يكون الخشوع فيها ولا الإحساس بها . ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ** ﴾ وقد علمت أخى أن الموت أول منازل الآخرة من حيث العمل لها . فالعبرة بالعمل الذى يحمل على ذكر الموت . فإذا كان ذكر الموت لا يحمل على أعمال الآخرة فلا قيمة للذكر ، ولا أجر للعرض . ومن هنا نعلم السر فى عدم استفادة الكثير من الناس بذكر الموت وتذكره وخاصة (التُّربيَّة) الذين يباشرون دفن الأموات والمواراة عدة مرات فى اليوم . وقد علمت أخى أن من تذكر الموت فى صلاته أحسنها ولو بقدر لما لها من الصلة به وما بعده من الوقت .

وختاماً أقول : إن الله تبارك وتعالى جمع فى الذكر بين الحياة والموت لما لهما من صفة الاقتران . وفى ذلك إشارة إلى الجمع بينهما فى الإحساس والشعور . فكما يذكر الإنسان حياته الواقعة عليه يذكر الموت الذى يقضى على هذه الحياة الواقعة فى الوقت الذى يريد الله . ﴿ **قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ ﴿ **الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** ﴾ أخى للحق : نوره وناره . فمن لم يحترق بناره لا يجد نوره ولا يستضىء به . اللهم ارزقنا الحق . وارزقنا اتباعه . وأرنا الباطل باطلًا

وارزقنا اجتنابه . « فإنا لله وإنا إليه راجعون » وللعلم أقول : إن النفس بمقتضى طبيعتها تفر من كل ما هو حق رغم وقوع الإيمان به أو تميل إلى الباطل وتستأنس به رغم إيمانها بنتائجه وبطلانه « والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على اللهِ الأمانى » . أو كما قال .

وقد سئل رسول الله ﷺ عن الكيس فأشار إليه بهذا الحديث . ولذلك قال : هل تدرون أى الناس أكيس ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال : « أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم له استعداداً . قالوا يا رسول الله . هل لذلك من علاج ؟ قال نعم : التجافى عن دار الغرور . والإنابة إلى دار الخلود . فإذا دخل النور فى القلب انفسح واتسع للاستعداد قبل نزول الموت » . أو كما قال .

فانظر أخى إلى الأسباب التى ترغم النفس على قبول الحق ، والعمل به حيث لا طريق إليه سوى ما ذكر فى هذا الحديث وغيره . ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا** ﴾ أعاذنا الله وإياكم من النار وما قرب إليها من قول أو عمل . ﴿ **إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى** ﴾ .

وقد علمت أخى أن تذكير النفس دائماً بالموت يحدد إقامتها . ويفسد ملذاتها وشهواتها . ومن هنا نعلم السر فى إصابة الله عباده بالأمراض والأسقام . ولماذا يكفر بها الذنوب والسيئات ويمحو بها الخطايا والآثام . فالمرض أخُ الموت وهو عنوانه ودليله . فالمصاب به لا ينفك عن ذكر الموت . بل يتصوره فى كل لحظة . من لحظاته . فيفزع إلى الله ويلجأ إليه مجرداً من حوله وقوته . وفى هذه الحالة لا يكون للنفس شأن من شئون شهواتها وحظوظها . ومتى ما بلغت النفس هذه المرحلة من الشعور والإحساس فالصدق دأبها ، والإخلاص حياتها . ولهذا يكفر الله سيئاتها بالمرض .

وقد علمت أخى أن الحياة ساحة الموت يترتب عليها استفراغ النفس من الدنيا بحيث لا يكون ثمة تفكير فى شأن من شئونها سوى الحياة فى أضيق

نطاقها . فالمريض لا يفكر إلا فى الحياة فقط . أما الشهوات والحظوظ والمال والجاه وما إلى ذلك من الكماليات فإنه لا ينظر إليها ولا يذهب بقلبه عليها . ولما كانت الحياة المطلقة لا غبار عليها . ولا مانع من العمل لها علّها تكون وسيلة إلى طاعة الله وعبادته . فالله تعالى لا يؤاخذ عباده على التفكير فيها والأخذ بأسبابها . وربما يؤجرهم عليها إذا كانت نتيجتها صالحة نافعة . ولما كان أمر المريض محصوراً فى الحصول على هذا اللون من الحياة ؛ فهو فى كنف الله ورحمته ينظر الله إليه بعين الرضا والمغفرة .

وقد علمت أخى أن الفرار من الموت طبيعة النفس ولذلك لا يؤاخذ الله عبده على الفرار الشرعى الذى هو من طبيعة النفس : ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾ فالعلاج من الأمراض فرار فى صورة دفاع أو دفع فى صورة فرار . والأكل والشرب توَقٍّ فى صورة فرار وطلب للحياة بصفة عامة مع شدة الرغبة فيها فراراً من الموت . ولما كان الموت أمراً لابد منه فالفرار منه لا يجدى ولا ينفع إلا إذا كان واقعاً من الإنسان بمقتضى طبيعته وجبلته وقد عرف الصادقون ذلك معرفة توازى وتزيد على معرفتهم بالحياة العزيزة على النفس ولذا حصروا الفرار من الموت فى حدود الطبيعة النفسية والجبلّة البشرية . وتجردوا بأعمالهم الدالة على التصديق بالموت قال تعالى : ﴿ **فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ .

وقد علمت أخى أن التمنى للموت من الصادقين ليس معناه الطلب والرغبة والسعى إلى الانتحار أو الحصول على الموت : كلا وألف كلا : إنما هو قراءته على النفس وتذكيرها به ، وحضّها على صالح الأعمال بذكره واستعراض ما بعده . فإن الصدق فى الإيمان يقتضى النظر إلى الموت كما هو الشأن فى النظر إلى الحياة حيث هما سواء بالنسبة لقدرة الله وإرادته قال تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ لماذا لم يتمنوه ؟ لأنهم غير أولياء الله . والدليل على عدم ولايتهم لله ما قدمت أيديهم من الأعمال والأفعال والله عليم بالظالمين أمثالهم .

وقد علمت أخى أن كلمة التمنى فى اللغة القراءة وتمنى الكتاب قرأه قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ ويقال هذا شيء رويته أم شيء تمنيته . وفلان يتمنى الأحاديث أى يفضلها . وأعلم أخى أن من تولاه الله فتولى ذكر الله والتعرف إليه أخلص وصدق . ومن صدق قرأ الموت على نفسه بمعنى تذكره وتذكر ما بعده بالأعمال . والأفعال والأقوال . فالمراد بالتمنى الحياة فى حيزّه والعيش فى كنفه كأنه الحىّ الميت ، والميت الحىّ مع الأحياء ببدنه وجسمه . ومع الأموات بقلبه وروحه فإن التمني من أعمال القلب والروح . ومن هنا نعلم أن التمنى للموت معناه استغراق الحياة كلها فى الأعمال التى تجعله حياة جديدة كأنه لا موت إنما حياة لها معناها ومغزاها . ومن معانى تمنى الموت الاستئناس بالجزاء والثواب والنعيم الأبدى الذى هو مفتاح الموت . فإن الموت ينقل المؤمن من عالم الابتلاء والاختبار إلى عالم الثواب والنعيم . فالتمنى خاص بعالم النعيم لا بذات الموت الذى تكرهه النفس وتنفر منه . ومن هنا نعلم أن من علامات الصدق تمنى الموت لما بعده . وفقنا الله وإياكم إلى ما يحبه ويرضاه بمنه وكرمه .

* * * *

من دلائل الإيمان المبادرة إلى التوبة

أخي وسيدى :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد .. فليعلم أخى وسيدى أن الحياة من حيث هى عبارة عن حركة نامية مستمرة سواء للسائلين ، فمن آمن بالله ورسوله واليوم الآخر تحوَّل بها إلى ما يكسبه حياة أفضل فى الدنيا والآخرة إيمانا بالله الذى خلق هذه الحياة فى الدنيا ، ووعده الثواب عليها فى الدار الآخرة ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ ، وكما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . وعليه أقول لأخى : إن لله على عبده أمرا أمره به ، وقضاء يقضيه عليه ونعمة ينعم بها عليه ، فلا ينفك عن هذه الثلاثة أبدا . وللعلم أذكر لأخى أن بعض الصالحين قال كلاما طيبا أعجبت به كل الإعجاب فالحمد لله . قال رضى الله عنه : «أراد بنا ، وأراد منا ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراد بنا عمّا أراد منا » فعلى هذا الأساس ليس لنا أن نشتغل بما أراد بنا بل علينا أن نشتغل بما أراد منا ، والله هو الموفق للصواب . وللعلم أذكر لأخى أن القضاء نوعان : إما مصائب ، وإما معايب . ولله على عبده عبودية فى هذه المراتب كلها فأحب الخلق إليه سبحانه من عرف عبوديته فى هذه المراتب كلها فوفّاها حقها ، فهذا أقرب الخلق إليه . وأبعدهم من جهل عبوديته فى هذه المراتب فعطّلها علما وعملا . أعاذنا الله وإياكم من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فعبوديته فى الأمر امتثاله إخلاصا واقتداء برسول الله ﷺ ، واجتناب النواهى خوفا منه وإجلالا ومحبة . فعلى هذا الأساس يجب حصر الاتجاه كله

والقصد جميعه نحو هذا الهدف السامى دون نظر إلى هواجس النفس وتقلباتها والتوجّس من المستقبل دون نظر إلى كيد الشيطان ووسوسته .

- أما العبودية فى قضاء المصائب فتكون بالصبر عليها ، ثم الرضا بها وهو أعلى درجة ثم الشكر عليها وهو أعلى من الرضا ، وهذا إنما يتأتى من المؤمن إذا تمكّن حبّ الله من قلبه فحينئذٍ يعلم حسن اختيار الله له وبِرّه به ولطفه وإحسانه إليه بالمصيبة وإن كرهها بحكم بشريته ـــ وعبوديته فى قضاء المعايب المبادرة إلى التوبة منها والتنصّل مما فعله وأن يقف على باب ربه فى مقام الاعتذار إليه والانكسار خجلا مما فعل ، عالما بأنه لا يرفعها عنه إلا هو ، ولا يقيه شرها سواه ، وأن المعصية إن استمرت أبعدته من القرب من ربه وطردته من بابه فيراها من الضرّ الذى لا يكشفه غيره ، فهو عائذ برضاه من سخطه وبعفوه من عقابه وبه منه ، مستجير وملتجىء منه إليه ، وأنه لا سبيل إلى الإقلاع إلا بالتوفيق من الله وإعانته ، وأن ذلك بيده سبحانه لا بيد العبد ، فهو أعجز وأضعف وأقل من أن يوفق نفسه أو يأتى بمرضاة ربه بدون إذنه ومشيئته وإعانته ، فهو ملتجىء إليه متضرع ذليل مسكين ، يعلم يقينا أنه لا خير فيه ولا له ولا به ولا منه ، وأن الخير كله لله وفى يده وبه ومنه ، فهو سبحانه ولى نعمته ومبتدئه بها من غير استحقاق ومُجْريها عليه مع تمقت العبد نفسه بإعراضه عن ربه وغفلته ومعصيته . فانظر أخى وتدبر ، وقل رب زدنى علما .

- واعلم أخى وسيدى أن الله تبارك وتعالى قد استأثر بالمحامد والمدح والثناء ، وولّى العبد الملامة والنقائص والعيوب « كل ابن آدم خطاء . وخير الخطائين التوابون » أو كما قال . وأما عبودية النعم فمعرفتها والاعتراف بها أولا ثم العياذ أن يقع فى قلبه نسبتها أو إضافتها إلى ما سوى الله عز وجل ، وإن كان سببا من الأسباب فهو سبحانه مسببه ومقيمه ، فالنعمة منه سبحانه بكل وجه واعتبار . قال تعالى : ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ** ﴾ . ومقتضى العبودية فى النعم الثناء على المنعم ومحبته عليها وشكره سبحانه بأن يستعملها فى طاعة خالقه ، قال رسول الله ﷺ : « أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم ، وأحبونى لحب الله لى » أو كما قال . فانظر أخى وتدبر ، وقل رب زدنى علما .. ومن لطائف التعبد بالنعم أن يستكثر قليلها عليه ،

ويستقل كثير شكره عليها ، ويعلم تماما أنها وصلت إليه من سيده من غير ثمن بذله فيها ، ولا وسيلة منه توسل بها إليها ، ولا استحقاق منه لها ، وأنها لله فى الحقيقة لا للعبد ، فلا تزيده النعم إلا انكسارا وذلا وتواضعا ومحبة للمنعم ، وكلما جدّد له نعمة أحدث له عبودية ومحبة وخضوعا وذلا ، وكلما أحدث له قبضا أحدث له رضا ، وكلما أحدث ذنبا أحدث له توبة وانكسارا واعتذارا ، فهذا هو الكيّس ، والعاجز بمعْزِلٍ عن هذا وبعد . قال تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . والتوبة هنا شاملة لجميع المعانى والصفات : امتثال أوامره سبحانه توبة ، واجتناب نواهيه توبة ، وشكره على النعم توبة ، والصبر على المصائب والمعايب توبة ، والإقلاع عن الذنوب توبة ، والدعاء والضراعة توبة ، وما إلى ذلك .. والله الموفق .

فاعلم أخى وسيدى أن الله سبحانه وتعالى قد أمر العبد بأمر ، وضمن له ضمانا ، فإن قام بأمره بالنصح والصدق والإخلاص والاجتهاد قام الله سبحانه له بما ضمنه من الرزق والكفاية ، والنصر وقضاء الحوائج ، فإنه سبحانه ضمن الرزق لعبده إذا عبده ، والنصر لمن توكل عليه واستنصر به ، والكفاية لمن كان هو همّه ومراده ، والمغفرة لمن استغفره ، وقضاء الحوائج لمن صدقه فى طلبها ووثق به وقوى رجاؤه وطمعه فى فضله وجوده ، فالفطن الكيس إنما يهتم بأمره وإقامته وتوفيقه ، لا بضمانه فإنه الوفىّ الصادق ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ﴾ فانظر أخى وتدبر ، وقل رب زدنى علما . فاعلم أخى وسيدى أن الله على كل شىء قدير ، وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير ، وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه ، وأنه أعلم بمصلحته من العبد وأقدر على جَلْبها منه ، وأنصح للعبد من نفسه ، وأرحم به منه . فإن أبى العبد إلا تدبيره لنفسه واختياره لها واهتمامه بحظه دون حق ربّه خلّاه وما اختاره ، وولاه ما تولى ، فحضره الهمّ والغمّ ، والنكد والحزن والخوف ، والتعب وكسف البال ، وسوء الحال ؛ فلا قلب يصفو ، ولا عمل يزكو ، ولا أمل يحصل ، ولا راحة يفوز بها . أعاذنا الله وإياكم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . قال بعض الصالحين : أهل الآخرة ثلاث : عابد ، وزاهد ، وصديق . فالعابد يعبد الله مع العلائق ، والزاهد يعبده على ترك العلائق ، والصديق يعبد

الله على الرضا والموافقة ؛ إن أراه أخذ الدنيا أخذها ؛ وإن أراه تركها تركها .
وأخيرا إلى اللقاء . استودعكم الله والسلام عليكم ورحمة الله .

* * * *

الإخلادُ إلى الشَّهَواتِ والانغماسُ فى المَلذّات

أخى :

لتعلم أن بين العبد وبين الله والجنة قنطرة تقطع بخطوتين : خطوة عن نفسه والثانية خطوة عن الخلق ؛ فيسقط نفسَه ويلغيها فيما بينه وبين الناس ، ويسقط الناس ويلغيهم فيما بينه وبين الله ، فلا يلتفت إلا إلى من دلّه على الله وعلى الطريق المَوصِّلة إليه . وللعلم أذكر لأخى وسيدى أن أصول المعاصى كلها ، كبارها وصغارها ثلاثة : أولا : تعلق القلب بغير الله ــ ثانيا : طاعة القوة الغضبية ــ ثالثا : طاعة القوة الشهوانية ، وهى الشرك ، والظلم ، والفواحش . فغاية التعلق بغير الله شرك وأن يدعو مع الله إلها آخر ، وغاية طاعة القوة الغضبية القتل ، وغاية تعلق القوة الشهوانية الزنى ؛ ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة فى قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَـٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ** ﴾ وهذه الثلاثة يدعو بعضها إلى بعض فالشرك يدعو إلى الظلم والفواحش ، كما أن الإخلاص والتوحيد يصرفهما عن صاحبه . قال تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ فالسوء : العشق وغير ذلك . والفحشاء : الزنى . وكذلك الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة ، فإن الشرك أظلم الظلم ، كما أن أعدل العدل التوحيد ، فالعدل قرين التوحيد ، والظلم قرين الشرك ، ولهذا جمع الله بينهما ، أما الأول ففى قوله سبحانه : ﴿ **شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ** ﴾ وأما الثانى فكقوله سبحانه : ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ والفاحشة تدعو إلى الشرك والظلم ، ولاسيما إذا قويت إرادتها ولم تحصل إلا بنوع من الظلم ، وقد جمع الله بينهما (بين الشرك والزنى) فى قوله تعالى : ﴿ **الزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً والزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِك وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى**

الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . فهذه الثلاثة يجر بعضها إلى بعض ويأمر بعضها ببعض ؛ ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيدا وأعظم شركا كان أكثر فاحشة وأعظم تعلقا بالصّور وعشقاً لها . فانظر أخى وتدبر ، وقل رب زدنى علما .. وقد علمت أخى وسيدى أن السبب فى فطام النفس عن الشهوات المباحة المراد به الحد من طغيانها خشية استرسالها فى المحرمات ، وعليه أذكر لأخى وسيدى أن من يجد المشقة فى ترك المألوفات والعوائد مَنْ تركها لغير الله . أما من تركها صادقا مخلصا من قلبه لله عز وجل فإنه لا يجد فى تركها مشقة إلا فى أول وهلة ليمتحن أصادق هو أم كاذب ، فإن صبر على تلك المشقة قليلا استحالت لذة ، وقد قال بعض العارفين : « من ترك لله شيئا عوضه الله خيرا منه » والعوض أنواع مختلفة ، وأجلّ ما يعرف به الأنس بالله ومحبته ، وطمأنينة القلب به ، وقوة نشاطه وفرحه ورضاه عن ربّه تعالى . فاعلم أخى وسيدى أنه لا طريق للشيطان على المؤمن إلا من ثلاث جهات : أحدها التزيّد والإسراف ، فيزيد على قدر الحاجة فتصير الزيادة فضلة وهى حظ الشيطان ، ومدخله إلى القلب . وطريق الخلاص منه : الاحتراز من إعطاء النفس تمام مطلوبها من غذاء أو نوم أو لذة أو راحة ، فمتى ما أغلقت هذا الباب حصل الأمان من دخول العدو . الثانية : الغفلة ، فإن الذاكرة فى حصن الذكر فمتى غفل وفُتِحَ باب الحصن فولجه العدو فيعسر أو يصعب عليه إخراجه . الثالثة : تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء . والله المستعان . فاعلم أخى وسيدى أن اللذة الدنيوية ، أياً كان نوعها مطلوبة للإنسان ، بل ولكل كائن حى ، فلا تذم من جهة كونها لذة ، وإنما تذم ويكون تركها خيرا من نيلها وأنفع إذا تضمنت فوات لذة أعظم منها وأكمل ، وأعقبت ألما حصوله أعظم من ألم فواتها ، فهنا يظهر الفرق بين العاقل الفطن والأحمق الجاهل ، فمتى عرف العقل التفاوت بين اللذتين والألمين وأنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر هان عليه ترك أدنى اللذتين والألمين لتحصل أعلاهما ، واحتمال أيسر الألمين لدفع أعلاهما . وإذا تقررت هذه القاعدة فلذة الآخرة أعظم وأدوم ، ولذة الدنيا أصغر وأقصر ، وكذلك ألم الآخرة وألم الدنيا ، والمعوّل فى ذلك على الإيمان واليقين ، فإذا قوى اليقين وباشر القلب آثر الأعلى على الأدنى فى جانب اللذة ، واحتمل الألم الأسهل على

الأصعب . وبالله التوفيق . وللعلم أذكر لأخى وسيدى أن الجهل بالطريق وآفاتها والمقصود بها يوجب التعب الكثير مع الفائدة القليلة ، فإن صاحبه إما أن يجتهد فى نافلة مع إضاعة الوقت والفرصة أو فى عمل بالجوارح لم يواطئه عمل القلب أو عمل بالباطن والظاهر ولم يتقيد بالاقتداء ، أو همة إلى عمل لم ترق بصاحبها إلى ملاحظة المقصود أو عمل لم يحترز من آفاته المفسدة له حال العمل وبعده ، أو عمل غفل فيه عن مشاهدة المنّة ، فلم يتجرد عن مشاركة النفس فيه ، أو عمل لم يشهد تقصيره فيه فيقوم بعده فى مقام الاعتذار منه ، أو عمل لم يوفه حقه من النصح والإحسان ، وهو يظن أنه وفّاه كله ، فهذا وغيره مما ينقص الثمرة مع كثرة التعب .

فاعلم أخى وسيدى أن بدن ابن آدم خلق من الأرض ، وروحه من ملكوت السماء ، وقد قرن الله بينهما ، فإذا أجاع بدنه وأسهره ، وأقامه فى الخدمة وجدت روحه خفة وراحة فتاقت إلى الموضع الذى خلقت منه ، واشتاقت إلى عالمها العلوى ، وإذا أشبعه ونعّمه ونومه ، واشتغل بخدمته وراحته أخلد البدن إلى الموضع الذى خلق منه فانجذبت روحه إلى الجسد واستغاثت منه كما يستغيث المعذب ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ ﴿ يَـٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ صدق الله العظيم .

وعليه أقول لأخى وسيدى إنه كلما خف البدن لطفت الروح وخفّت . ترى الرجل روحه فى الرفيق الأعلى وبدنه عندك فيكون نائما على فراشه وروحه عند سدرة المنتهى تجول تحت العرش ، وآخر واقف فى الخدمة ببدنه وروحه فى السفلى تجول حول السفليات ، فإذا فارقت الروح البدن التحقت برفيقها الأعلى أو الأدنى ، فعند الرفيق الأعلى قرّة كل عين وكل نعيم وسرور وبهجة وفرحة ولذة ، وحياة طيبة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا

تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ، وعند الرفيق الأسفل كل همّ وضيق وغمّ وحزن ، وحياة نكدة ومعيشة ضنكا . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ . فاعلم أخى وسيدى أن الشهوة دواؤها صحة العلم والمعرفة بأن إعطاءَ النَّفسِ شهواتها أعظم أسباب حرمانها ، ومنعها منها أعظم أسباب اتصالها بخالقها ، فكلما فتحت على النفس باب الشهوات والملذات كنت ساعيا فى حرمانها ، وكلما أغلقت عليها ذلك الباب كنت ساعيا فى اتصالها على أكمل الوجوه . والمراد بالشهوة كل ما يتعلق برغبات النفس . فاعلم أخى وسيدى أن الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد ، والعوائق والعلائق ، والعوائد هى السّكون إلى الدعة والراحة ، وما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التى جعلوها بمنزلة الشرع المنيع ، أما العوائق فهى أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها لأنها تعوق القلب عن سيره إلى الله وتقطع عليه طريقه وهى ثلاثة : شرك ، وبدعة ، ومعصية . فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد ، وعائق البدعة بتحقيق السنة ، وعائق المعصية بتصحيح التوبة . وهذه العوائق لا تتبين للعبد حتى يأخذ فى أُهْبة السفر ويتحقق بالسير إلى الله والدار الآخرة ، فحينئذ تظهر له هذه العوائق ، ويحس بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر ، وإلا فما دام قاعدا لا يظهر له كوامنها وقواطعها . وأما العلائق فهى كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياستها ، وصحبة الناس والتعلق بهم . ولا سبيل إلى قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأسمى ، وإلا فقطعها عليه بدون تعلق بالله ممتنع ؛ فإن النفس لا تترك مألوفاتها ومحبوباتها إلا لمحبوب أشد وأحب إليها وآثر عندها ، وكلما قوى تعلق القلب بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره ، وكذا بالعكس : والتعلق بالمطلوب أعنى شدة الرغبة فيه ، وذلك على قدر معرفته وشرفه وفضله على ما سواه . وقد علمت أخى وسيدى أن لذة كل أحد على حسب قدره وهمته وشرف نفسه ؛ فأشرف الناس نفسا ، وأعلاهم همة ، وأرفعهم قدرا مَنْ لذته فى معرفة الله ومحبته ، والشوق إلى لقائه ، والتودّد إليه بما يحبّه ويرضاه ، فلذّته فى إقباله عليه ، وعكوف همته عليه . ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله حتى تنتهى إلى مَنْ

لذّته فى أخسّ الأشياء من القاذورات والفواحش فى كل شيء من الكلام والفعال والأشغال ، فلو عرض عليه ما يلتذ به الأول لم تسمح نفسه بقبوله ولا التفات إليه ، وربما تألمت من ذلك ، كما أن الأول لو عرض عليه ما يتلذذ به هذا لم تسمح نفسه ، ولم تلتفت إليه ، بل نفرت منه نفسه . وأكمل الناس لذّةً من جُمِع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن ؛ فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة ، ولا يقطع عليه لذة المحبة والمعرفة والأنس بربّه تعالى ، فهذا ممن قال تعالى فيه : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾ وأبخسهم حظا مِن اللذة مَن تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة ، فيكون ممن يقال فيهم ويقال لهم يوم استيفاء اللذات ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا** ﴾ فهؤلاء تمتعوا بالطيبات وأولئك تمتعوا بالطيبات ، ولكنهم افترقوا فى وجه التمتع : أما الفريق الأول فلقد تمتعوا بها على الوجه الذى أذن الله لهم فيها ، فجُمع لهم بين لذة الدنيا ولذة الآخرة . والفريق الثانى تمتعوا بها على الوجه الذى دعاهم إليه الهوى والشهوة ، سواء أذن لهم أم لم يؤذن ، فانقطعت عنهم لذة الدنيا ، وفاتتهم لذة الآخرة ، فلا لذة الدنيا دامت لهم ، ولا لذة الآخرة حصلت . فمن أحب اللذة ودوامها والعيش الطيب فليجعل لذة الدنيا موصلة إلى لذة الآخرة بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله وإرادته وعبادته فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة على طلبه لا بحكم مجرد الشهوة والهوى ، وإن كان ممن زويت عنهم لذات الدنيا وطيباتها فيجعل ما نقص منها زيادة فى لذة الآخرة ، ويجشم نفسه هجرها بالترك ليستوفيها كاملة هناك ، فطيبات الدنيا ولذاتها نعم العون للعبد لمن صح طلبه لله والدار الآخرة وكانت همه لما هناك ، وبئس القاطع النازع من الله والدار الآخرة فمن أخذ منافع الدنيا على وجه لا ينقص حظه من الآخرة ظفر بهما جميعا ، وإلا خسرهما جميعا . وختاما أقول لأخى وسيدى : إن العارف بالله لا يأمر الناس بترك دنياهم لأنهم لا يقدرون على تركها ، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم ، فترك الدنيا فضيلة وفضلة ، وترك الذنوب فريضة ، وكيف يؤمر بالفضيلة من لم يُقم الفريضة ؟؟ . العارف بالله يدعو الناس إلى الله من دنياهم فتسهل عليهم

الإجابة . والزاهد يدعوهم إلى الله بترك الدنيا فتشق عليهم الإجابة ؛ فإن الفطام عن الثدى الذى ما عقل الإنسان نفسه إلا وهو يرتضع منه شديد ، ولكن تخيّر من المرضعات أزكاهن وأفضلهن ، فإن للّبن تأثيرا فى طبيعة المرتضع .

أخى يكفى هذا القدر بتوفيق الله وإعانته . والسلام عليكم ورحمة الله .

* * * *

المؤمن طالب الهداية دائما

مع طرف من أسرار قوله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ صدق الله العظيم

أخى : إن مما علمت إلى هذه اللحظة من الوقت ، وفوق كل ذى علم عليم ، أن الهادى بحق هو الله وحده ، ولذلك لا نهاية للهداية ، فالمؤمن الحق ينتقل من هداية إلى هداية ، ويرحل بهداية إلى هداية إلى أن يلقى ربه وهو فى الطريق إليه : ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

وفى الحديث القدسى : كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم ، أو كما قال . وعلى هذا الأساس من العلم أقول لأخى وسيدى إن التعريف بالهداية الصحيحة هو أقصى ما يكون من نفع الأخ لأخيه ، والله هو الهادى إلى الصراط المستقيم . فانظر أخى وسيدى إلى وظيفة الطبيب ورسالته بالنسبة للمريض الذى يلجأ إليه مؤمنا به مستسلما له صادقا فيما يعرض عليه من أمراضه وأسقامه وأحواله ، راضيا بتوجيهاته وإرشاداته ، عاملا بها على قدر استعداده وطاقاته . فكذلك الشأن أخى وسيدى بين الأخ وأخيه إذا تعارفا على سلوك الطريق إلى الله والاهتداء بهديه . وقد تكرر فى القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال ، فيقوم القلب والجوارح بأعمال تقتضى الهداية اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأثره ، وكذلك الضلال ، فأعمال البر تثمر الهدى ، وكلما ازداد منها ازداد هدى ، وأعمال الفجور بالضد ؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى يحب أعمال البر فيجازى عليها بالهدى والفلاح ، ويبغض أعمال الفجور ويجازى عليها بالضلال والشقاء ، وأيضا فإنه يُحب البَرّ ويحب أعمال البرّرة ، فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البرّ ،

ويبغض الفجور وأهله فيبعد قلوبهم منه بحسب ما قاموا وما اتصفوا به من الفجور ، فمن الأصل الأول قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۚ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وهذا يتضمن أمرين : **أحدهما** : أنه يهدى من اتقى مساخطه قبل نزول الكتاب، فإن الناس على اختلاف مللهم ونحلهم قد استقر عندهم أن الله سبحانه يكره الظلم والفواحش والفساد فى الأرض ، ويمقت فاعل ذلك ، ويحب العدل والإحسان والجود والصدق والإصلاح فى الأرض ، ويحب فاعل ذلك ، فلما نزل الكتاب أثاب سبحانه أهل البر بأن وفقهم للإيمان به جزاء لهم على برهم وطاعتهم ، وخذل أهل الفجور والفحش والظلم بأن حال بينهم وبين الاهتداء به . **الأمر الثانى** : أن العبد إذا آمن بالكتاب واهتدى به مجملا ، وقبل أوامره وصدق بأخباره كان سببا ذلك لهداية أخرى تحصل له على التفصيل ؛ فإن الهداية لا نهاية لها ، ولو بلغ العبد فيها ما بلغ ، ففوق هدايته هداية أخرى ، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير نهاية ، فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى فهو فى مزيد من الهداية ما دام فى مزيد من التقوى ، وكلما فوّت حظا من التقوى فاته حظ من الهداية بحسبه ، فكلما اتقى ازداد هدى ، وكلما اهتدى ازداد تقوى ، قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ﴾ فهداهم أولاً إلى الإيمان ، فلما آمنوا هداهم بالإيمان هداية بعد هداية ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذى يفرقون به بين الحق والباطل . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ . وللعلم أذكر لأخى وسيدى أن مبنى الدين على قاعدتين : الذكر والشكر . قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ وقال النبى ﷺ لمعاذ : والله إنى لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة : « اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان بل الذكر

القلبى واللسانى ، فذكر اليوم باللسان مع الصدق والإخلاص ينتهى بالذاكر إلى الذكر القلبى . وذكره سبحانه يتضمن ذكر أسمائه وصفاته ، وذكر أمره ونهيه ، وذكره بكلامه ، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به ، وبصفات كماله ونعوت جلاله ، والثناء عليه بأنواع المدح والثناء ، وذلك لا يتم إلا بتوحيده ، فذكره الحقيقى يستلزم ذلك كله ، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه . وأما الشكر فهو القيام بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهرا وباطنا . وهذان الأمران هما جماع الدين ، فذكره مستلزم لمعرفته ، وشكره متضمن لطاعته ، وهذان هما الغاية التى خلق لأجلها الجن والإنس والسموات والأرض ، ووضع لأجلهما الثواب والعقاب ، وأنزلت الكتب وأرسل الرسل ، وهو الحق الذى به خلقت السموات والأرض وما بينهما ، وضده هو الباطل والعبث الذى يتعالى ويتقدس عنه ، وهو ظن أعدائه به . قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ فثبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر أن يُذكر سبحانه ويشكر ، يُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يكفر .. وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره ، شاكر لمن شكره ، فذكره سبب لذكره ، وشكره سبب لزيادة فضله ، فالذكر للقلب واللسان ، والشكر للقلب محبة وإنابة ، وللسان ثناء وحمدا ، وللجوارح طاعة وخدمة . فانظر أخى وتدبر ، ولا تشغل بالك بضعفك وعجزك ، وقصورك وتقصيرك فإنك على أى حال ضعيف ، وعلى أى صورة مقصّر ، وعلى أى وضع عاجز مفتقر إلى ربّك وخالقك ، فاذكره بلسانك كثيرا وإن لم يتواطأ مع قلبك ، والله يتولاك ويرعاك .. فالحمد لله والشكر له !

وللعلم أذكر لأخى وسيدى أن الله أخبر عن آياته المشهودة العيانية لينتفع بها أهل الصبر والشكر كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنية لينتفع بها أهل التقوى والخشية والإنابة ، ومَن كان قصده اتباع رضوانه ، قال تعالى : ﴿ طَهَ * مَا

﴿ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ وقال فى بيان الساعة : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ وأما من لم يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها فلا تنفعه الآيات الحيانية ولا القرآنية . أعاذنا الله وإياكم من الكفر والضلال ، ومن شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ولا يفوتنى فى هذا الصدد أن أقول لأخى : إن الإيمان ينبنى على الصبر والشكر ، فنصفه صبر ونصفه شكر ، فإن رأس الشكر التوحيد ، ورأس الصبر ترك إجابة داعى الهوى ، فإذا كان مشركا متبعا هواه لم يكن صابرا ولا شكورا فلا تكون الآيات نافعة له ولا مؤثرة فيه إيمانا . فاعلم أخى وسيدى أن الهدى والرحمة وتوابعهما من الفضل والإنعام كله من صفة العطاء ، والإضلال والعذاب وتوابعهما من صفة المنع ، وهو سبحانه يصرف خلقه بين عطائه ومنعه ، وذلك كله صادر عن حكمة بالغة . قال تعالى : ﴿ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

فى هذه الآية الكريمة عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد ، فإذا علم العبد أن المكروه قد يأتى بالمحبوب ، والمحبوب قد يأتى بالمكروه لم يأمن من أن تواتيه المضرة من جانب المسرّة ، ولم ييئس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب ؛ فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد ، حيث أوجب له أمورا كثيرة وبيّنها ومنها : أنه لا أنفع له من امتثال الأوامر وإن شق عليه فى الابتداء لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع ، وكذلك لا شيء أضر عليها من ارتكاب النهى وإن هَوِيَتْه نفسه ومالت إليه لأن عواقبه كلها آلام وأحزان ، وشرور ومصائب ، وخاصة المنطق العقلى يقول : تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير ، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم الطويل والشر العظيم . ولكن نظر الجاهل لا يجاوز المبادىء إلى غاياتها ، والعاقل الكيس دائما ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها فيرى ما وراء الستور من الغايات المحمودة والمذمومة ، فيرى المناهى كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل ، فكلما دعته لذته إلى تناولها نهاه ما فيه من السمّ ، ويرى الأوامر كدواء كريه المذاق لكنه مفض إلى العافية والشفاء ،

وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله أمره نفعه بالتناول ، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم ، وإذا قوى يقينه وصبره هانت عليه كل مشقة يتحملها فى طلب الخير الدائم واللذة الدائمة . ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضى من العبد التفويض إلى من يعلم العواقب للأمور والرضا بما يختاره له لما يرجو فيه من حسن العاقبة . ومنها أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه ، ولا يسأله ما ليس له به علم ، فلعل مضرته وهلاكه فيه وهو لا يعلم فلا يختار على ربه شيئا ، بل يسأله حسن الاختيار له ، وأن يرضيه بما يختاره له ، فلا أنفع له من ذلك . ومنها أنه إذا تعرف إلى ربه ورضى بما يختاره له أمدّه فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر ، وصرف عنه الآفات التى هى عرضة اختيار العبد لنفسه ، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه . ومنها أنه يريحه من الأفكار المتعبة فى أنواع الاختيارات ، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التى تصادفه وتعرض عليه لأنه يرى أنه لن يخرج عما قدره له خالقه ولأنه لو رضى باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به ، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم ، غير ملطوف به فيه ، لأنه مع اختياره لنفسه ، ولكن العبد إذا ما فوض الأمر لربه ناله العطف واللطف ، فيصير بين عطف الله ولطفه ، فعطفه يقيه ما يحذره ، ولطفه يهوّن عليه ما قدره ، إذا نفذ القدر فى العبد فلا شىء أنفع للعبد من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدى القدر طريحا كالميتة ، فإن السبع لا يرضى بأكل الجيف . فانظر أخى وتدبر ، ودع عنك وساوس الشيطان وكيده وخواطر النفس . والله المستعان . فاعلم أخى وسيدى أن من فكر فى الآخرة وشرفها ودوامها ، وفى الدنيا وخستها وفنائها أثمر له ذلك الرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا ، وكلما فكر فى قصر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجد والاجتهاد ، وبذل الوسع فى اغتنام الوقت ، فالتخلف عن الكمالات إما من عدم البصيرة ، وإما من عدم العزيمة « فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » أو كما قال .. فاعلم أخى وسيدى أنه لا طريق للخلاص إلا بالرجوع إلى الله وحده .. تأمل فى قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ جمع فى هذا الدعاء بين

حقيقة التوحيد ، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ووجود طعم المحبة فى التملّق له ، والإقرار بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين ، والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته هو وفقره . ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه . قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ ... إلخ الآية الكريمة .. فانظر أخى وتدبر ، وقل رب زدنى علما .. قال تعالى :﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ فالله سبحانه عنده كل شيء ، والشيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ، وقد تضمنت الآية أن كل شيء عنده ، ومفاتيح تلك الخزائن بيده ، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه عبث وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ يفيد ويؤكد أن كل مراد إن لم يُرَدْ لأجله ويتصل به فهو منقطع مضمحل ، فإنه ليس إليه المنتهى وليس المنتهى إلا إليه سبحانه حيث انتهت الأمور كلها إليه : انتهت إلى خلقه ومشيئته وعلمه وحكمته ، فهو غاية كل مطلوب ، وكل محبوب لا يُحَبُّ لأجله فمحبته عناء وعذاب ، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل ، وكل قلب لايصل إليه فهو شقى محجوب عن سعادته وفلاحه ، فاجتمع ما يراد منه كله فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ واجتمع ما يراد له كله فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ فليس وراءه سبحانه غاية تطلب ، وليس دونه غاية المنتهى .

فاعلم أخى وسيدى أن القلب لا يستقر ولا يسكن ولا يطمئن إلا بالوصول إليه ، وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره ، وليس المراد لذاته إلا واحد ، إليه المنتهى ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين ، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين ، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه ، ومن كان انتهاء محبته ورغبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعيمه ولذته وسعادته أبد الآبدين .. هذا وقد علمت أخى أن العبد متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل ، فهو باستمرار محتاج بل مضطر إلى العون عند الأوامر ، وإلى اللطف عند النوازل ، فإن كمل القيام بالأوامر ظاهرا وباطنا ناله اللطف ظاهرا وباطنا . وإن قام بصورها دون حقائقها وبواطنها ناله اللطف فى الظاهر وقل نصيبه من اللطف فى الباطن . فإن قلت

وما اللطف فى الباطن ؟؟ قلت : هو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة ، وزوال القلق والاضطراب والجزع ، فيستخذى بين يدى سيده ذليلا مسكينا ناظرا إليه بقلبه ، ساكنا إليه بروحه وسره قد شغله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم ، وقد غيبه عن شهود ذلك البلاء معرفته بحسن اختياره له وأنه عبد محض ، يجرى عليه سيده أحكامه ، رضى أم سخط ، فإن رضى نال الرضا ، وإن سخط فحظه السخط ، فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة يزيد بزيادتها ، وينقص بنقصانها ، والله المستعان .

* * * *

أهمية الصـــلاة

أخى :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً ﴾ صدق الله العظيم . لقد عظمت بركة هذه الصلوات الخمس على المؤمنين . قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ ثم أعلمهم سبحانه قيمتها وأهميتها فقال بعد ذلك : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ثم افترضها على عباده وكتبها ، ووقت لها أوقاتها بعلمه وحكمته وتدبيره ، وجعلها فريضة مؤقتة مكتوبة وذلك ليلة أسرى بالنبى ﷺ ، ففرضها عليه وعلى أمته وكتبها ثم قال : « خمس بخمسين ، لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ » وسميت مكتوبة لأنها كتبت على العباد وكتبت لهم بخمسين ، ثم جعلها سبحانه عهدا للعباد عنده ، من أتى بها مستوفاة أدخله الجنة . وقد روى عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال : « قال ربكم من أتانى بهذه الصلوات الخمس كان له عندى عهدا أدخله الجنة » أو كما قال . فهذا العهد يخرج من الله تبارك وتعالى ، فى وقت كل صلاة إلى العباد إذا صلّوها . وفى الحديث الشريف : « أن لله ملَكاً يسمى سَمْحَائيل وهو من الملائكة الحجّاب يأخذ البراءات للمصلين عند كل صلاة من رب العالمين ، فإذا أصبح المؤمنون قاموا وتوضئوا وصلوا صلاة الفجر أخذ من الله عز وجل براءة لهم مكتوب فيها بخط الله الأول الباقى : عبيدى وإمائى : فى حِرْزى جعلتكم ، وفى ذمّتى وحفظى وتحت كنفى سيّرتكم ، فَوَعِزَّتى لا أخذلكم ومغفور لكم ذنوبكم إلى الظهر » أو كما قال .. وهكذا فى جميع الأوقات ، فهذه البراءات هى العهود التى يلقون بها ربهم يوم القيامة . والله الموفق والمعين . ويؤكد هذا المعنى حديث : « الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » أو كما قال . وللعلم أذكر لأخى أن صورة الصلاة من بين الأفعال وضعت إظهارا للعبودية ، وسببا لتطهير

الموحدين ، وسترا لمساوىء أعمالهم ، فصوّرت أفعالها على أفعال العباد لتقابل تلك المساوىء فتسترها ليقدم غدا على ربه مستورا ، وقد قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ فالعبد إنما خلق ليكون لله عبدا كما خلق فيثاب على كونه عبدا فيصير غدا حرًّا ، ويكون فى جوار الله ملَكاً ، خلق ليترك مشتهياته إيثارا لمرضاة الله فى أحواله ليسكنه غدا دارا له فيها ما اشتهت نفسه ، فإذا لم يثبت العبد ، وافتتن فيما ركب فيه من الشهوات فتكبّر ، وأطاع هواه ، ولَهَا عن وعْدِ الله ووعيده ، وعرض نفسه للعقوبة ثم دعى إلى الصلاة التى افترضت عليه قيل له : قم بين يدى ربك ملقيا ببدنك مسلما كالعبد الذى كان قد أبق من مولاه ثم جاءه فألقى ببدنه ثم عظم ربّك بالتكبير فإنك كنت قد اجترأت حيث أعطاك الجوارح وأمرك بحفظها ورعايتها فضيّعت الرعاية للأمانة فجئت الآن بها فجمعتها فى هذا الموقف لربك لتكون هذه حسنة تستر بها سيئتك ، فهكذا لكل فعل من أفعال الصلاة هدف مقصود ومعنى مخصوص فينصرف بالسلام من صلاة إنما هي محاسن قد أذهبت مساوئه ، فإن الله تبارك وتعالى شرف هذا الآدمى وكرمه فتَعَبُّده بصلاة جعل له فيها حظا من عبادة أهل كل سماء . وقد روى فى الخبر أن أهل سماء الدنيا فى سجود منذ خلقوا ، وأهل السماء الثانية فى ركوع منذ خلقوا ، وأهل الثالثة فى قيام منذ خلقوا ، وفى باقى السموات مثل ذلك من أفعال الصلاة ، ومنهم صفوف كلها قيام للتسبيح والثناء والاستغفار للموحّدين والبكاء عليهم رحمة لهم . ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ ... الآية .

فهكذا ترى أن الصلاة الواحدة للمؤمن فيها عبادة أهل كل سماء حتى توافى صلاته العرش فيصبح وقد أخذ بحظّه من عبادة أهل السموات كلها وأهل علّيين وحملة العرش فيصبح لصاحبها من الرحمة العظمى التى تتقسم على مَن تحت العرش إلى ما هو دون ذلك . وفى الحديث الشريف « ومن صلى الخمس فى جماعة فقد ملأ البحرين والبرّين عبادة » وقال : « الصلوات الخمس من لقى الله بهن لم ينتقص منهن شيئا غفرت له ذنوبه وإن كانت ملء الأرض » أو كما

قال . وللعلم أذكر لأخى ما قاله بعض الصالحين من عباده فى تفسير القبول : « القبول هو أن يصلى العبد صلاة تليق بحقّ الله » فإذا كان العمل لائقا كان مقبولا ، والقبول على وجهين : وجه منهما أن العبد يصلى ويعمل سائر الطاعات وقلبه معلق بالله ذاكر له على الدوام : فأعمال هذا العبد تعرض على الله حتى تقف بين يديه سبحانه فينظر إليها ، فإذا نظر إليها قبلها وهذا عمل المقربين . والوجه الآخر أن العبد يعمل الأعمال على العادة والغفلة وينوى بها الطاعة ، وقلبه لاهٍ عن ذكر ربّه وكذلك حاله فى الصلاة بهذه الصفة ، ومثل هذا العبد إذا رفعت صلاته لا تقف بين يدى الله ولا تقع نظرته عز وجلّ عليها فحينئذٍ توضع فى الخزائن لتعرض عليه يوم القيامة ، فهذا لم يتبين قبوله بعد ، فإن عرضت عليه ميّز ما كان له منها وتفضل سبحانه بقبوله فهناك يتبين القبول يوم الدين ، وصدق الله حيث قال : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ وأنت بهذا أيها الأخ الكريم تدرك مدى الفرق الواضح بين عمل المقربين وبين غيرهم ، حيث عمل المقرب فى وقت الفعل يُعرض فيُقبل ، وهذا معنى قول الرسول ﷺ . أنه لا يقبل صلاة امرىء الآن فى وقت الفعل لا أنه لا يقبل يوم القيامة . والناس فى الصلاة على أحوال كما قال بعض العارفين بالله : فمن الناس من يصلى فينقص من الوضوء والمواقيت والحدود والأركان ، ومنهم من يصلى محافظا على وضوئه ومواقيتها وحدودها بأركانها ، وقد ضيع تجاهدة نفسه فى الوسوسة ، ومنهم من يصلى محافظا على وضوئه ومواقيتها وحدودها وأركانها مشغولا بقلبه مع الله بحفظ هذه الحدود ومناجاته ، ومنهم من يصلى محافظا على وضوئه ومواقيتها وأركانها وحدودها مشغولا بربه قرير العين محافظا على حدودها ، فهذه أصناف عدة ، الصنف الأول منها معاقب ، والصنف الثانى محاسب ، والثالث مثاب ، والرابع مقرب . وهذا مأخوذ مما روى عن سيدنا رسول الله ﷺ حيث قال : « جعلت قرة عينى فى الصلاة » فمن قرت عينه فى الصلاة فلقربه من ربه حيث ينال منه عز وجل برًّا وعطفا وشفقة ، فمن قرت عينه بالصلاة فهو مثاب لأنه أحكمها وأدى فرضها فقرت بها اليوم عينه ، وغداً بثوابها يوم أن يلقى ربه ، فالمقْبلون على ربهم بقلوبهم هم المقرّبون ، وهم أهل جذبته وخاصته . جعلنى الله وإياكم من أهل خاصته فضلا

منه ونعمة . فالحمد لله والشكر له . وقد ورد فى الأثر أن الصلاة ثلاثة أثلاث : ثلث وضوء ، وثلث ركوع وسجود ، وثلث قراءة . فمن أتى بهن تامات قبلن منه وما سواهن من العمل ، ومن نقص واحدة منهن طويت صلاته كالثوب الخَلِق ثم ضرب بها وجه صاحبها فلا ترفع إلى الله . فاعلم أخى وسيدى أن ثقل هذه الأعمال ليس باشتغال الجوارح بالأعمال ولكن باشتغال القلوب ، فالذين اشتغلت قلوبهم بربهم وخلصوا أعمالهم لوجهه هم سادة الخلق ، وهو قول الرسول ﷺ ما معناه : « جعلت قرة عينى فى الصلاة » فلم يقل ﷺ بالصلاة ، وإنما قال فى الصلاة . فانظر أخى وتدبر . والله الموفق . فأعمال المرء توضع فى الخزائن . أما المقاصد فى الأعمال والنيات فهى التى تقع بين يدى الله ، وكلٌّ إنما يصل إلى قصده وإرادته إلى الله تعالى على حسب قوة قلبه : كالرماة ، إنما رمية الإنسان على قدر ساعده ، وصنعة قوسه ، وصلابة سهمه ، فكم من سهم يرميه صاحبه فيسقط فى الطريق ،فإن وصل فبعد مدة ، وإن استقبله شيء ولم يجد منفذا تراه يُقْهَر متراجعا ، ورب سهم قد اشتد ساعد صاحبه وله صلابة خرج من قوس منيع فلا يأتى على شيء إلا نفذ فيه حجرا كان أم حديدا حتى ينتهى منتهاه ، ويصل إلى غايته ويحقق هدفه . فكذلك القلوب على قدر اليقين وقوة الإيمان الذى فيه بمقدار إرادته ونيته فى الاتجاه إلى الله، فإن هناك حجبا تحتاج إلى نور نافذ حتى يخرق تلك الحجب ، وبين الأنوار تفاوت ، فالمحتظى من أى نور احتظى فقُرْبه على قدر ذلك ، فالصلاة نور وبرهان ، وحجة وإيمان ، كما أنها توبة واستغفار . قال تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ ولأنها كذلك مثّلها سيدنا رسول الله ﷺ بالنهر الجارى على الأبواب ووصفها بأنها عماد الدين ، شأنها بالنسبة لسائر الأعمال شأن الروح فى الأبدان ، لذا لم تجد ذكر الله فى موضع من التنزيل إلا مع ذكر إقامتها ، ولما بلغ ذكر المنافقين قال فى شأنهم : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ولم يقل عز وجل فى صلاتهم ، بل جاءت عن لتفيد المجاوزة والبعد عن الله بالرياء ، وسمى المؤمنين ووصفهم (المقيمين)

للصلاة ليعلمنا أن المصلين كثيرون ، والمقيمين قليلون ، كما قال سيدنا عمر رضى الله عنه فى شأن الحجيج : « الركب كثير ، والحاج قليل » . هدانا الله وإياكم سواء السبيل ، وجعلنا من المؤمنين الموقنين الذين على ربهم يتوكلون .

* * * *

خواطر نورانية مع قول الحق تبارك وتعالى :
﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ .... الآيات

أخى : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد .. فلقد سألتنى عن تفسير هذه الآية الكريمة ، ولكى نتعرض لها بإلقاء ضوء على ما اشتملت عليه من معان لابد لنا أن نتعرض ونذكر الآيات السابقة . قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ** ﴾ .... الآية .

إن هاتين الآيتين سابقتان للآية الكريمة التى أشرتم إليها فى خطابكم إلىّ ، وقد أشرت إليهما لما لهما من الصلة بالآية الكريمة ، فقد ذكر الله عز وجل خلقه للسموات والأرض بالحق ، ولما كان إبراهيم عليه السلام رسولا من الله إلى عباده ، وداعيا إليه ، لابد له من العلم والمعرفة التّامة الكاملة بالحق وصفاته وآثاره على مخلوقاته التى يراها ويشهدها المدعوون إليه وهم الذين يعيشون فى دائرة الملك ، وقد كشف الله لرسوله ما غاب عن هؤلاء ، من أسرار ربوبيته لتكون الدعوة إليه نافذة إلى قلوبهم وعقولهم فعالة بآثارها فى حياتهم فيؤمنون به سبحانه استجابة لدعوته التى جاءت إليهم من مالك الملك ذى الجلال والإكرام . فالملكوت أعظم من الملك باعتباره مصدر الملك والحقيقة التى ينبعث منها الملك : فالملك عالم الشهادة ، والملكوت عالم الغيب وما يتعلق بعالم الشهادة من أعمال الخلق ، وما يتعلق بعالم الغيب من أعمال الخالق : فالملكوت

كلمة جامعة لأسماء الله وصفاته وما كان وما سيكون من أمره تعالى : قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ : البدن من عالم الملك،والروح من عالم الملكوت ، قلب الإنسان من عالم الملكوت ، وجوارحه من عالم الملك ، ولذلك تكون رؤية الملكوت وشهوده من صفات القلب والروح والعقل : قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ ولما كان القلب هو محل اليقين فالرؤية التى حصلت لإبراهيم عليه السلام كانت بصيرية وإدراكية على أعلى مستويات العلم والمعرفة ، فلما تحققت له الرؤية تحققت معها المشاهدة البصيرية والمعانية الروحية فتعرض إلى ما فوق ذلك بالأسلوب الذى تعلّمه وشاهده طريقا وسلوكا إلى إعلاء كلمة الله ، وإقناع المجادلين والمعارضين وهدايتهم إلى صراط الله المستقيم ، وقد كانوا يعبدون الكواكب ويؤلّهونها ، فلو دخل عليهم بغير أسلوبهم لما عبئوا به ولا بدعوته .

فلما جن عليه الليل وقت ظهور هذه الكواكب وقف معهم محاذيا لهم ليحسبوه معهم أو مشاركا لهم فيما يعبدون فلما تراءى لهم الكوكب قال عليه السلام : هذا ربى . ولم يقل هذا ربكم لعلمه بأنه إذا قال ذلك نبذوه ولم يلتفتوا إليه ، فقال هذا ربى بلسانه وقلبه برّبه ومعه فى ملكوت السموات والأرض ، وقد كان هذا شأنه لا يقول لمخلوق مثله : ـــ هذا ربى ـــ وإن قال فإنما يقول مخاطبا ربّه الذى خلقه وسواه لأنه يعيش فى جو الملكوت الربانى الذى حجبه عن شهود كل ما سواه ، فالذين سمعوه ظنوا أنه ربّب هذا الكوكب الذى عبدوه مع العلم أن الإشارة منه كانت إلى ربه لا إلى الكوكب المعبود . فالعالم عالمان : روحانى وجسمانى ، وإن شئت قلت : حسّى وعقلى ، وإن شئت قلت : علوى وسفلى ، والكل متقارب وإنما يختلف باختلاف الاعتبارات فى العبارات ، فمن تكشفت له الحقائق جعل المعانى أصلا والألفاظ تابعا ، وأمر الضعيف بالعكس ، إذ يطلب الحقائق من الألفاظ . وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وللعلم أذكر لإخوانى أن العالم الملكوتى عالم غيب إذ هو غائب على الأكثرين ، والعالم الحسّى عالم شهادة إذ يشهده

الكافة ، والعالم الحسى مرقاة إلى العقلى ، فلو لم يكن بينهما اتصال ومناسبة لانسد الطريق إليه ، ولو تعذر ذلك لتعذر السفر إلى حضرة الربوبية والقرب من الله تعالى ، ولولا هذا الروح الذى نفخه فى الإنسان لما كان ثمّة اتصال ولا مناسبة بين العبد وربه فى التعرف عليه وسلوك الطريق إليه . قال تعالى : ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً** ﴾ ولما كان عالم الشهادة مرقاة إلى عالم الملكوت ، وكان سلوك الصراط المستقيم عبارة عن هذا الترقى ، وقد يعبّر عنه بالدين ، وبمنازل الهدى ، فلو لم يكن بينهما مناسبة واتصال لما كـان الترقى من أحدهما إلى الآخر ، فالله الذى وسعت رحمته كل شيء خلق العالمين ، وخلق الإنسان من روح وبدن ليكون منه الإيمان به والتعرف عليه . قال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ فجعلت الرحمة الإلـٰهية عالم الشهادة على موازنة عالم الملكوت ، فما من شيء من هذا العالم إلا وهو مثال لشيء من ذلك العالم ، وربما كان للشيء الواحد من عالم الملكوت أمثلة كثيرة من عالم الشهادة ، ومن الأمثلة مطلق الحياة فى الدنيا ، ومثلها فى الآخرة . قال تعالى : ﴿ **وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ وكذلك الشأن فى الجنة ومتاعها بالنسبة للدنيا وما فيها من المتاع ، ففى عالم الملكوت جواهر نورانية شريفة علوية تعرف بالملائكة تفيض بالأنوار على الأرواح البشرية ويكون لها مراتب فى نورانيتها متفاوته فبالحرى أن يكون مثالها من عالم الشهادة الشمس والقمر والكواكب والسالك للطريق يتدرج أولا وينتهى إلى ما درجته درجة الكواكب .

وكذلك يترقى فى الأنوار حتى ينتهى إلى ما مثاله الشمس فيراه أكبر وأعلى ، ولكنه قابل للزوال ، فمن يقول غير خليل الله بعد هذا : ﴿ **وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ .

والله سبحانه منزه عن كل مناسبة ، وهو الحق ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . وقد سئل الرسول ﷺ عن نسب الله فأنزل الله سبحانه : ﴿ **قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ** ﴾ ... السورة . فالتقدس والتنزه عن النسبة نسبته ، ولذلك لما قال فرعون لموسى عليه السلام ﴿ **وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ كالطالب

للماهية لم يجبه عليه السلام إلا بتصريفه بأفعاله : إذ كانت الأفعال أظهر عند السائل فقال : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فقال فرعون لمن حوله : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ كالمنكر عليه فى عدوله فى جوابه عن طلب الماهية ، فقال موسى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ فنسبه فرعون إلى الجنون . وقد وصف الله رسوله بالسراج المنير يعنى بذلك روحه الذى هو من عالم الملكوت . وقد انتهى بهم الخليل إبراهيم عليه السلام إلى الشمس التى تعتبر من أكبر الكواكب المرئية لمن فى عالم الشهادة وقد أفلت ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ثم انتقل بعد هذا إلى بيان الحقيقة التى تكشفت له فدعاهم إلى معرفة الله وعبادته وذلك بقوله : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وقد علم الناس بعد هذا البيان مراد إبراهيم عليه السلام فى قوله : هذا ربى . وعلم المؤمنون أنه تنزل بلسانه إلى مستوى الجاهلين من فوق عبادة الكواكب إلى عبادة الله ، وأن هذا التنزل بأمر الله الذى أراه ملكوت السموات والأرض . قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ولما تكشف الأمر وظهرت الحقيقة واضحة جلية حاجّه قومُه . قال تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئاً وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

أخى لقد تبين بعد هذا المراد بالملكوت ، ووضح التأويل ، ووضح معنى الرؤية والمقصود بها ومنها . والله أعلم بمراده ، وفوق كل ذى علم عليم .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * * *

﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾

صدق الله العظيم

من وحى الآية الكريمة كتب رضوان الله عليه ونفعنا بعلمه يقول :

هذا الحكم يفيد ويؤكد ويقطع أن هذا الضعف لن يزول عن الإنسان ، ولن يتخطاه مهما بلغ من أسباب القوة ، وجمع من معانيها والدواعى إليها : حيث الضعف صفته الأصلية بل هو الصفة الملازمة له التى لا تنفك عنه ؛ ولما كان الضعف صفة الإنسان وحقيقته الوجودية فلا شيء يمده بالقوة من المخلوقات أيا كان حيث لا موضع للقوة فى تركيبه ، ولا محل للإمدادات المقوية فى ذات نفسه الضعيفة ، فالمحاولة منه لتقوية هذا الضعف الطبيعى عبث وهراء ، وضلال وهباء ، فالله الذى خلقه وسواه خلقه كذلك ، فلا تغيير ولا تبديل لخلق الله . وقد علمت أخى وسيدى أن شعور الإنسان بهذا الضعف فيه هو السبب الأول فى حمله على تلمس المقويات والأسباب إليها ؛ ولذلك يستنفد كل قواه الإنسانية فى سبيل الحصول على القوة الموهومة التى لا يمكن الحصول عليها والبلوغ إليها حسبما يتصور ويتوهم ويفتنه الشيطان الموكل به . قال تعالى : ﴿ **قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً** ﴾ فانظر أخى إلى معانى هذه الآيات وتدبرها ، وقل رب زدنى علما . انظر أخى إلى ما ذكر الله من أسباب القوة حيث يتوهم الإنسان ويتصور ، وانظر إلى الشيطان كيف يَعد ؟ وبم يعد ؟ ﴿ **وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً** ﴾ . ثم انظر رحمك الله إلى قوله عز وجل : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ لا حجة ولا برهان لأنهم أسلموا نفوسهم إلىّ ، وفوّضوا أمرهم إلىّ وتوكلوا علىّ : لما درجوا عليه من

صفات العبودية التى لا حول لها ولا قوة ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ وكيلاً لهؤلاء لأنهم شعروا بضعفهم فظهروا بفقرهم إلى ، وافتقارهم علىّ : ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ . وقد علمت أخى وسيدى أن الإنسان إذا رجع بهذا الضعف إلى الله الخالق البارىء تولّاه الله وقوّاه ؛ فلا يكون ثمة شعور إلى الاستقواء بما تتوهم النفس وتتخيله من الأسباب والمسببات ، وهذا شأن العارفين بالله من الأولياء الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون / وقد علمت أن ولاية المؤمن على قدر حساسيته بالضعف ، ولذلك يتفاوت المؤمنون فى الدرجات ويتباينون فى المنازل والمقامات على حسب الشعور والإحساس ، والذوق والوجدان . وقد علمت أخى وسيدى أن الله تبارك وتعالى فضلا منه ورحمة بيّن لعباده كيفية الرجوع إليه ، وطريق الوصول إليه لئلا يكون للناس على الله حجة ، فلله الحجة البالغة ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ اقصدوا ربكم بالطاعة والعبادة والامتثال والانقياد ، فإنكم عبيده وهو مالككم ، فالرب هو المالك ، والعبد هو الخادم ، والعبادة الطاعة ، والتعبد : التنسّك والعبودية الذل والخضوع فالرب هو الذى خلقكم ضعافا لذلك ، وخلق الذين من قبلكم ، وقد ثبت ضعفهم برجوعهم إليه ، وهم كارهون الموت عاجزون عن الرد والمقاومة ، لعلكم تتقون بهذه العبادة شر أنفسكم لما لها من أثر التعرف إليه سبحانه ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ فاذكرونى بضعفكم أذكركم بقوتى ، اذكرونى بفقركم وافتقاركم أذكركم بقدرتى وغناى ، اذكرونى بجهلكم أذكركم بعلمى ، اذكرونى بذنوبكم البشرية الضعيفة أذكركم برحمتى ومغفرتى ، اذكرونى بكافة صفاتكم البشرية الضعيفة أذكركم برحمتى وأفضالى ، اذكرونى بجميع صفات ربوبيتى لكم وعليكم أذكركم بآثارها وأفعالها فإنى على كل شىء قدير ، وبالإجابة جدير : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ

الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ .

الدعاء عبادة ، والعبادة دعاء ، الدعاء ذكر ، والذكر دعاء . وقد علمت أخى أن العبرة بذكر الله عبده لا بذكر العبد ربه ، فذكر العبد وسيلة ، وذكر الله لعبده غاية ، العبد يتوسل بالذكر ، والرب يتولى العبد بالفيض . قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ اذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ذكرى إياكم حيث ذكرى إياكم نعمة وفضل ورحمة ولا تكفرون : أى لا تنكرون ولا تجحدون هذه النعم عليكم سواء باستخدامها فيما لا يرضينى عليكم أو بإغفالها عن التقرب بها إلىّ ، أو بنسبتها إلى أنفسكم وإلى ذكركم إياى ، فإن ذكركم إياى محدود لأنكم ضعفاء ، وذكرى لكم ممدود لأنى قوى متين عليم حكيم ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ استعينوا على ضعفكم البشرى بحبس أنفسكم عن الفزع والجزع ، وذلك بالصلاة التى بمعنى الدعاء والابتهال والضراعة واللجوء إليه سبحانه فإن الله بصفات ربوبيته مع الصابرين ، استعينوا على كسب الإيمان بالله بالصبر على ما تكره نفوسكم الضعيفة ، وبالصلاة التى بمعنى الصلة بالله ، استعينوا بالصبر عن المعاصى ، وبالصبر على الطاعات والعبادات ، وبالصبر على نيل الثواب ، وقبض الأجر ، وبالصبر على المصائب والبلايا التى تضيق بها نفوسكم الضعيفة ، فإن الله تبارك وتعالى مع الصابرين بالثواب والنعيم المقيم ، ومعهم بالفتوحات الربانية ، وبالفيوضات الإلـٰهية ، ومعهم بما يسد الفراغ البشرى من الأسباب والمسببات ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وقد علمت أن قوله تعالى مخاطبا الذين آمنوا : « استعينوا » بما ذكر من الصلاة والصبر دليل قاطع على ثبوت الضعف وعجز الإنسان وتقصيره ، وإشارة واضحة إلى أن علاج هذا الضعف محصور فى احتمال المكاره ، وتحمل المشاق ، وفى الطاعة والعبادة التى أولاها بالذكر الصلاة بمقتضاها الشرعى ، وبواقعها الحقيقى ، فالصلاة صلة بين العبد والرب . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى

الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ وقد ذكر الله أن الاستعانة بالصبر والصلاة لكبيرة إلا على الخاشعين ، ثقيلة شاقة لا تحتملها إلا النفوس الخاشعة المتواضعة الذليلة ، النفوس المستسلمة لأمر الله الراضية بحكمه وقضائه ، الراغبة الراهبة . فالخشوع : التواضع والخضوع وما إلى ذلك من صفات العبودية الصادقة الخالصة ، وقد علمت أن قوله سبحانه : ﴿ وإنها لكبيرة ﴾ : إشارة واضحة إلى مدى ما تنطوى عليه النفس من صفات العظمة الاستقلالية ، ومن خصال الطغيان البشرى حيث يشق عليها ويثقل طلب المعونة من الله بتعاطى التكاليف الشرعية ، ولذا قال تعالى : ﴿ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ وفى هذا البيان إشارة إلى أن الاستعانة خفيفة بالنسبة للخاشعين كبيرة بالنسبة للمتكبرين . أعاذنا الله وإياكم من الكبر والتكبر والعُجب والغرور . وقد علمت أخى أن واجد الكفاءة فى نفسه لا يستعين بغيره ، والشاعر بالقوة لا يمد يده إلى من سواه ، والمستغنى عن الشىء لا يجدُّ فى الأسباب إليه ، ولذلك فهو فى حلّ منه لأنه ليس فى حاجة إليه ، وقد أمرنا الله بالاستعانة بعامة وبخاصة لما يعلم من ضعفنا البشرى ، وحدد سبحانه صفات الاستعانة بالصبر والصلاة ، وهذا القول ينفى الاستعانة بغيرهما ، أى لا استعانة إلا بالصبر والصلاة ، فمن طلبها بغير الصلاة والصبر فقد ضل الطريق إلى الله . قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

أخى : قلنا إن الإنسان ضعيف .. ضعيف جدا ، ولشدة ضعفه يتعذر عليه ضبط شهوته والتحكم فى أهوائه وحظوظه ، وهو يعلم يقينا أن هذا فساد وضلال ، وسوف يعذب بها فى النار ويخلد فيها مهانا ، ولشدة ضعفه يقبل على الدنيا ويتهافت عليها تصورا منه أن وفرة الأسباب وكثرة المتاع متمم لنقصه مقوٍّ لضعفه مسعد لحياته الحاضرة ، والغريب أنه يؤمن بفناء الدنيا وزوالها ولكن ضعفه يحول بينه وبين الوقوف عند حد ، ولشدة ضعفه يعجز ويقصر عن تحمل البلايا والمصائب ولذلك يفزع ويجزع بصورة متعارضة مع دعوى العقل والفهم ، ولشدة ضعفه يفر من الطاعات وينفر من العبادات لأنه لا

يحتملها ولا يجد القوة على الاستئناس بها لأنه عجول ، وخلق الإنسان عجولا ، والطاعات والعبادات أجورها مؤجلة ، وثوابها مؤخر ، وهو لضعفه لا يحتمل الصبر إلى الآجل ، فهكذا أخى خلق الإنسان ضعيفا ، القليل من السَّراء يفرحه ويطغيه ، ويسره ويغريه ، والقليل من الضراء يعكر صفوه ويخلط مزاجه ، ويفسد تفكيره ، ويعطل عقله . ولما كان الله الذى خلقه وسواه يعلم ذلك منه وهو العليم الحكيم ، الرءوف الرحيم ، الحكم العدل ، اللطيف الخبير ، جعل لهذا الداء دواء ، وخلق لهذا المرض علاجا وشفاء . قال تعالى : ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾ ولما كان الصبر من أصعب الأمور على الإنسان ومن أمرّ المحتملات عليه حيث هو أشد أثرا من البلاء الذى تقتضيه المصيبة وتدعو إليه . قال تعالى :

﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ ولولا هذه المعية الربانية ما صبر صابر ولا تصبّر متصبّر ، فالحمد لله والشكر له . ومن هنا نعلم أن الاستعانة بالصبر تكسب المعية الربانية فورا ، قال رسول الله ﷺ : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » أو كما قال . وقد علمت أخى أن ملازمة الضعف للإنسان فى جميع أطوار حياته تقتضيه ملازمة الصبر فى جميع أطوار حياته حيث الصبر على كل ما تكره النفس وتضيق منه وبه : صبر عن المعصية ، صبر على الطاعة ، صبر على المصائب والبلايا ، صبر على حرارة الشهوات وما إلى ذلك من أهواء النفس ، فإن كل ما يصدر من الإنسان خيرا أو شرا ، نفعا كان أو ضرا ، مفتقر إلى الصبر وعلى الصبر ، فلا حول ولا قوة إلا بالله . وقد ذكر الله الصبر أولا لأنه من أعمال القلب ومن صفة القلب ، فلا دخل للجوارح فيه ولا صلة لها به ، ثم ذكر الصلاة باعتبارها مشتركة بين القلب والجوارح والأعضاء ، ومن هنا نعلم أن أثر الصبر فى القلب يظهر على الأعضاء بكيفية الصلاة ، فالصلاة فى عالم الشهادة دليل على الصبر فى عالم الغيب ، حيث القلب غيب ، والرّب غيب ، والأجر على الصبر فى الغيب . قال الله تعالى مشيرا إلى أن الجزاء على الأعمال التى مصدرها القلب ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ ولم يقل المصلين ، لأن الصلاة قد تكون بلا صبر ، وهى الصلاة التى أشار إليها ربنا سبحانه بقوله تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن**

صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ أما الصلاة التى هى وليدة الصبر وجنينه هى التى ذكرها الله بقوله : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ ومن هنا نعلم أن الصلاة صلاتان : صلاة الصابرين التى تحصل بها الاستعانة ، وصلاة الساهين المنقطعة الصلة بالسماء ، هى الصلاة الأرضية التى لا يعرج بها المصلى إلى مولاه ، هى الصلاة التى تربط الإنسان بالإنسان فى ثنايا الرياء والشرك ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ لقد كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة حيث الصلاة مفتاح العبودية ، وهى الباب الذى يدخل به العبد إلى ربه ، ولذلك أمر الله بالاستعانة بالصبر ثم الصلاة ؛ لأن الصبر يورث الثبات واليقين ، والطمأنينة والاستقرار ، وينتج منه الرضا والتسليم بقضاء الله وقدره ، وبعد ذلك يكون الاتصال بالصلاة حيث يكون الاستعداد تاما ومهيأ للدخول والمعراج والوصول ، فالحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ومن هنا نعلم أن الصبر تهيئة ، والصلاة إقبال ، والصبر صفة ، والصلاة سعى ، والصبر غذاء والصلاة هضم ، والصبر رضا والصلاة تسليم ، والصبر طرق للباب والصلاة فتح للباب .

وقد علمت أخى أن الصبر والصلاة فى اقترانهما كالشهادتين فى اقترانهما .. أشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمداً رسول الله ، فلا تصح الأولى إلا بذكر الثانية ، وكذلك لا قيمة للصلاة ولا وزن لها إذا لم يكن صبر ، ولا استعانة بالمعنى الحقيقى إلا بالجمع بينهما كما ذكرهما الله فى الآية الشريفة مقترنين ، وكذلك الشأن فى الحكم على الصلاة والزكاة ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .

وقد علمت أخى أن الاستعانة لا تتحقق إلا بالصبر . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فالاستقامة تتضمن الصبر

ضمنا حيث لا استقامة بلا صبر لأن الاستقامة معناها الاتجاه إلى الله كلا وجزءا ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .والاستقامة هى القصد بالعمل إليه سبحانه والاستقامة أساسها الصبر ، يشير إلى هذا قوله تعالى : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ فإن انتظار التنزل لابد له من صبر وتوقعه يحمل على اكتساب الصبر . وفوق كل ذى علم عليم ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . وقد علمت أخى أن قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ يفيد أن هذه المعية تكسب الاستقامة وتحققها ، فالله المستعان والشكر له . ومن هنا نعلم أن الطريق الأول فى كسب مرضاة الله ، وفى اكتساب معية الله فى كل الأوقات واللحظات بالصبر ثم بالصلاة بمعناها الشرعى ثم بمعناها اللغوى لتحقق الضراعة والابتهال والدعاء والخشوع والخضوع ، وما إلى ذلك من صفات العبودية وخصالها .

أخى : قال الله تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ ثم قال : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ ثم قال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ * أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ ثم قال : ﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ فانظر أخى إلى ما وصف الله به هذا الإنسان وإلى شتى التركيبات التى عليها قوام إنسانيته ، فوالله إنه لعجيب وإنه لغريب مخلوق هذه صفاته فلا شبيه له فى سائر خلق الله ، وحيد فريد من نوعه فلا نظير له : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ . فانظر أخى وتدبر ، وقل رب زدنى علما . وأحسبنى قد ذكرت ما يحضرنى من الآيات التى وصف الله بها هذا الجنس الإنسانى الذى ينحصر فى : أنا ، وأنت ، ومن على شاكلتنا من الإنس ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

أخى : إن الله الذى خلق الإنسان بهذا الشكل من الأوصاف ، وبهذا النوع من الطباع والأشكال كلفه بطاعته ، وأمره بعبادته ، ودعاه إلى معرفته . قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ . ومن هنا نعلم أن كل ما ذكره الله عن هذا الإنسان ووصفه به هو السبيل وهو الطريق إلى عبادته

وطاعته ، والتعرف عليه ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ لها أجر ما كسبت من الأعمال الصالحة بمقتضى صفاتها الخيرية ، وعليها وزر ما اكتسبت من الأعمال السيئة بمقتضى صفاتها البشرية ، وقد فرق الله فى القول بين الكسب والاكتساب ، باعتبار أن الكسب ثوابه مؤجل والاكتساب ثوابه معجل ، فالكسب صفة ، والاكتساب اتّصاف ، الكسب فعل ، والاكتساب افتعال ، فللنفس أجر كسبها ، وعليها وزر اكتسابها ، حيث الكسب فطرى ، والاكتساب تكلفى ، الكسب ممدود ، والاكتساب محدود ، فالحسنة باعتبارها من كسب الفطرة تنمو وتضاعف ، والسيئة بواحدة لأنها اكتساب ، فالكسب جزاؤه من الله ، والاكتساب جزاؤه من النفس ، وهذا هو الفرق ، وفوق كل ذى علم عليم .

وقد علمت أخى أن المطلوب من هذا الإنسان الموصوف أن يتجه إلى ربه بخير هذه الصفات ولكن الشيطان العدو المبين يكاد يتجه به إلى شر هذه الصفات وإلى ما يحقق هلاكه ، والحرب سجال ، والله ولى التوفيق . وقد علمت أن الله تبارك وتعالى أمرنا بالاستعانة به حيث الانتصار على الشيطان لا يكون إلا بالله ، فالاستعانة منمية لملكات الخير فى طبيعة المؤمن ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا . وقد علمت أن المؤمن كلما ازداد علما بحقيقته الإنسانية وازداد يقينا بطبيعته البشرية فرّ إلى الله العلى القدير ، ونظر إلى من بيده الأمر اللطيف الخبير . قال تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ فالمؤمن الحق الصادق الإيمان بالله ، كلما ازداد قربا إلى ربه وتقربا إلى خالقه ازداد علما بنفسه ، فمن هداية إلى هداية ولا نهاية للهداية ، والله يتولى الصالحين من عباده .

فاعلم أخى أن الأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة يفيد ويؤكد مدى ضعف الإنسان ، ومدى ما هو معرض له من الأخطار ، وليس ثم خطر من الله ، ولكن النفس بمقتضى ضعفها تتصوّر الأخطار وتفزع منها ؛ فإنها لا تريد أن تُمسّ قط ، ويجب أن يكون كل شىء على مزاجها وحسب هواها ؛ ولذلك تتألم من كل ما يضايقها ، ولأنها كذلك حيث خلقها الله على هذا الوضع أمرنا

بالاستعانة على ضعفها بالصبر والصلاة ، ولما كان الأمر مطلقا يستفاد منه أن الضعف كذلك مطلق ، وقرن الصبر فى الذكر بالصلاة يفيد فرضيته كما هو شأن الصلاة ، ولأن الصبر من الأعمال اليومية كما هو شأن الصلاة جمع الله بينهما فى الذكر ، ولم يقل استعينوا بالصبر والزكاة ، أو غيرها من المفروضات .. فتدبر .

ولما كانت الصلاة صلة بين العبد والرب وعروجا من الأرض إلى السماء يريد الله أن يكون الصبر على شاكلتها من حيث الامتثال والاحتساب ، فالصلاة خشوع وتذلل ، فكذلك الصبر يكون على هذه الصورة ، والاستعانة به على الشدائد ، فالاستعانة معناها طلب العون من الله ، وطلب العون منه عز وجل لا يكون إلا بشهود الضعف ، فالضعف على أى حال موجود ، والإنسان لا يخلو من الشعور ، ولكن المطلوب التعرض به إلى الله القوى ، والتعرض معناه اللجوء إليه والاستعانة به ليخفف البلاء ، ويهوّن على النفس أمرها بحيث يسهل عليها الاحتمال مقابل الإيمان بالأجر المقدر ، والتوفية المرتقبة : ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ فالحمد لله . فالصلاة أيها الأخ تجرد من الدنيا وخروج من المألوفات ، وكذلك الصبر ينتصب به المؤمن أمام ربّه فيستقيم عليه مجردا من التعاليل ، لو كنت وكنت فإن لو تفتح باب الشيطان ، فالصلاة فرض لابد منه ، وكذلك الصبر ، ولذلك قال الرسول ﷺ : « لا إيمان لمن لا صبر له » وللعلم أقول : إن الصبر الاضطرارى شأنه شأن الصلاة العادية التى لا أثر لها فى تهذيب النفس ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ** ﴾ ... الآيات . واعلم أخى أن الصبر عصب الإيمان حيث لا قوام لشىء ما لم يكن له عصب . والرضا الذى يعقب الصبر هو روحه .. روحه .. روحه .. وحياته ونوره ، فلا إيمان لمن لا صبر له ، ولا معرفة لمن لا رضا له ، ولا محبة لمن لا معرفة له ، ولا فناء لمن لا محبة له ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ** ﴾ . فها قد رجعنا إلى الأصل الذى هو الاتباع والاقتداء ، ولكن بصورة قوية ، وإحساس عميق ، وروح أصيل ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ .

أخى : يتهيأ لى أن حروف الكلمة (الصبر) تتضمن الآتى : الصاد : صدق ، والباء : بر ، والراء : رضا . كما أن كلمة (آمن) تتضمن الآتى : الألف : الله ، الميم : محمد ، النون : النور ، الذى هو الكتاب (القرآن) . وما علينا ، ليس هذا موضوعنا .. أخى : إن الصبر مفتاح الخير ، ولذلك يبتلى الله عبده المؤمن بما يفقره إلى الصبر من الأسباب والدواعى ، وقد علمت أن حياته كلها مفتقرة إلى الصبر ، والصبر أقسام كما تقدم : صبر عن المعاصى ، صبر على الطاعات بمعنى التجرد من رؤيتها ، وصبر على الطاعات أيضا بمعنى التفويض إلى الله فيما لها وعليها ، وصبر عن اللغو والفضول من أحاديث وأفعال وأعمال ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ** ﴾ ، وصبر على الوقائع اليومية المضادة للرغبات النفسية ، وصبر على الحرمان من التوفيق إلى الخير مع الإشراف عليه ، وصبر ... وصبر ... وصبر ... فما أريد أن أشق عليكم بأكثر من هذا ، فوالله إن الحياة كلها خيرها وشرها تفتقر إلى صبر ورضا ﴿ **وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ يهدى الله من يشاء إلى ما يشاء ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ** ﴾ فالحمد لله والشكر له .

أخى : لقد علمت ـــ وفوق كل ذى علم عليم ـــ أن حياة المؤمن كلها بلايا واختبارات فى اليوم الواحد يبتليه الله بالكثير من أنواع البلايا والمصائب ، ولكن وجود الحجاب بين العبد وربه يحول بينه وبين العلم بالمراد ، ولذلك يقضى اليوم وهو على غير بال ، ومن هنا نعلم مدى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ حيث الحياة بكافة معانيها ابتلاء ، ولكن إذا أصاب الإنسان فى يومه شىء فى دنياه تذكر البلاء ، وشعر بالمصيبة كأن السماء انقضت على الأرض ، ومادَت الجبال هدًّا ، لماذا ؟؟ لأن الدنيا همه الأكبر ، وشغله الشاغل ، فالدنيا لاشك فى ضرورتها ولكنها ليست الغاية التى عليها المدار ، ولأن البلاء كما ذكرت : قرن الله الصبر ذكرا مع الصلاة حيث قال : ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾ فالصلاة يومية ، وكذلك الصبر حيث لا صبر إلا مع البلاء أو على البلاء ، والصبر سابق على الصلاة في الذكر ؛ حيث به تتكون الصلة التى بها الاستعداد للصلاة ، فالصلاة عروج واتصال وانتقال من

حالٍ إلى حال ، صعود من الأرض إلى السماء ، وتنزع من شواغل النفس والحياة إلى ما هو أعلى وأسمى من الأسباب ، فلو لم يكن الصبر سابقا لها لا يكون الصبر عليها ، حيث الصبر معناه احتمال الضيق بسبب البلاء ؛ وكذلك فى الصلاة احتمال ضيق النفس من التقيد والارتباط فإنها تضيق ذرعا من الامتثال أمام خالقها . والله يهدينا وإياكم سواء السبيل .

* * * *

مَنْ هُوَ العَارِفُ بالله

أخى :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . ليعلم أخى نظرا واعتقادا ، وفهما وإدراكا ، وذوقا ووجدانا ، وشعورا وإحساسا أن كل ما هو كائن وسيكون ، وكل ماهو مقدر ومبرم ، وكل ما يصيب الإنسان من خير أو شر هو من الله وحده العليم الخبير . الحكم العدل اللطيف البصير . وكل ماهو من الله فهو نعمة وفضل ، ورحمة وعدل ولذلك يتعذر على الإنسان الإحصاء للنعم والأفضال . قال تعالى : ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوها** ﴾ ﴿ **وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ** ﴾ من هنا نعلم أن النتيجة التى يخلص بها المؤمن هى الحمد والثناء على الله والشكر له ما دامت الأنفاس . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . قال تعالى : ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ** ﴾ فالشكور هو الله . والشكور من عباده هو الذى يثنى على ربه فى جميع صفات ربوبيته ، ويشعر من أعماق قلبه أن كل ما هو منه سبحانه نعمة وفضل ، ورحمة وعدل . فلا فرق عنده بين المنع والعطاء مادام ذلك حكم القضاء . ﴿ **وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى** ﴾ وقد علمت أخى أن النفس بمقتضى طبيعتها تنفر من المنع ، وتضيق به . فمن نظر إلى الكائن بعين الله ، وإلى الواقع بعدل الله وحكمته ؛ وفقه الله ورعاه ، ونصره على طبيعة النفس وجبلتها ؛ فلا يكون منه إلا الرضا والتسليم : قال تعالى : ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم** ﴾ ؛ ومن علامات النصر وثبات القدم : الشكر على الضراء كما هو الشأن فى شكر النفس على السراء . وقد علمت أن الأصل فى الشكر والكفر ضعف الإنسان قال تعالى : ﴿ **وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً** ﴾ والإنسان بمقتضى إيمانه بخالقه يرى نفسه أضعف من الناموسة وأتفه شأنا من جناحها حيث لا فرق عنده بين قدميه القويتين وساعديه المتينتين ، وبين سواعد الناموسة وجناحيها لما يعلم ويؤمن بقدرة الله وقوته المحركة ؛ ولذا يشكر الله على الحركة التى عليها قوام حياته ووجوده . فلا

حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . أما الكافر فإنه لشدة شعوره بضعفه يلجأ إلى الأسباب التى يحسبها مقوية له ، ولذلك يتهافت على كل ما يراه ويتصوره قوة أو أسبابا إلى قوة ، وذلك فى عالم المادة التى يتصورها قوة أو أسبابا إليها ، ومن ذلك نعلم سر تعلق الإنسان بالدنيا حيث شعوره بالضعف يجعله ويحمله على تلمس الأسباب ؛ وقد نسى هذا المسكين أن الكائنات جميعها والمخلوقات كلها ضعيفة مثله فقيرة ، فهى صنوه فى أشد الحاجة إلى من يقويها ويبقيها . فكيف ينبغى للضعيف تقوية الضعيف ؟! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم : قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ نسوا الله .. أغفلوا وتجاهلوا ربوبيته وألوهيته اشتغالاً منهم بصفات أنفسهم وتعلقاً بالكائنات المخلوقة مثلهم . فأنساهم أنفسهم ضعفها وفقرها ، وحاجتها إلى ربها وخالقها حالاً ومآلاً ، عاجلاً وآجلاً ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الذين خرجوا عن الحقيقة ، وتجاهلوا الحق المنزل ، فاسترسلوا مع أنفسهم فى شهواتها وحظوظها وكل مايحقق فسقها وكفرها والعياذ بالله ؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد علمت أخى أن شعور الإنسان بضعفه هو أسّ الرحمة إذا كان الإيمان بالله واليوم الآخر . وهو أس البلاء والفساد إذا لم يكن الإيمان بالله واليوم الآخر .

فانظر أخى إلى الرجل يجمع من الدنيا ما يكفيه مائة عام . وله من الجاه العريض مالا يلحقه فيه أحد . ومع كل هذا فالشعور بالضعف لايتجاوزه والإحساس بالنقص لايتعداه شأنه فى الضعف شأن من لايملك قوت يوم وليلة . وشأن معدوم الجاه بين الخلق ﴿ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ إن المؤمن الحق الصادق الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ــ إنه بمقتضى شعوره بضعفه وإحساسه بنقصه ــ لاينفك عن ملازمة باب الله القوى لما يعلم ويوقن أن الكائنات كلها مثله ضعيفة ودونه شأنا عند الله الذى خلقه وكرمه ، وجعله خليفة فى الأرض ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ وقد علمت أن المؤمن الحق الصادق الإيمان بالله يرى أثر القدرة فى المقدور ، وقوة الصانع فى المصنوع ؛ فلا المقدور يصرفه عن مشاهدة القادر ومعاينة الحق ، ولا المصنوع يشغله عن جلال وجمال الصانع المبدع . ولذا فهو مع المكوّن لامع الكائنات ، ومع الخالق لامع المخلوقات ، ولما كانت صفاته البشرية كلها مخلوقة ؛ وكلها

ضعيفة محدودة : فإنه يتهرب من مشاهدة نفسه ومعاينة صفاته يلجأ إلى ربه وخالقه يستعين به على قهر نفسه وطرد شيطانه بكل الوسائل والحيل ، حتى يلقى الله عز وجل مجردا من حوله وقوته إلى حول الله وقوته سبحانه وتعالى . فالحمد لله . والشكر له .

انظر أخى إلى الإنسان كيف يستعين بجوارحه على تنفيذ مراد قلبه وإرادة نفسه : يسعى ويبطش ، ويسمع ويبصر ، ويشم وينطق ليصل بكل هذه الحركات إلى إبرام ما فى نفسه ؛ حيث الجوارح كلها جنود القلب وأعوانه . وكذلك شأن المؤمن الحق الصادق الإيمان بالله فى استخدام إرادته القلبية ، وقدرته العقلية بمقتضى إرادة الله وأمره . ومن هنا نعلم مدى قول الرسول ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرىء ما نوى » حيث العمل المعتبر شرعا ودينا عمل القلب وإرادة النفس لا أعمال الجوارح مهما كان شأنها . وقد علمت أخى أن صلة العبد بربه صلة مَعان ، ومعرفته معرفة صفات ، وشهوده شهود آثار وأحكام ، ووقائع وأحداث . فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فإذا قيل لك إن فلانا هذا عارف بالله أو من أوليائه فاعلم بأن المراد بهذا الوصف : العلم بالله فيما ذكر عن نفسه سبحانه علم يقين وحق يقين ، وعين يقين ؛ بحيث يكون المعلوم مصدر حياة العارف بالله فى جميع شئونه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فالعارف بالله يشعر بآثار الربوبية ، وقدرة الله العلى الكبير فى دبيب النمل الصغير . كما يشعر بها فى سير الكواكب وشروق الشمس وغروبها . كما يشعر بها فى إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود وفى الإغراق بالماء ، والإحراق بالنار . فوالله إن العارف بالله يلمس آثار قدرة الله وصفات ربوبيته متحققا متأكدا ، قاطعا ، جازما ، مؤمنا موقنا كما هو شأنى وشأنك فى التحقق والتأكد ، واللمس والقطع فى عمل الماء وعمل النار حيث لاجدال فى ذلك . فبالماء والنار حياة البشر ، وبهما هلاكه وخسارته . فتدبر ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ .

أخى :

إن العارف بالله هو مثلك إنسان يأكل ويشرب ، وينام ، ويسعى ، ويعمل ، يجد ويكافح ويفرح ويحزن ، ويشعر بالنعمة والمحنة ، والرخاء والشدة ، يحسّ بالمرض والصحة ، والغنى والفقر ولكنه يؤمن بالله إيمانا كاملا يحول بينه وبين مجاراة النفس

فى إحساسها وشعورها رضاً منه بقضاء الله وقدره ، وتفويضاً له ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ العارف بالله لا تبطره النعمة ولا تطغيه ، ولا تكدره المصيبة ولا تحزنه . لأنه شديد الشعور قوى الإحساس بالمعية الربانية ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ . فهذا أخى هو الفرق الذى بيننا وبين العارفين بالله من عباده المقربين . وقد علمت أخى أن العارف بالله ــ بمقتضى شهود المعية الربانية ومعاينة صفات الربوبية فى نفسه التى بين جنبيه ــ لايشعر بما يشعر به أمثالنا من الأدعياء من حيث القوة والاقتدار ؛ ولذا فهو فى مقام التجريد رغم شعوره وإحساسه بمحركات النفس الآلية . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . العارف بالله يتلو على نفسه قوله سبحانه تلاوة يقينية تتبخَّر بها قوة نفسه التى بين جنبيه ، وتذهب بها آثار السطوة الإنسانية ويتلاشى بها ومعها معدن النفس وجبروتها ، يشعر بكل هذا حينما يتلو قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ ،

فانظر أخى إلى نفسك حين تكون مدينا للقانون الموضوع وحين تكون أمام من بيده أمر التنفيذ عليك كالقاضى أو ضابط الشرطة ، والجندى الذى يتولى حراستك أين عقلك ؟؟ أين قوتك ؟؟ أين حولك ؟؟ أين إرادتك ؟؟ لاشىء من كل هذا . إنما هناك خضوع وخشوع . وذلة ومسكنة . وذل وافتقار ، وتسليم وتفويض !!! هكذا شأن العارف بالله فى المشاهدة والمعاينة مع الفارق .

اعلم أخى علما يجرى منك مجرى الدم أن العارف بالله حقا يومياته على هذا الأساس ، وحياته كلها على هذا الضوء من اليقين . ولذلك هو فى راحة من نفسه رضاء منه بقضاء الله وقدره خيره وشره . أعاذنا الله وإياكم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

العارف بالله سجين إرادة الله ــ أنفاسه شهقات وزفرات ، ونبضه ضربات ومضاربات ، فبالله عليكم احثوا التراب على وجوه الأدعياء ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . العارف بالله شعوره بضعفه ، وإحساسه بنقصه لايدع له مجالا للادعاء حيث هو الفقير إلى الله فى كل لحظة من لحظات حياته ، المفتقر إليه سبحانه فى كل طرفة عين . قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى

اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ومن هنا نعلم معنى حديث رسول الله ﷺ : « الإيمانُ نِصفُه شُكرٌ . ونَصفُه صَبْر » أو كما قال حيث الشعور بالضعف ، والإحساس بالنقص يفقد المؤمن ــ الكامل الإيمان بالله ــ رؤية النفس بشيء من الاستحقاق ، والجدارة ، ويفقده أيضاً صفة الأنانية التى بمقتضاها يكون الفزع والجزع . ومن كان هذا شأنه إذا أصابه السرَّاء شكر الله ، وإذا أصابه الضراء صبر لله . فهو بين الشكر والصبر . يذهب ويجيء ويتقلب ويتبصر ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ، وقد علمت أخى أن المؤمن الحق ينظر إلى كل آية يتلوها أو يسمعها فيطبقها على نفسه لعلمه ويقينه بأنه هو المخاطب ، وهو المقصود أولا وآخرا ؛ ولذ نجده فى شغل عن غيره اشتغالاً منه بعيوبه ونقائصه . قال رسول الله ﷺ : « العاقل من اشتغل بعيوب نفسه عن عيوب الآخرين . فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » أو كما قال . ولذا فإن المؤمن الحق حين يقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ يقف عند فهم هذه الآية وتطبيقها على نفسه ــ ولذا ينكر عليها كل قوة محسوسة ، وكل عمل صادر منها ، ويتجاهل عموماً وخصوصاً كل صفاتها وأفعالها مبادرا إلى نسبة الفضل لله فى كل ما تتصور النفس ، وتتخيل من مظاهر القوة والفضل ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ الرجَّاعين إليه بنسبة الفضل والرحمة إليه ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ العاملين على تجريد النفس من صفات المشاركة لله فى صفات ربوبيته . المتطهرين من الرعونات والشهوات . فالتوبة رجوع إلى الله بالقلب . والتطهر رجوع إليه بالجوارح وصالح الأعمال حيث الجمع بين صفة القلب وصفة الجوارح من علامات صدق العبودية . فالقلب هو الملك . والأعضاء هى الجنود والأدوات . فلا ملك بلا جنود . ولا جنود بلا ملك . وفقنا الله وإياكم إلى ما يحب ويرضى . وتولانا برحمته .

أخى :

العارف بالله : أساس حياته على قوله تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ ولذلك لا تغره المعرفة ؛ لأنه يزداد بها علما بضعفه . وكلما ازدادت معرفته للحق . ازداد علما ومعرفة بنفسه . وكلما ازداد علما ومعرفة بنفسه ازداد تقربا إلى الله بفقره وافتقاره إليه .

العارف بالله لايحب أن يجمع الناس عليه . بل غايته أن يجمع العبد على ربه ، فهو كالجندى المجهول يقذف قذيفته لتصل إلى هدفه وسرعان ما يختفى ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى ﴾ فالله سبحانه هدفه ومبتغاه ولا شيء فى المكونات يصرفه عن خالقها . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

أخى :

عَلِمَ الله الحق أنى مهما بالغت لكم فى ذكر ما علمت وبيان مالمست لن أصل بكم إلى حد !!! حيث لا نهاية للعلم ، ولا آخر للهدى ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ولما كان الأمر كذلك فالكيس من عمل بما علم ، وصدق فيما عمل . قال رسول الله ﷺ « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » أو كما قال . وقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ فالحمد لله . والشكر له . اتقوا الله . واستغفروه يغفر لكم ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ .

والسلام عليكم ورحمة الله

* * * *

أخى :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فلعلكم بخير وعافية بفضل الله ورحمته ونعمه وأفضاله . ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاتُحْصُوهَا ﴾ فالحمد لله والشكر له .

أخى :

لقد علمت وفوق كل ذى علم عليم أن آفة المريدين وبلاء العابدين ، وفتنة السالكين . هى اغترارهم بالانتصارات الوقتية على النفس البشرية كأن هذا النصر قضى عليها . وأحرق ما فيها وما عليها من صفات وطبائع . كأن الشيطان الذى يجرى منها مجرى الدم قد تجمد فصار لا مفعول له ولا قدرة على إحيائها وبعثها . ومن هنا نعلم أسباب الانتكاس ، ودواعى التراجع فى أمثالنا ومن أمثالنا . فإنك ترى الرجل منا على نشاط ملموس ، واستعداد محسوس ، وإقبال على الله له أثره ومعناه فيما لنا وما علينا وفى حياتنا اليومية فإذا بك تراه بين عشية وضحاها ، أو بعد أيام وشهور من نشاط وإحساس قد تغير حاله ، وتبدل لونه ، وفزع أمره ، واضطرب كيانه كأن لم يكن شيئاً مذكوراً ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ صدق الله العظيم . وقد علمت أخى ـــ وفوق كل ذى علم عليم ـــ أن السبب فى ذلك ثلاثة أمور :

الأول : الجهل بالدين : « من يرد الله به خيرا يفقه فى الدين » وقد علمت أخى أن المراد بفقه الدين هو غير ما نتعارف عليه نحن من قراءة العلوم ، والاطلاع على كتب التفسير والحديث . كلا والله فإن كل هذه

القراءات وسائل إلى الفهم ــ وليست هى الفهم بعينه . ولئلا أخرج عن الموضوع أدع الكلام فى هذه الناحية إلى فرصة أخرى . الثانى : جهل الإنسان بنفسه . ومعية الشيطان لها . الثالث : جهل العبد بمعبوده ، والمربوب بربه ، والمخلوق بخالقه . وهناك أمور كثيرة متفرعة من هذه الثلاثة . وفوق كل ذى علم عليم . ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ وعليه أقول : إن علاج الأمر الأول هو العلم بالدين : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلَامُ ﴾ ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِين ﴾ فكلمة الدين معناها فى اللغة : العادة . والشأن . والجزاء . والمكافأة . كما تدين تدان . فالعلم بالدين من إدانة النفس وسوقها إلى تعاليم الإسلام يعنى إخضاعها وإذلالها بحيث تكون حياتها الدنيوية بمقتضى تعاليم الدين الإسلامى : « لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تَبَعا لما جئت به » فما أمر به الإسلام يفعله المسلم ، وما نهى عنه ينتهى ، ولا يرجو من وراء عمله إلا مرضاة خالقه سبحانه ، ولا يهدف إلا إلى عبادة الله عِلْما منه أن الجزاء فى اليوم الموعود : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّين ﴾ فمن عرف دينه بهذا المعنى لا يتحول عن باب معبوده . كما أنه لا يتأثر بالأوهام والخيالات والخرافات ، والخزعبلات ؛ لأنه يذهب قدما على الصراط المستقيم حتى يلقى ربه بالجزاء يوم يكون الثواب والأجر على الأعمال المتعلقة بالآخرة فالحمد لله . والشكر لله .

أما الأمر الثانى فعلاجه معرفة النفس بحالها من الصفات الطبيعية ، ومعرفة الشيطان بكافة وسائله وحيلة ، وعداوته الأبدية . وذلك عن طريق مصاحبة الأخيار من عباد الله المؤمنين الذين هداهم الله إليه ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ وإن هذه المصاحبة يجب أن تكون عمليا ، بحيث يكون الاهتداء والاقتداء وتكون المتابعة . فإذا قال الأخ . وأين هؤلاء ؟؟ ومن هم .؟؟ جوابى عليه ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وإذا قال : أين أهل الذكر . أقول هم العلماء بالله الذين يخشون ربهم بالغيب ويؤمنون به :﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُم خَوْفا وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ وهؤلاء إن لم تجدهم بذواتهم تجدهم بصفاتهم . فإنك إذا كنت جادا ستجدهم فى ثنايا الكتب والمؤلفات وما إلى ذلك من الآثار . فإن لم

تجد فأسأل عنهم أهل العلم بالكتاب والسنة . فوالله إن من طلب الحق فلن يعدمه لأنه موجود . فمن أبى كل ذلك فعليه بالاقتداء المباشر برسول الله ﷺ بحيث يأتى كل ما أتى رسول الله ﷺ ويدع ما كان يدعه على قدر جهده واستطاعته : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ لأن متابعة الرسول ﷺ نصاً وحرفا يترتب عليها القرب من الله . والقرب من الله يترتب عليه حب الله . ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ وقد علمت أخى أن من سلك الطريق إلى ربه وانتظم على الصراط المستقيم بقلب خالص . ويقين صادق تكشفت له عيوب نفسه وصفاتها . وظهر له الشيطان بقوته وحاله وما هو عليه : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ لأن من لم يأت الصراط المستقيم لم يجد الشيطان ولم يعرفه ولم يلمس وجوده بكافة معانيه ووسائله وحيله . وكذلك لايعرف نفسه لأنه لايزال بهواها : حيث تصبح النفس والشيطان متجانسين متعانقين . وفوق كل ذى علم عليم .

الأمر الثالث . معرفة العابد معبوده ، والمربوب ربَّه . والمخلوق خالقه . فوالله إنى لا أستطيع أن أحدثك عن هذا حيث لانهاية للحديث . ولاآخر للموضوع ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ إنما يصح أن أقول لك . إن معرفة العابد معبوده معناه : قصده بالعبادة دون سواه ، والتوجه إليه بالطاعة لما له من صفات الألوهية ، وحق الربوبية . وحق الخالق ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

وقد علمت أخى أن المعرفة الحقيقية إذا تسيطرت على القلب انقادت الجوارح كلها بالطاعة والعبادة . « ألا إنَّ فى الجسَدِ مُضغة إذا صلحت صلُح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله » أو كما قال . فتكون بنور الله فى حركاتها وسكناتها « كنت سمعه ، وكنت بصره » أما المعرفة المشار إليها فهى شهود صفات الله ، صفات الربوبية ، صفات الألوهية بمعانيها العقلية وبالتقديرات التى تليق بجمال الله وجلاله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

قد علمت أخى أن معرفة الله تتجلّى وتظهر بوضوح فى أعمال الإنسان ،

وفى معاملاته لعباد الله ، وفى أخلاقه وأحواله ، وفى إحساسه وشعوره ، وذوقه ووجدانه . وفى جميع ما يكون منه بمقتضى إنسانيته وبشريته فإن المعرفة تقتضيه المراقبة ، والمراقبة تقتضيه المشاهدة والمعاينة . فإن العارف بالله . حياته ربانية وأعماله شرعية ، وأخلاقه محمدية . فلا يغفل إذا غفل الناس . ولا يلهو إذا لها الناس . ولا ييئس من رحمة الله إذا يئس الناس . ولا يأمن مكر الله إذا أمنوا . فلا تغره الطاعة ولا تقنطه المعصية يشكر الله كثيرا على النعمة التى يحسبها الناس صغيرة أولا يلتفتون إليها بسبب غفلتهم عن الله كالاستجابة للنداء من غيره له وما شاكلها من الأمور العادية . يصبر على البلاء كصبر المريض على الدواء طلبا للعلاج والشفاء، ويذكر الله أكثر منه ذكرا لنفسه . (ومعنى هذا أنه لا ينسب إلى نفسه شيئا مما تعودت النفس ادعاءه أو التفاخر به) لئلا يمكن نفسه من الظهور على المسرح بصورة البطل المقدام ، والفارس الشجاع . يبادر إلى الشكر والحمد للمعطى الوهاب بأسرع ما يمكن من الاندفاع اعترافا منه بفضل الله عليه ورحمته به وفى هذا الحال لا تجد النفس مجالا للادعاء ولا فراغا للانتساب . وكذلك الشيطان يقف مبهوتا مذهولا حائرا مضطربا حيث سد فى وجهه الباب وقفل عليه الطريق . فلا منفذ ولا طاقة ، ولا تطلع ولا إشراف ﴿ **إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ ومن هنا نعلم السر فى أن الشكر شطر الإيمان . فاقرأ هذا أخى وتدبر وأعد قراءته المرة تلو المرة حتى يكون الاستيعاب والإدراك بفضل الله ورحمته .

العارف بالله حين يصاب يسارع إلى ربه بالصبر عند المفاجأة الأولى . وللعلم أقول : إن الصبر معناه حبس النفس عند الجزع : ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلاَّ الْمُصَلِّين** ﴾ فالنفس حين يصادفها مايعترض ميولها تجزع وتفزع . ولكن العارف بالله يلقى المصيبة بالصبر وذلك : لئلا يمكنها من الضيق والضجر بقضاء الله وقدره المختار ؛ فإنها إذا تركت وشأنها كادت تميل إلى الكفر . فالعارف بالله يلجأ إلى ربه بتخفيف المصاب تارة بالقدرة على الاحتمال ، وتارة بقوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ** ﴾ وتارة بالأجر والثواب ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ وتارة بالإيمان

واليقين بالله وتارة يقنعها بأن الخير فى الشر ، والشر فى الخير ﴿ **وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُم** ... **الآية** . وتارة بالاعتقاد الصحيح أن كل ما قضى الله وقدّر فهو خير محض . وأرجو أن يعلم الأخ أن الإحساس البشرى لابد منه . فالعارف بالله إذا أتى معصية أو ارتكب ذنبا ــ وذلك من طبيعة البشر ــ لجأ إلى ربه بالاستغفار والتوبة ﴿ **وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُم تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ** ﴾ ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون** ﴾ ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ .

العارف بالله يسرع إلى ربّه بطلب الإقالة من الذّنب ليمحو أثره وسواده من القلب . لئلا يمكن النفس من حظوظها وأهوائها وتلذذها . ولئلا يمكن للشيطان العدو المبين من الدخول على النفس بالأسباب المماثلة . لما كان منها . فهكذا يلجأ العارف بالله إلى ربّه حين تكون منه سقطة أو زلّة حيث التوبة والإنابة تفيدان وتؤكدان إنكار صفة النفس وقدرتها على شيء إلا بأمر الله فالرجوع إليه سبحانه يحطم من كيان النفس ، ويهد من كبريائها ، ولا يعطيها مجالا للاستقلال والاستغلال حيث إنها بمقتضى طبيعتها تكاد تدعى الربوبية والألوهية . والشيطان يؤازرها ويدفعها دفعا ، ويسوقها سوقا طواعية أو كراهية . ولذلك يكون الاستغفار كالصفعة الماضية ، والضربة القاتلة القاضية على الشيطان بل التوبة كعدم الاعتراف به أصلا . والإنابة كتقرير . الصبر بالنسبة لها كأنها صارت فى حكم العدم هى وأعوانها . وفوق كل ذى علم عليم . ومن هنا نكاد نعلم السر فى معنى قوله سبحانه وتعالى ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِين** ﴾ بالله أخى اقرأ هذا بإمعان وتدبر . وقل رب زدنى علما . وأرجو الرجوع إلىّ بما يفتح الله به عليكم من حالٍ وعلم ففوق كل ذى علم عليم . وأرجو أن تحتفظ بهذه الرسالة إذا كان الحق نورها ، والصواب روحها فإنى أخشى عليكم شرورى ونفسى وضلالها . وإذا كان فيها ما هو مجانب للحق أرجو أن تمزقها بمجرد الفراغ من تلاوتها حتى لا تؤذى نفسك ولا تؤذى أحدا من المسلمين . غفر الله لى ولكم .

العارف بالله قلبه كالمرجل يغلى ولا يهدأ له بال ، ولا يستقر له حال .

معلق بين السماء والأرض كالريشة فى مهب الرياح . روحه فى السماء . وبدنه فى الأرض . همه دينه ، وسعيه معاشه ، وعبادة ربه . يبكى والناس يضحكون . ويضحك والناس باكون . همه بمعاده أضعاف أضعاف همه بمعاشه ، يحبه الناس ويتهافتون عليه إذا علموا به وأدركوا معانيه . وهو بمعزل عن الخلق لشغله بالخالق كصاحب الميت العزيز يُدْنى منه ولايدنو قلبه من أحد . مشغول بميّته والفراغ الذى تركه ، لسانه وجوارحه تجامل الناس وترد المجاملات . إن لاقى مكلوما مثله بكى ببكائه . وحزن بحزنه وإن رأى باكيا على فقيده تباكى معه واسترسل فى إثارة شجونه وهواجسه ، وإن قوبل بالمجاملة السطحية تقبلها بالمثل دون أن يلوم أحدا . فهكذا شأن العارف بالله فى حياته مع نفسه وحياته مع الناس وفى صلته بالدنيا وما فيها . فليس العارف بالله ياأخى من رأى رؤيا صالحة سرّته أو خرقت له العادة أو استجاب الله له دعاء فى قصد أو طلب أو قام بالليل أكثره والسبحة لا تفارق يده أو لسانه رطب بذكر الله . وإن كان بعض ما ذكر دليل السير إلى الله . وطريق العلم بالله . فالذكر منشور الولاية ، والأعمال وسائل . والله ولى التوفيق . وهو المستعان فالحمد لله والشكر له .

العارف بالله ليس الذى يفسر القرآن ويشرح الحديث بمعان متعددة وغريبة . كلا والله . قد يكون الغريب غريبا . وقد يكون لاصلة له بالمعنى المراد . ولكن الناس غفر الله لنا ولهم بمقتضى حب الاستطلاع الطبعىّ فى الإنسان يتشوقون إلى الغرائب ، ويتطلعون إلى العجائب . سنة الله فى خلقه ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾

أخى :

أنا لاأعرف شيئا . ولاأملك شيئا . وكل ماذكرت عن العارف بالله هو ما علمت وتصوّرت وما أحسبنى بفضل الله أدركت . ويصح أن هذا جديد علىّ شأنى وشأنك .

وعليه أرجو ثم أرجو ألا تأخذ منى إلا ما كان حقا لا فى حدود علمك . ولكن فى حدود العلوم الشرعية التى لانقض فيها ولا إبرام . وفى حدود الآيات القرآنية . والأحاديث النبوية فإنى والله جهول إلى أبعد حد . ولكن الشيطان

لا يدع أحدا فالكلمة التى تراها من عندى انبذها إلىّ ، وردّها علىّ بصَفْعةٍ تذكرنى بالحق عند رجوعى إليك مرة أخرى إن شاء الله . فإنى أخشى عليكم كثيرا من شرورى وأوضارى . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . والكلمة التى تراها من الله هى كلمة الحق فتقبلها قبولا حسناً ، واحفظها فى تاليك تستعن بها فى طريقك إليه سبحانه ، واعلم يقينا أنها من الله ربنا الذى وسعت رحمته كل شيء . أشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمدا رسول الله ﷺ ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾

العارف بالله ينظر بنور الله ؛ ولذلك ينظر إلى الدنيا بنظر الله إليها ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ وينظر إلى الآخرة بنظر الله إليها ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ العارف بالله هو من عزفت نفسه عن الدنيا . فلا يفرح ولا يغتر بما أوتى منها ولا يحزن . ولا يتأسف على ما فاته منها . شأن الدنيا فى نظره شأن الثوب الذى يستر العورة والدار التى تأوى الساكن وتقيه الحر والبرد . شأنها شأن العجلة أو السيارة التى يستعين بها على قضاء حاجته . إن فقدها مشى برجليه . وإن وجدها لايغتر بها ولا ينشغل بركوبها .

العارف بالله لا يربط صلاته بالناس على أساس مالديهم من الدنيا ومالهم من الجاه فيها ولا يحبهم ولا يدنو منهم حباً فيما عندهم . إنما يحب ويصل على أساس صلتهم بالله ومحبتهم لله وتعلقهم بدين الله . وإخلاصهم لله . وصدقهم مع الله ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِّلَّهِ ﴾ العارف بالله . إذا وصل أو دنا من أحد فإنه يصل الناس كصلة الطبيب بالمريض . ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾

العارف بالله لايتمشى مع شهوات النفس ولا يساير رغباتها إنما هو دائما يحاول إقناعها ، وردها عن عدوانها ولو كان مجرد الخاطر العابر ، والوهم الصادر ؛ حيث النفس طبيعتها الوهم ثم الميل ثم الحب ثم التلبس . العارف بالله ينظر إلى المرأة الأجنبية كنظره إلى محارمه . وشعوره بأنوثتها إذا جمع القدر بينهما

كشعوره بأنوثة أخته ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ فإن النفس كعادتها لاتنفك عن الاشتهاء إذا كانت الملامسة والمباشرة والمحبة والمؤانسة لذا فهو يحرم هذه الأشياء على نفسه كما يحرم أخته عليه ، ويعف عنها كعفته منها .

العارف بالله عبارة عن قوة استكشافية تستمد نورها وضوءها ومددها وإمدادها من السماء ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ﴾ ، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِين ﴾ ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾ .

أخي :

لا أدرى هل أزيدك أم أقف عند هذا الحد ؟؟ فإنى أخشى أن ترجع إلىّ بالسؤال الآتى : وأين هو ؟ لا أدرى حتى هنا . لا أدرى : لكنى أقول : اللهم ارزقنا الإيمان واليقين ، واشرح صدورنا للإسلام . واجعل لنا نورا نهتدى به إليك يامنان . إلهى دُلَّنا على من يدلنا عليك ، وأوصلنا إلى من يوصلنا إليك إنك على كل شيء قدير . وبالإجابة جدير . وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ .

وقد علمت أن الوقت أضيق من أن نقضيه فى البحث عن العارف بالله بمقتضى هذه المواصفات فإنك ربما لاتجد من يتصدَّى لك أو يكشف لك عن حاله بالعلم والمعرفة . ولربما إذا وجدت فإن الشيطان بالمرصاد ليشوِّه لك من تلقى . ويحملك على سوء الظن بمن تحب . فالعارفون بالله كنوز الله فى أرضه « فاتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها . وخالق الناس بخلق حسن » قال تعالى : ﴿ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ إذاً ما العمل ؟ وماذا نفعل ؟ نتوب إلى الله . ذلك هو الطريق الحق ولننتظم على الصراط المستقيم . وحينئذ ستجد العارف بالله ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّين ﴾ وعلى كل فلا شأن لى بكم . ولا شأن لكم لى فإننى أضعف من الناموسة الصغيرة . ولكن الطريق إليه سبحانه يجمع بينى وبينكم « الناجى يأخذ بيد أخيه » ومعنى الناجى يأخذ بيد أخيه غير الذى تفهمه العوام : المعنى : من عرَف يُعرِّف الذى لايعرف . ومن علم يُعلِّم الذى لايعلم

ومن اهتدى ورشد يهدى الضال الحائر . قال شيخنا العارف بالله ابن عطاء السكندرى « لاتصحب من لاينهضك حاله . ولا يدلك على الله مقاله » وقال رسول الله ﷺ « المرء على دين خليله وقال ما معناه : يُحشر المرء مع من أحب » فالحشر بمعنى الانحشار معه فى أعماله وصفته وبمعنى مزاحمته ومنافسته فيما هو عليه ، وبمعنى محاذاته ومتابعته فى عاداته وشئونه . والمرء مع من أحب ، المعية العملية أى يعمل مثل ما يعمل ويأتى مثل ما يأتى ويدع مثل ما يدع . وقال الشاعر :

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

أخى :

لايغرنك ما أقول ، ولا يفتننك ما أدعى ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** ﴾ ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى** ﴾ ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ والظلم هنا : الشرك : أعاذنا الله وإياكم من الشرك والضلال ، والغرور والاستدراج ، والنفاق والشقاق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * * *

الهِجْرَةُ إِلَى اللهِ

أخى :

إن جهلنا بصفات النفس ، وعدم إدراكنا لحقائقها هو السبب فيما نلقى من المصاعب والمتاعب منها . وبها ومعها . فهى كما وصفها الله عز وجل : أمارة بالسوء . ولوّامة . ومطمئنة . فلا تنفك عن هذه الصفات الثلاث. فعند الغفلة تظهر بالسوء . وعند اليقظة تظهر باللوم . وعند ذكر الله تظهر بالطمأنينة . قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ وعليه أقول لأخى وسيدى إنه لا ينتفع بنعمة الله بالإيمان والعلم به إلا من عرف نفسه ، ووقف بها عند قدرها . ولم يتجاوزه إلى ما ليس له ، ولم يتعد طوره .

اعلم أخى أنه لما سلم لآدم أصل العبودية لم يقدح فيه الذنب . « ابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا لا تشرك بى شيئا لجئتك بقرابها مغفرة » ولما علم السيد أن ذنب عبده لم يكن قصد المخالفة ولا قدحا فى حكمته علّمه كيف يعتذر إليه ﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾ فالعبد لا يريد بمعصيته مخالفة سيده ، ولا الجرأة على محارمه . ولكن غلبات الطبع وتزيين النفس والشيطان ، وقهر الهوى ، والثقة بالعفو ، ورجاء المغفرة هذا من جانب العبد . وأما من جانب الربوبية فجريان الحكم وإظهار عز الربوبية وذل العبودية وكمال الاحتياج . وظهور آثار الأسماء الحسنى . كالعفوّ ، والغفور ، التوّاب ، الحليم لمن جاء تائبا نادما ، والمنتقم والعدل وذى البطش الشديد لمن أصر ولزم المعاصى . فهو سبحانه يريد أن يُرِى عبدَه تفرده بالكمال ونقص العبد ، وحاجته إليه ، ويُشهده كمال قدرته وعزته ، وكمال مغفرته وعفوه ورحمته ، وكمال برّه وستره وحلمه وتجاوزه وصفحه ، وأن رحمته به وإحسانه إليه لا معارضة فيه ، وأنه إن لم يتغمده بِعدْله ورحمته وفضله فهو هالك لا محالة فكم لله من حكمة فى تقدير

الذنب ؛ وكم فيه مع تحقيق التوبة للعبد من مصلحة ورحمة : التوبة من الذنب كشرب الدواء للعليل . ورب علّة كانت سبب الصحة . لولا تقدير الذنب لهلك ابن آدم من العجب : ذنب يذل به أحب إليه من طاعة يَدِلّ بها عليه . شمعة النصر إنما تنزل فى شمعدان الانكسار . لا يكرم العبد نفسه بمثل إهانتها ولا يعزها بمثل ذلها ، ولا يربّيها بمثل تعبها ، ولا يشبعها بمثل جوعها ، ولا يؤمنها بمثل خوفها ، ولا يؤنسها بمثل وحشتها من كل ما سوى فاطرها وبارئها ، ولا يحييها بمثل إماتتها .

واعلم أخى أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته . لا ببدنه . والتقوى فى الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح : قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ وقال النبى ﷺ « التقوى هاهنا وأشار إلى صدره » فالكيّس من يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمّة ، وتجريد القصد وصحة النية ، مع العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير . والسفر الشاق فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السفر والتقدم .. والسبق إلى الله سبحانه وتعالى إنما هو بالهمة وصدق الرغبة ؛ فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحبَ العمل الكثير بمراحل ، فإن ساواه فى همته تقدم عليه بعمله . فأكمل الهدى هدى رسول الله ﷺ . وكان رسول الله ﷺ موفيا كل واحد منها حقه . فكان مع كماله وإرادته وأحواله مع الله يقوم حتى تتورم قدماه ، ويصوم حتى يقال لايفطر ، ويجاهد فى سبيل الله ، ويخالط أصحابه ولا يحتجب عنهم ، ولا يترك شيئا من النوافل والأوراد التى تعجز عنها قوى البشر . والله تعالى أمر عباده أن يقوموا بشرائع الإسلام على ظواهرهم ، وحقائق الإيمان على بواطنهم . ولا يقبل واحدا منهما إلا بصاحبه وقرينه . وفى الحديث « الإسلام علانية . والإيمان فى القلب » فكل إسلام ظاهر لا ينفذ صاحبه فيه إلى حقيقة الإيمان الباطنة فليس بنافع حتى يكون لله فيه شيء من الإيمان الباطنى . وكل حقيقة باطنة لايقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت . فلو تمزق القلب بالمحبة والخوف ولم يتعهد بالأمر وظاهر الشرع لم ينجه ذلك من النار . كما أنه لو قام بظواهر الإسلام وليس فى باطنه حقيقة الإيمان لم ينجه ذلك من النار .

أخى :

الأعمال الخاصة بالجوارح ظاهرة لا لبس فيها ولا غموض . ويكاد يعرفها كل سالك . ولكن المشكلة فى أعمال القلوب نظرا لعمقها ودقتها ، لأن مداخل الشيطان معها فـ « إنما الأعمال بالنيات : وإنما لكل امرىء ما نوى » أو كما قال . ومن هنا يجب أن تعلم أن المطلوب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية ، ونية صحيحة . فمن فقدها تعذر عليه الوصول إليه ، فإن الهمة إذا كانت عالية تطلعت إلى الله وحده سبحانه دون غيره . كما أنه إذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة إليه ، فالنية تُفْرد له الطريق ، والهمة تُفْرد له المطلوب . فإذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصول غايته . وإذا كانت همته سافلة تعلقت بالسلبيات ولم تتعلق بالمطلب الأعلى . وإذا كانت النية غير صحيحة كانت الطريق غير موصلة إليه ؛ فمدار الشأن على همة العبد ونيته . وهما مطلوبه وطريقه ، ولا يتم ذلك إلا بترك أشياء منها : العوائد ، والرسوم ، والأوضاع التى أحدثها الناس وتعارفوا عليها ، وهجر العوائق ـــ التى تعوقه عن إفراد مطلوبه وطريقه ـــ وقطعها وقطع علائق القلب التى تحول بينه وبين تجريد التعلق بالمطلوب . والفرق بينهما : أن العوائد هى الحوادث الخارجية . والعوائق هى التعلقات القلبية بالمباحات ونحوها . وأصل ذلك بترك الفضول التى تشغل عن المقصود من كل شىء فيأخذ من ذلك ما يعينه على طلبه ويرفض منه مايقطعه عنه أو يضعف قلبه . والله المستعان .

فانظر أخى وتدبر ، وقل رب زدنى علما ، فوالله الذى لا إله إلا هو إن الطريق إلى الله وعْر وشاق . ملغم بالأشواك ، فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . والعاجز من أتبع نفسه هواها . وتمنى على الله الأمانى ، أو كما قال .

أخى :

إن أساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . فتوقن حينئذ أن الحسنات من نعم الله فتشكره عليها ، وتضرع إليه سبحانه ألا يقطعها عنك ، ولو كانت منك حسنة واحدة فى اليوم بمجرد قولك : الحمد لله رب العالمين : وذلك حاصل ولو كان باللسان فقط فاشكره على ذلك يزدك مثلها . وأن السيئات من خذلانه وعقوبته فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها .

ولا يكلك فى فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك . وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق من الله وعونه للعبد ، وكل شر فأصله خذلانه لعبده . وأجمعوا على أن التوفيق ألا يكلك إلى نفسك وأن الخذلان هو أن يخلى بينك وبين نفسك فإن كل خير فأصله التوفيق . وهو بيد الله وحده لا بيد العبد فمفتاحه الدعاء والافتقار ، وصدق الرجاء والرغبة إليه والرهبة منه فمتى أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له . ومتى أضله عن المفتاح بقى باب الخير مرتجاً دونه . فانظر أخى وتدبر ، وقل رب زدنى علما . قال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه : إنى لا أحمل هم الإجابة . ولكن أحمل هم الدعاء فإذا ألهمت الدعاء فالإجابة معه . وعلى قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته فى ذلك يكون توفيق الله وإعانته سبحانه . فالمعونه من الله تنزل على العباد على قدر هممهم ونياتهم . ورغبتهم ورهبتهم . والخذلان ينزل على حسب ذلك فالله سبحانه أحكم الحاكمين . وأعلم العالمين يضع التوفيق مواضعه اللائقة به . والخذلان فى مواضعه اللائقة به وهو العليم الحكيم . وما أتى العبد إلا من قبل إضاعة الشكر . وإهمال الافتقار والدعاء . وملاك ذلك الصبر فإنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد . ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر ، وصدق الافتقار والدعاء . وما أصيب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب ، والبعد عن الله . وقد خلقت النار لإذابة القلوب القاسية . فأبعد القلوب من الله القلب القاسى . ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ وللعلم أذكر لأخى أنه إذا قسا القلب قحطت العين . وقسوة القلب من أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة : كالأكل ، والنوم ، والكلام ، والمخاطبة ، وما إلى ذلك من اللغو والفضول ، على شرط أن تكون النية سابقة فالبدن إذا مرض لم ينفع فيه طعام أو شراب . فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجح فيه المواعظ . فمن أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته ؛ فإن القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها فالقلوب آنية الله فى أرضه . وأحبها إليه أرقها وأصفاها . والله المستعان . قال رجل لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه : علمنى كلمات جوامع نوافع

فقال : اعبد الله لا تشرك به شيئا ، ودر مع القرآن حيث دار ، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيدا بغيضا ، ومن جاءك بالباطل فارددە وإن كان حبيبا قريبا . وقال اطلب قلبك فى ثلاثة مواطن : عند سماع القرآن . وفى مجالس الذكر . وفى أوقات الخلوة . فإن لم تجده فى هذه المواطن فَسلِ الله أن يمن عليك بقلب فإنه لا قلب لك . ومن كلامه رضى الله عنه لايبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يحلّ بذروته . ولا يحل بذروته حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى . والتواضع أحب إليه من الشرف . وحتى يكون حامده وذامه سواء وإن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه فيرجع وما معه منه شيء ! فاعلموا إخوانى أنه لاشيء أفسد للأعمال من العجب . ورؤية النفس . هذا إذا كان هناك عمل . فبأى شيء يعجب من لاعمل له مثلنا ؟ فإذا أراد الله بعبد خيرا أشهده منته وتوفيقه وإعانته له فى كل ما يقوله ويفعله . ثم أشهده تقصيره فيه ، وأنه لا يرضى لربه به فيتوب إلى الله منه ، ويستغفره ، ويستحى أن يطلب عليه أجرا . وإذا لم يشهده ذلك التقصير وغيبه عنه فرأى نفسه فى العمل بعين الكمال والرضا . فلا يقبل الله منه عمله . ولا يرضى عنه . فالعارف بالله يعمل العمل لوجه الله مشاهدا فيه منّته وتوفيقه وفضله معتذرا منه إليه مستحييا منه إذا لم يوفه حقه . والجاهل يعمل العمل لحظه وهواه ناظرا إلى نفسه يمن به على ربه راضيا بعمله ـــ فهذا لـون . وذاك لون آخر . حفظنا الله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

فاعلموا إخوانى أن العبد دائما متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل . فهو محتاج بل مضطر للعون عند الأوامر . وإلى اللطف عند النوازل ، وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل . فإن أتم القيام بالأوامر ظاهرا وباطنا ناله اللطف ظاهرا وباطنا وإن قام بصورها دون حقائقها وبواطنها ناله اللطف فى الظاهر . وقل نصيبه من اللطف الباطن . واللطف الباطن هو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة . وزوال القلق والاضطراب والجزع فيستخزى ويقف بين يدى سيده ومولاه ذليلا مسكينا ناظراً إليه بقلبه . ساكنا إليه بروحه وسره قد شغله مشاهدة لطفه عن شدة ماهو فيه من الألم . وقد غيبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له . وأنه

عبد محض يُجرى عليه سيده أحكامه رضى أم سخط . فإن رضى نال الرضا . وإن سخط فحظه السخط . فهذا اللطف فى الباطن نتيجة وثمرة لتلك المعاملة الباطنة يزيد بزيادتها ، وينقص بنقصها . فإن العبد المنقطع عن الله لا يزال كذلك حتى تتصل إرادته ومحبته وتتحول إلى خالقه . ومعنى هذا أن تفضى المحبة إلى الله وحده فلا يحجبها شيء دونه . وأن تتصل المعرفة بأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله . فلا تطمس نورها ظلمةُ التعطيل . كما لا يطمس نورَ المحبة ظلامُ الشرك وأن يتصل ذكره بربه سبحانه وتعالى حتى يزول حجاب الغفلة بين الذاكر والمذكور فحينئذ يتصل به الذكر ، ويتصل العمل بأوامره ونواهيه ويترقى فنرى العبد يفعل الطاعة لأن الله أمره بها لهذا أحبها ، ونراه ترك المناهى لأن خالقه نهاه عنها لهذا أبغضها ، فهذا معنى اتصال العمل بأمره ونهيه ، وماهية ذلك زوال العلل الباعثة على الفعل والترك من الأغراض والحظوظ العاجلة ، ويتصل التوكل والحب به بحيث يصير واثقا به سبحانه مطمئنا إليه ، راضيا بحسن تدبيره له ، غير مهتّم له فى حال من الأحوال ؛ ويتصل فقره وافتقاره به سبحانه دون سواه ، ويتصل خوفه ورجاؤه ، وفرحه وسروره وابتهاجه به وحده ، فلا يخاف غيره ولا يرجو سواه ولا يفرح بالأغيار كل الفرح ، ولا يسر بها غاية السرور ؛ وإن ناله بالمخلوق بعض الفرح والسرور فليس — الفرح التام ، والسرور الكامل ، والابتهاج والنعيم وقرة العين ، وسكون القلب — إلا به سبحانه وتعالى . وما سواه إن أعان على هذا المطلوب فرح به وسـر . وإن حجب فهو بالحزن والوحشة منه أحْرى . واضطراب القلب بحصوله أحق منه بأن يفرح به . فلا فرح ولا سرور إلا به أو بما أوصل إليه ، وأعان عليه . وقد أخبر سبحانه أنه : ﴿ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِين ﴾ بالدنيا وزينتها . بل أمر بالفرح بفضله ورحمته ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُون ﴾ والله المستعان . وهو الهادى إلى أقوم سبيل .

* * * *

الإيمان بالجزاء

أخى :

لابد للإنسان من الإيمان بالله الخالق الموجِد النافع الضار اعتقادا وتنزيها وتصديقا بما وعد وأوعد جل وعلا . وتقدست ذاته عن الشبيه والنظير . وجلت صفاته عن النقص . تجلى بفضله ورحمته لمن أراد وأحب ، وظهر بعدله لمن أبعد وطرد ، فله الحمد من قبل ومن بعد .

وليعلم أخى أن ذات الله جَلت عن المثل والمثال ، لا تدرك بالحواس ، ولا تقاس بالحوادث وأرقى درجات المعرفة تقديس الذات ، والاعتراف بالعجز عن الإدراك ، والتعرف إلى الله بمعرفة صفاته وأسمائه الحسنى . وصفات الله العلى القدير ليست كصفات المخلوقين . فهى صفات كمال كلها . وأسماؤه عز وجل حسنى جميعها . وكمال هذه الذات يظهر فى الجمع بين صفات الأضداد . فهو الضار النافع . والمعطى والمانع . والرحيم والجبار . فالرحمة من جماله . والجبروت فى جلاله . والجمع بين الرحمة والجبروت والجلال والجمال عين كماله . والوصول إلى إدراك هذه الصفات ، ولمس هذا الكمال ، وتقديس الذات المقدسة عن النقص والعيب لا يكون ولا يمكن أن يكون إلا عن طريق الإيمان بصفات أفعاله أولا ، ولما تعددت الصفات ، وتنوعت وتضادت ، تنوعت أفعال الصفات ، والمشاهد فى هذه الحياة الدنيا : أن الفعل الواحد تظهر فيه أفعال الصفات ؛ فالإنسان قد يعطى الصحة ، ويمنع المرض . ويمنع الصحة ويعطى المرض فى آن آخر . فهو دائر بين الخضوع قهرا بصفات الجلال أو الجمال .. إلخ . فالحمد لله رب العالمين .

وصفات الربوبية ليست خاصة بالحياة الدنيا . وإنما هى دائمة باقية مستمرة فى الحياة الدنيا والآخرة . ولو تخلفت إحدى الصفات فى الدنيا والآخرة لكان هذا نقصا وعيبا . تعالى الله عن النقص والعيب . سبحانه الكبير

المتعال . ومن الوجهه الأخرى لكى تدرك صفاته وتعرف نعوت جلاله وجماله . وتؤمن به معرفة ويقينا أضفى الله على الإنسان أوصافاً . ومنحه صفات على صورة صفاته فجعله سميعا يسمع عنه وبصيراً ليبصر صفات مالكه ، ومريداً ليدرك معنى الإرادة ويريد ما أراد الله . ومعطياً ومانعاً ليتعرف إلى معانى المنع والعطاء . وقد ورد فى الحديث ما معناه : « إنَّ الله خلق آدمَ على صورته » أو كما قال . فإن وقف الإنسان عند صفاته وجحد نعمة ربه عليه ، وتمرد على موجده فقد تمرد وخرج عن القصد من خلقه وإيجاده . ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أى ليعرفون كما قال ابن عباس رضى الله عنهما . ولما كان الإنسان بواقع الصفات منه يميل إلى التحرر والخروج عن منطقة العبودية . حدّ الله له حدودا ، وأمره بأوامر ، ونهاه عن أشياء ، وجعل له جزاء إما ثوابا على الطاعة ، أو عقابا على المعصية يلقاه يوم يلقى ربه يوم القيامة أى فى اليوم الآخر . فطريق الإيمان بصفات الربوبية هنا هو الإيمان باليوم الآخر حيث فى الدنيا يتعذر على الكثير من الناس الفصل بين صفات الربوبية وصفاتهم بأنهم هنا مع صفاتهم وبصفاتهم . ولكن يوم القيامة ينقطع الإنسان عن صفاته قهرا . فلا يشاهد إلا صفات ربه . فيؤمن به قهرا إن لم يؤمن به طوعا هنا : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى السَّمَـٰوَاتِ وَ الأَرْضِ إِلاَّ آتِى الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾ .

والنار والجنة مفعولات لصفات الربوبية هذه الصفات القائمة أزلا وأبدا . والتى لا تزول ولا تنقطع فالجنة من أفعال صفات الجمال والفضل والرحمة . والنار من أفعال صفات الجلال والقهر والعدل . والإنسان بواقع جبلته وصفاته دعىٌّ مغرور ليثبت لنفسه صفات ربه تفردا وتحررا . ويتكر على ربه صفات فضله وعدله جحودا ونكرانا . لذلك خلق الله النار تخويفا للمؤمنين ليزدهم عن النكران والجحود لصفات ربوبيته ، وليظهر عدله يوم القيامة فيقيمه على الكافرين الذين أبوا إلا الاستقلال والجحود فى الحياة الدنيا فيظهر فضل الله على المؤمنين وعدله للناس أجمعين . وخلق الجنة ليقود المؤمنين إلى طاعة الله ، والاعتراف بربوبيته وصفات رحمته وفضله . إن الله يحب صفاته ولابد أن يتجلى على عبده بهذه الصفات فى الدنيا والآخرة ؛ حيث لا

انقطاع لصفات الألوهية . ولذلك لابد من الجنة والنار حيث لابد من الرحمة والعدل . والنفع والضر . والجزاء أى الثواب والعقاب على الإنسان يكون بالواقع من الصفات الإنسانية . فعلى حسب تحرره واستقلاله وجحوده يكون بعده عن ربه واحتجابه عن صفات خالقه ، وعلى هذا يكون غضب الرب وسخطه عليه . والنار مظهر لهذا الغضب وفعل لصفة العدل . وبهذا تحدد درجته فى دركات النار . وعلى قدر اعتراف الإنسان بصفات ربه وإنكاره لصفات نفسه واستقلالها . وانقياده لخالقه ، وخوفه من صفات جلاله . ومحبته ومشاهدته لصفات جماله وفضله ورحمته . والجنة فعل لصفة الرحمة ، ومظهر لها . وعلى قدر هذا تكون درجة العبد فى الجنة . وعلى ضوء هذا الفهم يجب علينا أن نؤمن بضرورة اليوم الآخر والإيمان باليوم الآخر معناه الإيمان بالجنة والنار ، والثواب والعقاب والرحمةو العدل وعلى ضوء هذا الفهم أحسب أن الفهم السليم لقول رابعة العدوية رضى الله عنها : لا أعبد الله خوفا من ناره ، ولا طمعا فى جنته أو ما معناه . إنها تعنى أن صفات الربوبية غيبٌ . فآمنت أولا بأفعال الصفات فى الدنيا وأنكرت على نفسها صفاتها . وآمنت بصفات الربوبية فى الآخرة فآمنت بالثواب والعقاب . وآمنت بالجنة والنار اللذين هما من أفعال الصفات فعبدت الله فى مقام الإيمان رجاء ثوابه ، وخوف عقابه وطمعا فى جنته وخوفا من ناره كما ورد فى حديث جبريل عليه السلام « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » وهذا مقام الإيمان . ثم لما سئل رسول الله ﷺ عن الإحسان أجاب عليه الصلاة السلام « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ... » الحديث . أو كما قال . ثم ارتقت فى هذا المقام فبعد أن كانت مع أفعال الصفات تجاوزت هذا المقام وارتقت عنه فعاشت مع الصفات أى مشاهدة للصفات . فَرَجَتِ الله لأنه مَرْجُوٌّ فى نفسه وخافته لأنه مخوف فى نفسه . لاخوفا من ناره ولا طمعا فى جنته فهى بهذا عبدته فى مقام الإحسان كما أشار الحديث السابق .

ويتطرق الفهم الخاطىء لقول رابعة من تصوراتنا الخاطئة وفهمنا البعيد لهذه المقامات لأننا نريد أن نضع أنفسنا فى نهاية المقام ونسينا أو ينسينا الشيطان

كيف بدأت رابعة رضى الله عنها ؟ ومتى قالت هذا القول ؟ أقالت فى بداية أمرها ؟ أم بعد المحبة والكمال والمعرفة . هذا ما يجب علينا أن نعيه ونتدبره كمؤمنين متبصرين خير من الخلط والاتهامات . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ونستغفر الله العظيم ونتوب إليه والحمد لله رب العالمين .

وإذا استعرضنا معشر الإخوان فاتحة الكتاب الكريم استطعنا بفضل الله وعونه أن نستشف منها المعانى السالفة الذكر :

﴿ الْحَمْدُ للهِ ﴾ تنزيه وتقديس ومدح وثناء على الذات العليّة المشار إليها بالاسم المفرد « الله » الجامع لمعانى الأسماء والصفات . صفات الجمال والجلال . هذه الصفات الكاملة الدالة جميعها وفى مجموعها على كمال الذات . ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ عوالم الدنيا وعوالم الآخرة وهما فى ذاتهما فعل لصفات الربوبية من حيث الخلق والإيجاد بدءاً . وفوق ذلك محل لظهور أفعال الربوبية إمدادا وإعداما . ومنعا وعطاء . وموتا وحياة ونشورا وتوفيقا وخذلانا فى الدنيا ، وجنة وناراً ، وثوابا وعقابا فى الآخرة . وأفعال صفات الربوبية والإيمان بها طريق إلى معرفة صفات الربوبية . ومشاهدة صفات الربوبية جمالا وجلالا سُلَّمٌ إلى معرفة الألوهية بالتنزيه والتقديس والتسبيح عن الشبيه والمثال . ونفى العجز والقصور والظلم . والاتصاف بصفات الكمال التى تفرد بها الكبير العزيز المتعال ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ رحمانيته التى هى صفة ذاته اقتضت أن يكون رحيما . وأن يتسم كل فعل من أفعال صفات ربوبيته بالرحمة . فالصحة رحمة لمن قام بشكرها وعرف مقام ربه وقدر نفسه . والمرض رحمة لمن شاهد لطف سيده ، وبرّ مولاه . والطاعة رحمة لمن شاهد توفيقه فشكر مولاه . والمعصية رحمة لمن كشفت له عن حقيقة نفسه . وألجأته إلى سيده وأوقفته على باب ربه ذليلا منكسر الخاطر ، والدنيا رحمة لمن امتطاها إلى معرفة مولاه . والجنة رحمة لمن دخلها . والنار رحمة لمن أبعدته عن نفسه . وقرّبته من ربه . وهكذا الرحمة فى كل شىء شاملة غامرة خاصة وعامة واسعة ومنتشرة ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ فالتقوى طريق إلى معرفة هذه الرحمة التى وسعت كل شىء ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ يوم الدين هو يوم الجزاء . يوم انكشاف صفات الربوبية يقينا وعيانا ﴿ يَوْمَ

﴿ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ يوم تفرد الله بالملكية لذلك اليوم يوم اعتراف الإنسان قهراً بملكية الله . وذلك على النقيض من يوم الدنيا ؛ حيث يَدَّعى الإنسان ـــ بواقع صفاته ـــ الملكية والقدرة والتحرر والانطلاق . حيث ظهوره بصفاته مما يحجبه عن صفات ربه . ويوم الدين ينقطع عن صفاته ويبقى بصفات ربه . وأفعال صفاته التى منها الجنة والنار والثواب والعقاب . فمن أفنى صفاته فى الدنيا بقى بصفات ربه فى الدنيا والآخرة وهذا هو القرب والطريق إليه . الإيمان بفعل الصفات والثواب والعقاب والجنة والنار ؛ حيث النفس البشرية بواقع صفاتها ترغب وترهب رغبة مادية وخوفا ماديا ؛ فإذا تهذبت وارتفعت خافت وَرَجَتْ . خافت الله فى صفات جلاله ، ورجته فى صفات جماله . ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ وعلى ضوء ما اتَّصَفْتَ به جمالاً وجلالاً وكمالاً نعبدك رغبة فى نعيمك ورهبة فى عقابك فى أول الأمر ، ثم نرتقى فنعبدك رجاء وخوفا لكمالك .

﴿ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بهذه الرغبة والرهبة . وبهذا الوعد والوعيد ، وبهذه الجنة والنار ، وبهذا الثواب والعقاب نستعين على أنفسنا التى لاتدرك ولا تعرف فى هذا الطور إلا الماديات المشاكلة لوصفها ، وطبيعتها المتحدة معها فى الخلق والحدوث حيث لا طريق إلى طاعة الله ومعرفته إلا بحمل النفس على طريقتها البشرية الموصوفة بأنها أرضية . ولابد لها من الرجوع إلى أصل طبيعتها . قال تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ نرجع إلى الله بطلب الهداية ونفزع إليه سبحانه ضارعين هاتفين داعين ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الذى عليه ربُّ العالمين بصفات جماله وجلاله . قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ولما كانت الهداية على هذا الصراط المستقيم متعذرة إلا على من هدى الله من عباده المؤمنين باعتبار الهداية منحة قال تعالى ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ وهم الذين عرفهم به بصفات جماله وجلاله فسلكوا الطريق إليه على ضوء آثار صفاته فعاشوا بين الجمال والجلال ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ وهم الذين جحدوا صفاته سبحانه وأنكروا أفعال صفاته ، ونسبوها إلى أنفسهم وإلى غيرهم ﴿ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ وهم الذين لم يتبينوا ولم يتضح لهم طريق الحكمة فى صفاته ولم يعلموا مدلولات

صفاته فأخطئوا الطريق إليه ، وضلوا السبيل .
أعاذنا الله وإياكم من الكفر بعد الإيمان . وثبت قلوبنا على المحجة البيضاء ووقانا شر أنفسنا والشيطان بمنه وكرمه وجوده إنه ربى ونعم النصير .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * * * *

لا ينال العبد محبة خالقه حتى يقف مع نفسه وقفة حاسمة

إخوانى :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : تلقيت خطابكم الكريم ، وتلوته شاكرا ربى لى ولكم نعمه وأفضاله ﴿ وَإِن تَعُدوا نِعْمَةَ اللهِ لاَتُحْصُوهَا ﴾ فالحمد لله والشكر له .

إخوانى : الطلب لقاح الإيمان ، فإذا اجتمع الإيمان والطلب أثمرا العمل الصالح . وحسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار إليه ، وإذا اجتمعا أثمرا إجابة الدعاء . قال تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ .

إخوانى :

النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب إليها منه وآثر عندها منه . وكلما قوى تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره . وكذا العكس . والتعلق بالمطلوب شدة الرغبة فيه . وذلك على قدر معرفته به وشرفه وفضله على ما سواه . قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴾ فالحب للعاجلة هو طبيعة الإنسان وجبلته الأمرالذى لا يمكن التخلص منه إلا بجهاد متواصل ، ونضال دائم مستمر . وقد نبهنا إلى ذلك ربنا سبحانه بقوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وقال أيضا : ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ وقد علمت إخوانى علم اليقين أنه لا سبيل إلى قطع هذا الأمر إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى وإلا فقطعه عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع . وقد ذكر الله سبحانه فى كتابه ماهية العاجلة وزوالها كما ذكر ضدها بالدوام والبقاء الأبدى : ﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ فمن أراد النفوذ إلى الله والدار الآخرة فلابد له من وقفة مع نفسه التى بين جنبيه ، وذلك أمر يقتضيه الإيمان بالله واليوم الآخر وهذه الوقفة مقصود بها إقناع النفس بفضل الآخرة ودوامها وبقائها ، وزوال الدنيا وفنائها . فإن الواقع من حال الدنيا يؤكد هذه الحقيقة التى لا مفر عنها ولا محيص . وهذا مما يساعد المؤمن على إقناع النفس وتحويلها إلى الآخرة والعمل لأجلها . ولما كان التحول الكلى بالنفس صعب المنال فى بداية الأمر وعَدَ الله المؤمن بتضعيف الأجر ، ومضاعفة الحسنات من عشر إلى سبعمائة ، وهذه

الزيادة لها أكبر الأثر فى سلوكه وتقربه إلى ربه ، ولولا هذه الزيادة التى وعد الله بها عباده لما كان لعمل المؤمن شأن يذكر فى حضرة القدس : فإن تقرب المؤمن إلى ربه هو بفضله عليه وإحسانه إليه ، وليس بعمل العبد ولا بفعله . قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ** ﴾ فالإيمان بالله واليوم الآخر هو الباعث على العمل فعلا وتركا . والجزاء من الله هو الذى يرفع درجات العاملين ويقربهم إلى الله رب العالمين . قال تعالى : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ وفى الحديث القدسى : « من تقرّب إلَىّ شبرا تقربت إليه ذراعا ، ومن تقرّب إلى ذراعا تقرّبت إليه باعا .. » الحديث . فالشريعة هى العمل . والحقيقة هى الثمر .. فمن غرس جنة فى الأرض جنى مئات الجنات قال تعالى : ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُون * أَأَنتُم تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُون** ﴾ ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ** ﴾ فكذلك الشأن أيها الإخوان فى الأعمال التى يعملها المؤمن للدار الآخرة . قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً** ﴾ فالإرادة مصدرها الإيمان ، والإيمان محله القلب ؛ فإذا كان الإيمان قويا وثابتا كانت الإرادة قوية ونافذة وعلى قدر قوتها ونفوذها يكون السعى ، وعلى قدر السعى يكون رضا الله ومحبته ، وقربه من عبده وعلى قدر قربه من عبده يكون الفيض والعطاء ، والتجلى والجزاء ﴿ **يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** ﴾ وقال عز وجل : ﴿ **وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ وقد علمت إخوانى وسادتى أن الإنسان بطبيعته يحب العاجلة ويذر الآخرة . والإنسان كمؤمن يحب الآخرة ويذر العاجلة . فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية فاستبان لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق المُوّصل إلى مقصوده والطريق الموصل إلى الهلاك . فهؤلاء أعلم الخلق ، وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم . وهم المرشدون إلى الهداية . ولهذا برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة ، فإنهم نشئوا بين أحضان الضلال والكفر وعرفوا السبل الموصلة إلى الهلاك بل عرفوها مفصلة ثم جاء

النبى المختار ﷺ فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم . فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام ومن الشرك إلى التوحيد ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الغى إلى الرشاد ، فعرفوا بهذا مقدار ما نالوه وظفروا به فأحبوه ومقدار ما كانوا فيه فأبغضوه ، فإن الضد يظهر الضد . وإنما تتبين الأشياء بأضدادها فازدادوا رغبة لما انتقلوا إليه ونفرة مما انتقلوا عنه كما بينت .

وقد علمت إخوانى أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فقهوا المعنى المراد من قوله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيرًا** ﴾ أرسلناك شاهدا لتوحيدنا مقرا بوحدانيتنا مبشرا برحمتنا ونعمنا وأفضالنا وإحساننا إلى عبادنا منذرا بوعيدنا وعذابنا لمن كفر بنا وبك . فقوله سبحانه ﴿ **إِنَّا** ﴾ يفيد ويتضمن معنى : لا إله إلا الله و ﴿ **أَرْسَلْنَاكَ** ﴾ يفيد ويتضمن معنى محمد رسول الله ، بالإضافة إلى بيان صفته وصلته بالله المرسل كما يشير إلى عظمته وشرفه وفضله حيث أنزل عليه القرآن ليقرأه على الناس رسالة منه تعالى إلى عباده ثم ذكر سبحانه بعد ذلك مضمون الرسالة ، وأساسها وحقيقتها وجوهرها فقال مبشرا برحمة الله التى وسعت كل شىء بيانا وتفسيرا لقوله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ فالرحمن صفته سبحانه فى الخلق والإيجاد والإمداد فى الدنيا والآخرة . والرحيم صفته سبحانه فى جزاء المؤمنين بالنعيم المقيم والخلود الدائم بلا انقطاع ولا انفصام ﴿ **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ فالرحمن اسم للذات والرحيم من أسماء الصفات قال تعالى : ﴿ **الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّين** ﴾ يتضمن الأصل الأول وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله وأسماؤه الحسنى المذكورة فى هذه السورة هى أصول الأسماء الحسنى . وهى اسم الله ، الرب والرحمن واسم الله متضمن لصفات الألوهية . واسم الرب متضمن لصفات الربوبية . واسم الرحمن متضمن لصفات الإحسان والجود والبر ومعانى أسمائه تدور على هذا وقوله : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ : يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه

ويرضاه . واستعانته على عبادته . وقوله ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ يتضمن بيان أن العبد لا سبيل إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم . وأنه لاسبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له ، كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونته . فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط المستقيم إلا بهدايته ، لأن الإنسان بحكم طبيعته يحب العاجلة ويذر الآخرة . ولذلك أرسل الله رسوله مبشرا ونذيرا ليدعو الناس إلى الآخرة بما يحببهم إلى طاعته وعبادته ، وينذرهم بعقابه وعذابه فى حال المخالفة والمعصية قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَى * وآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ وقال عز وجل : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ وهذا بيان لقوله سبحانه ﴿ مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ : مبشرا بالجنة ، ومنذرا بالنار . وقوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ تأكيد لما سيكون ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ كما هو بيان لتجريد الإنسان من الحول والقوة فى ذلك اليوم الذى يكون الجزاء على الخير والشر ، والطاعة والمعصية ، والكفر والإيمان . وقوله : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ يتضمن بيان طرفى الانحراف عن الصراط المستقيم ، وأن الانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذى سببه فساد القصد ، والعمل والانحراف إلى الضلال الذى هو فساد العلم والاعتقاد . فأول السورة رحمة ، وأوسطها هداية ، وآخرها نعمة . وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية ، وحظه فيها على قدر حظه من الرحمة . فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته . والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته فلا يكون إلا منعما رحيما . وذلك من موجبات ألوهيته . فهو الإله الحق وإن جحده الجاحدون ، وعدل به المشركون . فمن تحقق بمعانى فاتحة الكتاب : علما ومعرفة وعملا وحالا فقد فاز من كماله بأوفر نصيب وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتقت درجاتهم عن عوام المتعبدين والله المستعان .

وقد علمت إخوانى وسادتى أن الإيمان بالله واليوم الآخر تفصيلا هو سلاح المؤمن على نفسه التى تحب العاجلة وتذر الآخرة . والنفس هى المطية التى لاغنى للمؤمن عنها فى الدنيا والآخرة ولذلك لابد من إقناعها بالحصول والوصول إلى ما تشتهى وتحب من متاع الحياة التى هى أحب الأشياء إليها ، وذلك بعرض جزاء

الآخرة عليها تفصيلا ؛ فإنها فى هذه الحالة ترضى بالمتاع الموعود فتؤثر الحياة الآخرة على الدنيا لما ترى وتلمس من فناء الدنيا وزوالها حيث هذا واقع أمامها ومشهود لها ، وذاك موعود لها ومعروض عليها . قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ** ﴾ أما بغير هذا الطريق فلا يتيسر للإنسان قيادتها وسوقها .

وقد علمت إخوانى أن قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده . وهذا كما أنه فى الذوات والأعيان فكذلك هو فى الاعتقادات والإرادات : فللعبد رب هو ملاقيه . وبيت هو ساكنه فينبغى له أن يسترضى ربه قبل لقائه ، ويعمر بيته قبل انتقاله إليه . فعلى المؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر أن يحرص على وقته لأن إضاعته أشد من الموت حيث إن إضاعة الوقت تقطع المؤمن عن ربه والدار الآخرة . والموت يقطعه عن الدنيا وأهلها . والدنيا من أولّها إلى آخرها لا تساوى غم ساعة فكيف بغم العمر ! محبوب اليوم يعقب المكروه غدا ، ومكروه اليوم يعْقب المحمود غدا . وأعظم ربح للمؤمن فى الدنيا أن يشغل كل وقت بما هو أولى وأنفع للنفس فى معادها . قال بعض العارفين : يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين . بكاؤه على نفسه . وثناؤه على ربّه . سبحانك لا أحصى ثناء عليك ... إلخ .

فالدنيا عند العارفين كامرأة بَغىّ لا تثبت مع زوج وإنما تخطب الأزواج ليستحسنوا عملها . قال بعض الصالحين . « طائرُ الطَّبْع يرى الحَبّ وعين العقْل ترى الشَّرك ».

أيها الإخوة الكرام : لا تتم الرغبة فى الآخرة بمعنى العمل لها والسعى إليها إلا بعرض المبشرات على النفس بصورة محسوسة ، ودرجة ملموسة كأنك راحل إليها بعد قليل من الوقت . وليس ذلك ببعيد ولا غريب ما دام الأمر لله وحده وليس لسواه . وهو الفعال لما يريد . أما مطلق الإيمان بوجود الآخرة فذلك أمر طبعى لكل مؤمن بالله ولو كان من أهل الكتاب . وقد أمرنا الله سبحانه أن ندعوه فى اليوم مرات ومرات بألا يجعلنا من المغضوب عليهم الذين يؤمنون ببقائها ودوامها ولا من الضالين الذين لا يسلكون الطريق السليم الحنيف . فالفرق كبير بين مطلق الإيمان والإيمان المطلق . قال تعالى : ﴿ **الٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ *

هُدىً وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وقال تعالى فى آية أخرى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فالإيمان بالمبشرات التى جاء بها الرسول صلوات الله وسلامه عليه يتولد منه اليقين المشار إليه فى هذه الآيات وغيرها فى الكتاب المبين . ومشهود أيها الإخوة ومعلوم أن النفس البشرية كما وصفها الله مولعة بحب العاجلة وترك الآخرة فمن أراد نقلها من حالة مشهودة إلى حالة موعودة لابد له من استبدال مكان بمكان . وذلك لايكون إلا بالنظر إلى الآخرة وإقبالها ومجيئها ولابد من دوامها وبقائها وشرف مافيها من الخيرات . والتفاوت الذى بينها وبين ماههنا فهى كما قال الله : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ فإذا تم له هذا النظر آثر ما يقضى العقل إيثاره وزهد فيما يقتضى الزهد فيه . فكل أحد مطبوع على أنه لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الباقية المنتظرة إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل والله وحده الموفق والمعين .

* * * *

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾

بم كرّم الله الإنسان . ؟ وما الحكم إذا جعل المؤمن من غايته مجاهدة نفسه . ؟

إخوانى الأعزاء .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته التى وسعت كل شىء . وأحاطت بكل شىء . وشملت كل شىء ؛ فكانت لنا الحياة التى نحياها ونحبها ونحرص عليها حرص الدوَابّ والحيوانات شركائنا فيها ـــ سواء بسواء ـــ ولكن الله تبارك وتعالى ميّزنا بالعقل . وفضلنا بالإدراك ، وأكرمنا بالإيمان والعلم فقال عز وجل : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ* الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ** ﴾ الأمر الذى يقتضينا أن ننظر إلى هذه الحياة المشتركة بعين الوسيلة إلى حياة أعلى وأفضل من هذه الحياة التى نحياها فى الدنيا بصورة تختلف تماما عن حياة شركائنا فيها كما هو شأننا فى الاختلاف الكبير الذى بيننا وبينهم فى الممارسة لها وبها باعتبارها وسيلة لا غاية . فإن المشاركة بيننا وبينهم خاصة ببعض الغرائز الوجودية التى لابد منها لكل موجود فى الدنيا سواء أكان إنساناً أم حيواناً . ولما كان وعد الله حقا لا مفر منه ، ولا محيص عنه حيث لا تبديل لخلق الله ولا لسننه : فقد خلق الله الدنيا والآخرة كما هو الشأن فى خلق كل شىء من زوجين والذى يهمنا الآن معرفة موقفنا من الدنيا والآخرة .

أكرمنا الله بالإيمان به وبرسوله واليوم الآخر . وذوقنا طعم الحياة فى الدنيا لندرك طعم الحياة فى الآخرة التى لابد منها ولامحيص عنها ثم علمنا ماهية الحياة فى الآخرة كيفا وكما فحبب إلينا الحياة الدنيا بصورة لا يمكن الفكاك عنها ، ولا التخلص منها ؛ لأنها ليست كسبية . إنما هى غريزية يقابلها كراهية الإنسان للموت وفراره منه . كما هو شأن الأحياء جميعا . ولما كانت هناك حياة أخرى لها صفة الحياة فى

الدنيا أنزل الله الكتب وأرسل الرسل ليدعو الناس إلى تلك الحياة الأبدية التى يؤكد حصولها ووقوعها . وأكد انقطاع هذه الحياة الدنيا وذلك أمر مشهود لنا لايمكن تجاهله ولا إنكاره . قال تعالى : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** ﴾ .

ولما كان للإنسان طبيعته الغلاَّبة بحكم بشريته التى خلقه الله عليها وبها . الأمر الذى يشده إلى إيثار هذه الحياة التى يحياها فى الدنيا خلق الله الجنة ودعاه إليها لئلا يكون له حجة . فلله الحجة البالغة ثم عرض عليه ما فى الجنة من متاع وسعادة . وزكاه ترغيبا له فى السعى إليها والعمل لأجلها . وهذا العرض متفق تماما مع غرائزه وشهواته التى يعيش بها فى الدنيا . ولما يعلم الله من حقيقة هذا الإنسان فى تعلقه بالحياة الدنيا بحكم بشريته قال : ﴿ **وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ وقال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الأَرْضِ وَلاَفَسَاداً** ﴾ وهم الذين لايريدون علوا فى الحياة الدنيا بمعنى الإيثار لها تبعا للغرائز والشهوات بل يسمون بأهوائهم ويعلون بها تبعا لأمر الله وقضائه فإن قوله تعالى : ﴿ **لَا يُرِيدُونَ** ﴾ يفيد أن المؤمن رغم ممارسته للحياة الدنيوية كسائر الناس شركائه فيها يفترق عنهم بنيته وإراداته التى يبتغى بها وجه الله والدار الآخرة على ضوء شريعة الله وسنة رسوله ﷺ . وقال سبحانه وتعالى فى آية أخرى ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَ لاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ هى حياة العبودية لله فى تصرفاته وجميع أحواله : ﴿ **وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ** ﴾ الذى خلقك لطاعته وعبادته إيمانا بقوله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ ﴿ **وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأَرْضِ** ﴾ كما هو شأن الذين لايؤمنون بالله ورسوله والدار الآخرة . والأشكال الأخرى من الحيوانات والدواب التى تعيش فى الأرض وقال تحذيرا فى هذا ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ** ﴾ .

ولما كان للإنسان صفاته البشرية وغرائزه الحيوانية التى يصعب عليه التخلص منها مهما بلغ من إيمان وجهد وعده الله بالعَوْن إذا اتجه إليه بالطاعة والعبادة كما

وعده بمضاعفة حسناته ، والله يضاعف بفضله لمن يشاء على قدر صدقه وإخلاصه فى توجهه إلى ربه سبحانه : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وبهذ نعلم أن الإنسان ـــ من حيث هو إنسان ـــ لا يمكن أن يبلغ مراد الله منه إلا بفضل الله ورحمته وتوفيقه وإعانته لأن أعداءه أشد منه بأساً وأشد قوة وشكيمة أى : النفس ، والشيطان ، والدنيا ، والهوى . فهم أربعة وهو واحد . ولذلك قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أى طريق الخلاص من هؤلاء الأعداء وطريق التخلص من الطبائع البشرية اللازمة للحياة الدنيا . إن الله مع المحسنين : وهم الذين جاهدوا فينا . وقد ذكر الله كلمة « فينا » لنعلم أن المقصود من الجهاد معية الحق لا معية الباطل(النفس والشيطان)، وقد علمت إخوانى : أن الاشتغال بأمر النفس فساد وضلال ؛ حيث المطلوب الاشتغال بأمر الحق . كما علمت أن من يريد العلو فى الدنيا لابد له من مجاهدة النفس حتى يحقق ما يريد . ومثل هذه المجاهدة لا تقربه إلى الله لأنها من رغبات النفس ومن دواعيها . فإن المؤمن الحق لا يرحل من كون إلى كون ، ولكن يرحل من الكون (النفس) إلى المكوِّن ؛ لئلا يكون كحمار الرحى الذى يدور حول محور واحد . أعاذنا الله وإياكم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

إخوانى : لقد أمرنا الله بطاعته وعبادته ، ثم ذكر لنا فى كتابه وبين لنا على لسان رسوله ﷺ المطلوب منا كيفا وكماً ، ثم ذكر لنا أوصافنا البشرية وصفاتنا الإنسانية التى نحن عليها فى الحياة الدنيا تنبيها وتحذيرا ، ثم ذكر لنا العدو بصفاته وأعماله ، وملازمته لنا مدى الحياة ، وحذرنا من طاعته وعبادته ثم وعدنا بالرعاية إذا رجعنا إليه سبحانه بالدعاء والافتقار ، والتوبة والاستغفار . ولم يكلفنا أبدا بالدخول فى نضال وحرب ومعركة لأنه غير مرئى لنا إلا بوسوسته واعتراضاته ، وإضلاله وإغوائه إيذانا بأنه لا يملك أكثر من ذلك . فقال : ﴿ وَ إِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الأمر الذى يؤكد لنا هوانه وضعفه وقِلَّة حِيلَتِهِ بالنسبة للنفس . فإنه لم يضف إليها ما أضفى إليه لأنها مطيتنا إليه والدار الآخرة . ولكن رسول الله ﷺ حذرنا من النفس بقوله عليه الصلاة والسلام : « إن أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك » أو كما قال ، ولما كان لاغنى للإنسان عن نفسه فى الدنيا والآخرة لم يذكرها الله فى كتابه بعداوة

مماثلة لعداوة الشيطان الذى قال عنه : ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ إنما قال بعد وصفها بالفجور : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ لأن الشيطان من الممكن أن نتخلى عنه. لكن النفس هى الحياة ، وهى مدار التكليف ، ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ فمن قضى عليها بالجهاد فى سبيل الله كان شهيدا فى الدنيا والآخرة . ومن هنا نعلم يقينا أن المطلوب منا امتثال أمره ، واجتناب نهيه ، وإذا حصل ذلك للمؤمن برغبة صادقة وعزيمة جادة فإن الشيطان يخنس . وحينئذ تتصالح النفس مع صاحبها وتصبح منقادة ذليلة خاشعة . قال تعالى فى بيان هذا : ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ .

وقد علمت إخوانى : أن الاشتغال بالنفس انحراف وبطالة ، وزيغ وضلالة حيث المطلوب معرفتها والحذر منها . وعدم الاطمئنان إليها مهما بلغت من الشأن فى هذه الحياة . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ لقد بين الله بهذه الآيات الكريمة مسلك النفس وطريقها إلى الدارين فمن تركها وشأنها آثرت العاجلة عن الآجلة ؛ وسبب هذا الإيثار : عدم الإيمان ، أو ضعفه ، أو غفلة الإنسان المؤمن . وقد وصف الله فاعل هذا بالطغيان كما وضحت الآيات . ومن خلال الآيات الكريمة يدرك المؤمن أن حاجة الإنسان إلى الحياة الدنيا قائمة ومتصلة لاغنى لنا عنها ولا مفر منها فهى مطلوبة بأمر الله قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ فمن أخذها بحظه وهواه دون التزام بشريعة الله وإذنه أخذ وصف الكافر الذى لا يؤمن باليوم الآخر ولو كان مؤمنا أو مسلما ولذا قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ لأن الطغيان نتيجة الانطلاق الذاتى من جانب الإنسان دون التقيد بشرع ولا ارتباط بدين. ولما كان الطغيان من جانب النفس أمرا خفيًا لايعلمه إلا الله ذكر آثاره فى حياة الإنسان بقوله : ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ ﴾ بأقواله وأعماله وأحواله . ثم ذكر بعد ذلك

مصيره فى الدنيا بعمله وفى الآخرة بالجزاء فقال : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِّلطَّاغِينَ مَآباً * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً * لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً * إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً * جَزَاءً وِفَاقاً * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً ﴾ ثم بين بعد هذا مصير المؤمنين فقال : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً ... ﴾ إلخ وهؤلاء أخذوا نصيبهم من الدنيا . بمنطلق الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر . ولذلك وصفهم الله بالتقوى لأنهم أخذوا بالأساليب الشرعية فى تكييف الحياة الدنيا التى يشترك فيها الناس جميعا . وهم الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ بحكم إيمانه به وإيمانه بأسمائه وصفاته ، ووعده ووعيده الأمر الذى يترتب عليه سلوكٌ معيَّنٌ فى الحياة الدنيا فكان بمثابة نهى النفس عن هواها فى مباشرة الحياة التى عليها مدار التكليف لأن من خاف مقام ربّه توجه إليه بمحابه ومراقبته ومن كان هذا شأنه فلا يعبأ بنفسه ، ولا يشعر بوجودها . إنما يأخذ طريقه قدما إلى الله والدار الآخرة قال تعالى : ﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ ومن هنا نعلم أن معنى نهى النفس عن الهوى مقصود به الانتظام على الصراط المستقيم سلوكا وعملا . فمن فعل هذا فقد نهى النفس عن الهوى أى سّد عليها الأبواب والطرق التى توصلها إلى الفساد فلا مجال لها ولا فراغ لدخول الشيطان عليها أو الوصول إليها ؛ لأنها اشتغلت بالحق فلا طريق للباطل ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ .

وإلى لقاء آخر أستودعكم الله . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * * *

الرسول ﷺ هو المثل الأعلى للمؤمن فى سلوكه ، وسيره إلى الله

إخوانى الأعزاء :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فلعلكم جميعا بخير بمحض فضل الله ورحمته التى يسير بها هذا الكون خلقا وإيجادا وإمدادا معنى ومبنى . ويدرك بها الإنسان ماله وما عليه من خير وشر . هذا الإنسان الذى يتصور نفسه كأنه ربّ هذا الكون خلقا وإيجادا . وسبب هذا جهله وغروره ، وضلاله وفجوره ، ولأنه كذلك حقيقة ذكره الله تعالى بهذه الأوصاف فى كتابه العزيز ، حيث قال جل شأنه : ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾ ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ** ﴾ ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ** ﴾ .

ولكى يخلص الله الإنسان من هذه الصفات دعاه إلى الإيمان بكل ما جاء به تفصيلا وإجمالا ثم أرسل رسوله ليبين للناس مانزّل إليهم قولا وفعلا وحالا : ولما يعلم الله من حال الإنسان تكوينا وتركيبا اختار الرسول منهم ، وأعطاه من صفاته ما يشد أزره ، ويعلى شأنه ويقوى حجته ، وينصر كلمته ، ويرفع ذكره ؛ ولذلك أخذت الدعوة طريقها إلى الانتشار سريعا ، ونفاذا وبصُورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الدعوات . وقد بلغ أصحابه رضوان الله عليهم قمة الإسلام والإيمان و الإحسان فى المدى القصير من الزمن ، لأن الدعوة كانت فى عهده ﷺ تسير فى ظلال النور الربانى الذى أكرم الله به الرسول ﷺ ﴿ **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ** ﴾ الكتاب يتلى والرسول يبين ، الكتاب يأمر وينهى ، والرسول عليه الصلاة والسلام يعمل ويترك ، ويشرع بنور الله الذى خصّه به ، ودلّه عليه . لذلك قال تعالى : ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ** ﴾ والآيات التى وردت فى هذا الشأن عديدة وكثيرة لاحصر لها . وإذا قلت القرآن كله نَبْضُ هذا المعنى فلا حرج ، ويكفى المؤمن فى معرفة الرسول ﷺ واتباعه والاقتداء به فى جميع

أعماله الدنيوية والأخروية قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾ فالرسول ﷺ هو المثل الأعلى لكل مؤمن فى سلوكه وأعماله ، وسيلة وغاية . ولولاه ما عرفنا الحق ولا اهتدينا : شأنه فى الهداية لنا شأن الشمس نور بالنسبة لأبصارنا ، ولذلك أمرنا باتباعه ، وكلفنا بحبه وتعزيره وتوقيره وتسبيحه لأن حصول هذا يقتضى الصدق والإخلاص فى عبادة الله وحده لا شريك له .

وقد وحّد الله نفسه فى سورة الإخلاص ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ كما وحد الرسول لله فى الاتباع بسورة « الكافرون » ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ .. ﴾ السورة . وليكون الصدق والإخلاص فى عبادة الله وحده : وصف الله رسوله ﷺ بالكمال البشرى ليسوقنا إلى محبته ، ويرفعنا إلى مودته لمايعلم سبحانه من حبّنا لأنفسنا وحرصنا الشديد على الحياة السعيدة الدائمة بلا مكروهات ولا منغصات . وذلك ما تضمنه قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فهذا هو الرباط القوى والصلة المتينة التى بين المؤمنين وبين الرسول ﷺ الذى أرسله الله ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ وكما قال هو عليه الصلاة والسلام « إنما أنا رحمةٌ مُهداة » أو كما قال . فمن كان هذا شأنه . وهذا وصفه فى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كيف لا يحبه أكثر من نفسه من آمن به ، واستمع لدعوته . فالعبرة بالمعانى لا بالمبانى . ﷺ . فانظروا إخوانى إلى أهل الكتاب لماذا كفروا بالله وهم يؤمنون بالله ورسلهم واليوم الآخر ؟ لأنهم لم يؤمنوا برسوله . ولم يحبوه بل حاربوه وأبغضوه فبم نتميز نحن عنهم ؟ ! بالإيمان والحب والقرآن المنزل على رسول الله ﷺ بالإضافة إلى مشاركتهم الإيمان بالرسل السابقين ، والكتب المنزلة عليهم من الله تعالى . وبهذا نعلم أن تفاوت درجات المؤمنين عند الله عز وجل بقدر صلتنا بالله معبودا ، وبرسول الله ﷺ اتباعا واقتداء . وبحبهما فناء وشهودا : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فانظروا أيها الإخوة إلى المقصود من الاتباع نظرة فاحصة ونفاذة . لاشك

أنكم ستجدون المسافة بيننا وبينه ﷺ بعيدة ، وإن كنا على الصراط بقدر معلوم . وعلى الطريق بحد مرسوم . ولكن الجوهر يكاد يكون مفقودا . فالحمد لله الذى أكرمنا بهذا القدر الذى ميّزنا به عن الكفار والعصاة من المؤمنين .

فقد علمت إخوانى أن كل من يصلى ويصوم ويزكى ويحج ويعتمر فهو لا شك على قدر من الاتباع . ولكن هناك انحراف كبير فى المعاملات والأخلاقيات التى أشار إليها الرسول ﷺ بقوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، وهناك انحراف فى العقائد ، وهناك إيثار واضح للدنيا على الآخرة ، ونحو ذلك مما نجده فى أنفسنا وسبب هذا كله : عدم ارتباطنا برسول الله ﷺ أى من بداية الدعوة ، حيث كان التوحيد الخالص لله عز وجل ، والإيمان باليوم الآخر ثوابا وعقابا . فأين نحن من الاتباع لرسول الله ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبشراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً** ﴾إذن فلابد لنا من وقفة جديدة نشطة ومتحركة ، قوية نفاذة حول الكلمتين العظيمتين : فإذا نظرنا إلى (الكاف) و (نا) فى أرسلناك نجد أن مدلولها : الله . والمبلّغ رسول الله والمبلَّغ : هم أمته . وإذا ما نظرنا إلى ماوراء هذا نجد الجنة وما فيها من المتاع الأبدى ﴿ **عَرْضُها السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ وإذا نظرنا إلى كلمة نذيرا : وجدنا أنفسنا بجميع صفاتها البشرية وأوصافها الخلقية فمن أراد الاتباع الحقيقى لرسول الله ﷺ : فعليه لزاما البدء بما بدأ الله به تصديقا مقترنا باليقين الكامل الذى يسوق صاحبه سوقا حارا وساخنا بدافع الحب والشوق أشد حالا ومقاما من حاله ومقامه حين يبكر إلى عمله الدنيوى صباحا ، وإلى أهله وولده ومعاشه ظهرا ومساء . ومن نظر إلى قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ نظرة جدِّية تلهف إلى ملاقاة رسول الله ﷺ ، مستجيبا لدعوته ، محبا له ، مؤثرا ما جاء به على ما تهوى نفسه وترغبه ، شأنه فى التعلق به ـــ اقتداء وتأسيسا ـــ كشأن الصائم فى اليوم الحار فى التعلق بالماء البارد عند الإفطار مع ملاحظة الفرق الكبير بين المتعلق بالماء البارد والمتعلق برسول الله ﷺ !! لأن لذة الماء محدودة ومقيدة بوقت ، ولذة الاتصال بالله ورسوله واليوم الآخر ممدودة وغير مقطوعة . بل هى فى زيادة مستمرة ، وشوق متزايد وعلى كل حال أقول لإخوانى : إن من

أراد عُلوّ بنيانه فعليه بتوثيق الأساس وإحكامه وشدة الاعتناء به ؛ فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه . فالأعمال والدرجات بنيان : أساسها الإيمان بالله . ومتى كان الأساس صحيحا وثيقا حمل البنيان واعتلى عليه ، فإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه . وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ، ولم يلبث أن ينهار أو ينهدم . فالعارف بالله همته تصحيح الأساس وإحكامه . والجاهل يرفع فى البنيان من غير أساس . فلا يلبث بنيانه أن يسقط . قال تعالى : ﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ** ﴾ .

قال بعض العارفين : ما علمت أحدا سمع بالجنة والنار تأتى عليه ساعة لايطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو إحسان . فقال له رجل إنى كثير البكاء . فقال : إنك إن تضحك وأنت مقر بذنبك خير من أن تبكى وأنت مُدِلٌّ بعملك ؛ فإن المدِلّ لايصعد عمله فوق رأسه . فاعلموا إخوانى أنه لاينتفع بنعمة الله بالإيمان والعلم إلا من عرف نفسه ، ووقف بها عند قدرها . قال تعالى : ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدرٍ** ﴾ ولما يعلم الله سبحانه من حقيقة الإنسان نوعا وكيفا حذرنا من مجاراة النفس واتباع هواها : بل قيدنا بهوى رسول الله ﷺ ؛ لما يعلم من أن الحياة فى الدنيا والآخرة لا وجود لها ولا حركة إلا بهذه النفس التى سواها فألهمها فجورها وتقواها . فكما لاحياة ولا زمن فى الدنيا إلا بشروق الشمس وغروبها كذلك لا حياة فى الدنيا والآخرة إلا بالنفس ووضعها ولذا قال عز وجل : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ وللتزكية معان كثيرة أحسبنى تعرضت لها مرارا وتكرارا ولا مانع عندى من تلخيص جديد بالإضافة إلى ماذكر من قبل ، ومن تخصيص واضح لمعنى التزكية ، فقد اقتضت حكمة الله وشاءت إرادته أن يكون للإنسان حياتان : عاجلة ــ وآجلة . فالأولى فانية وزائلة ، والأخرى باقية ودائمة . فبالفانية يدرك الإنسان معنى الحياة ويذوق طعمها ، فالحياة من حيث هى يحبّها الإنسان حبّاً جماً لأنها مستمدة له من الروح الذى هو من أمر الله الحى القيوم . فحب الحياة صفة من صفات النفس ، ولذلك وعد الله المؤمنين بحياة أعلى وأفضل من هذه الحياة ، وبمتاع أوسع بصورة لا مثيل لها فى هذه الحياة الزائلة ﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ** ﴾ قليل بالنسبة

للمتاع المقبل عكس المتاع المحدود والموقوت .

ولذلك كان أول العرض من الرسول ﷺ هذه الحياة مقترنة بأوسع معانى المتاع الحسى ، والذوقى والمعنوى . الأمر الذى يحمل الإنسان على الإيمان والطاعة والعبادة طواعية ، غير مبالٍ بما يلقى ويبالى من المشاق والمصاعب فى الطريق إلى تلك الحياة العزيزة العظيمة ، قال تعالى : ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ** ﴾ ولا يتأتى هذا بمجرد الخير العام . إنما يتأتى بالتصديق ؛ وليكون هذا التصديق واقعيا : لابد من ربط الأعمال بالآخرة فعلا وتركا وهذا حاصل منا فى الحياة الدنيا بصورة محسوسة وملموسة لا يسعنا تجاهله أو إنكاره . مع عدم الضمان للبقاء فى الدنيا لحين الظفر بالنتيجة . فإذا كان هذا شأننا فى أعمال الدنيا التى لا قطع فى الانتفاع بها حيث الموت ماثل أمام أعيننا فى كل لحظة !! فكيف الشأن فى أعمال الآخرة التى لا فوت فيها ولا انقطاع عنها ؟؟ عجبا للمؤمن !! كيف يغفل عن هذا ؟؟ ومع هذا يزعم الإيمان بالآخرة وثوابها . إذاً هناك خلل فى العقيدة . وفى الإيمان بوعد الله ووعيده . وبهذا نعلم أن التزكية مراد بها تخصيص النفس بفجورها وتقواها للحياة الأخرى . وذلك بمعنى ترشيحها وإعلائها وتعظيمها وتكبيرها بوضعها فى المقام الذى خلقها الله لأجله : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ أما التدسية فشركها مع هواها فى الحياة الدنيا . فانظروا إخوانى إلى الأب كيف يعنى بتربية ولده باذلا فى ذلك كل جهده ليكون له شأن مرموق وحظ مأمول فى حياة لا دوام لها . يبذل هذا كله لأنه كفيله ووليه ومسئول عنه حتى العاجز من الآباء يحرص ويتمنى فإذا كان هذا شأن الوالد مع الولد فكيف حال المؤمن وشأنه مع نفسه التى بين جنبيه وهو المسئول عن ذلك أولا وآخرا . فمن ترك نفسه وإرادتها شأنه شأن من ترك ولده بلا تعليم ولا تربية . فالأول فعل ذلك بالنسبة للآخرة ، والثانى فعل ذلك للدنيا ، فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى ، أو كما قال . فالنفس المؤمنة لها أهميتها الكبرى عند الله لأنها مباعة إليه ومشتراة له وبذلك أصبحت وديعة عند صاحبها لا يملك حق التصرف فيها إلا بإذن الله مالكها . الذى خلقها وسواها فألهمها فجورها وتقواها . قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ**

الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ أماالثمن فهو الجنة . وهذه المبايعة حصلت بمعرفة ووساطة رسول الله ﷺ : قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وقد عرض الرسول ﷺ نفسه — الطاهرة المزكاة — بدلا من نفوسنا . ولكى يكون العرض مقبولا ومستساغا ومقنعا قدَّم لنا بأمر الله الجنة الجامعة لكل محبُوبات النفس البشرية من اللذات الحسية والمعنوية التى لاحصر لها ولا إحاطة بها مادامت حياتنا فى الدنيا . وقال « ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة » وهذا ما عناه الله بقوله ﴿ مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ وبهذا نعلم أن ما كلفنا الله من أوامر ونواه ، بالإضافة إلى المدة اليسيرة التى سنقضيها فى الحياة الدنيا لاتساوى ذرة من نعيم الجنة بالإضافة إلى صفة الخلود الدائم فيها ، وليكون بعض التكافؤ بين الحالين جعل الله الحد الأدنى للحسنة عشر أمثالها ، والحد الأعلى لانهاية له . فلا بد لنا أيها الإخوة الكرام من بداية جديدة نصحح بها موقفنا ، ونصلح عليها حالنا فنتجه بها إلى الدار الآخرة بهمة عالية ، ونية صحيحة وصالحة فى كل ما يصدر منا من أقوال وأفعال وأعمال ، بقدوة معصومة ، ورسالة منيرة ومشرقة هى الرسول . وهو بشر مثلنا يمشى على الأرض بنور الله الذى يربطه بالسماء ويدنيه من عالم الغيب وحضرة الله فى صورة الشهود والاستغراق كأنه ليس من عالم الأرض ، ولا من أهلها . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ فإذا فعلنا ذلك بتوفيق الله وإعانته أكرمنا الله بالاستقامة على الصراط المستقيم الذى عليه رب العالمين . ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فإذا صدقنا قول الله تعالى فى بدء الرسالة ومبشرا

ونذيرا ارتبطنا بالله معبودا ، وبالرسول متبوعا ، وبالجنة وسيلة وغاية : تنزلت علينا الملائكة بما يناسب المقال من حال ومقال ، وفى النهاية بإتمام النعم والكمال قال تعالى : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ فالكفاية التامة مع العبودية التامة ، والناقصة مع الناقصة . فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . وهؤلاء هم عباده الذين ليس لعدوه عليهم سلطان . قال تعالى : ﴿ إِنَّ

عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ ولما علم إبليس أن الله لا يسلم عباده إليه ولا يسلطه عليهم : قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين . فالله سبحانه وتعالى لم يجعل لعدوه سلطانا على عباده المؤمنين فإنهم فى حرزه وحفظه وتحت كنفه . فإذا ما ابتلى الله عبدًا من عباده المؤمنين بالغفلة أو الشهوة أو الغضب ـــ ودخول العدو على العبد لا يكون إلا من هذه الأبواب الثلاثة ـــ ولو احترز العبد ما احترز فلا بد له من غفلة ولابد له من شهوة ولابد له من غضب . وقد كان آدم أبو البشرية من أحلم الخلق وأرجحهم عقلا ومع هذا فلم يزل عدو الله به حتى أوقعه فيما أوقعه . فما الظن بأمثالنا الجهلاء والحمقى . فالعدو لايخلص إلى المؤمن إلا غيلة وعلى غرة وغفلة فيوقعه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ .

وقد علمت إخوانى : أن الله إذا أراد بعبده خيرا فتح الله له أبواب التوبة والندم والانكسار ، والذل والافتقار والاستعانة به . وصدق اللجوء إليه . ودوام التضرع والدعاء . والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ؛ فالتوبة من أفضل الحسنات . وقد تكون السيئة سبب رحمة الله على عبده حتى يقول عدو الله : ياليتنى تركته ولم أوقعه . وهذا معنى قول بعض السلف : إن العبد ليعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفا منه وجلاً . باكيا نادما . مستحييا من ربه ناكس الرأس بين يديه منكر القلب له فيكون ذلك أنفع له من طاعات كثيرة لما ترتب عليه من هذه الأمور التى كانت بها سعادة العبد وفلاحه ؛ حتى يكون ذلك الذنب سببا لدخوله الجنة . ويفعل الحسنة فلا يمن بها على الله وينكسر بها . أما من يرى نفسه شيئا ويعجب بها ويستطيل بها ويقول فعلت وفعلت فيورثه هذا من العجب والكبر ، والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه . فإذا أراد الله تعالى بعبده خيرا ابتلاه بأمر يكسره به ويذل عنقه ، ويصغر نفسه عنده . وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره . وهذا هو الخذلان الموجب للهلاك .

وفى الحديث « لولا الذنب لهلكت أمتى بالعجب » أو كما قال . فالعارف بالله سائر إلى الله تعالى أو يسير إليه بمشاهدة المنة ، ومطالعة عيب النفس ، فإذا فقد أحدهما صار كالطير الذى فقد أحد جناحيه . وهذا معنى حديث سيد الاستغفار : « أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى فاغفر لى » فالعبودية مدارها

على قاعدتين : حبٌّ كامل ، وذل تام . فإن مشاهدة المنة تورث المحبة . ومطالعة عيب النفس والعمل تورث الذل التام : فإذا بنى العبد سلوكه إلى الله تعالى على هذين الأصلين لم يظفر عدوّه به إلا على غفلة وغرة وغيلة . حينئذ يتداركه الله برحمته سريعا فيجبر كسره ، ويجمع شمله عليه : ﴿ **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ فما أسهل الكلام والدعوى !! وما أصعب العمل !! وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان .

واعلموا إخوانى : أن تفاضل الأعمال عند الله تعالى يكون بتفاضل ما فى القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة فلنبحث معاً عن الإيمان بالله وهو فى قلوبنا ـــ بفضل الله ورحمته ـــ جامد راكـــد وقد يكون متحركا ولكن ببطء وذلك عند المناسبات حين تكون النفس بارزة بشهواتها ، والشيطان متفاعلا معنا بصورة غير مرئية . أعاذنا الله وإياكم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

إخوانى :

لا خلاص إلا بالله ، ولا إخلاص إلا بتوفيقه وإعانته فهيا إلى باب الله الذى لا يغلق فى وجه أحد من عباده المفتقرين إليه بذل العبودية ، وعز الربوبية . فوالله الذى لا إله إلا هو : للحظة العبد مع ربه بذل العبودية وعز الربوبية خير من الدنيا وما فيها فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ ، فالعَجل العَجَل إلى محاسبة أنفسكم قبل أن تحاسبوا ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ صدق الله العظيم .

* * * *

أسلحة النّصر

أيها الإخوان الكرام :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فى كل حركة وسكون وفى كل طرفة عين . فإنه لولا رحمة الله التى وسعت كل شيء لما كنا . ولما كان وجود ولا موجود . ولا دال عليه . ولا مرشد إليه . فالحمد لله الذى أكرمنا بنعمة الإسلام فاختار لنا الإيمان الذى نحن عليه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . بسم الله والحمد لله . ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

أيها الإخوة الكرام أقول لكم ولنفسى ولمن يريد أن يعلم الحق من ربه : إن الهداية إليه سبحانه بيد الله وحده . مالك الملك ذى الجلال والإكرام . أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ ، إخوانى لو كانت الهداية بيد الإنسان لما اهتدى إليه أحد . ولو كانت بمجرد العلم والعقل لما عرفه أحد . ولذلك أرسل الرسل إلى الناس صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . والناس إذ أرسل إليهم الرسل بين أمرين : إما أن يقول أحدهم آمنا ، وإما أن لا يقول آمنا بل يستمر على عمل السيئات . فمن قال آمنا امتحنه الرب عز وجل وابتلاه ، وألبسه الابتلاء والاختبار ليبين الصادق من الكاذب . ومن لم يقل آمنا فلا يحسب أنه يسبق الرب فى التجربة . فإن أحدا لن يعجز الله تعالى فهذه سنته .

إخوانى :

لقد أكرمنا الله تعالى بالإيمان ــ فضلا منه ورحمة ــ فالتخلف عن سلوك الطريق الموصلة إليه إما من عدم البصيرة ، وإما من عدم العزيمة . فالطلب لقاح الإيمان . فإذا اجتمع الإيمان والطلب أثمرا العمل الصالح . وصحة الاقتداء بالرسول صلوات الله وسلامه عليه لقاح الإخلاص فإذا اجتمعا أثمرا قبول العمل والاعتداد به . وقد علمت إخوانى : أن طالب الوصول إلى الله والدار الآخرة

يحتاج أن يكون شجاعا مقداما . حاكما على وهمه . غير مقهور تحت سلطان تخيله . زاهدا فى كل ما سوى مطلوبه ، عاشقا لما توجه إليه ، عارفا بطريق الوصول إليه . والطرق القواطع عنه ، كثير السّكون ، دائم التفكير ، لايثنيه عن مطلوبه لوم لائم ، ولا عزل عازل.

قال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى** ﴾ فالناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين . وليس لهم حط من رحالهم إلا فى الجنة أو النار . والعاقل يعلم أن السفر مبنى على المشقة وركوب الأخطار ، ومن المحال عادةً أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة ، وإنما ذلك بعد انتهاء السفر . ومن العلم أن كل وطأة قدم أو كل أنّة من أنات السفر غير واقفة . ولا المكلف واقف . وقد ثبت أنه مسافر على الحال التى يجب أن يكون عليها المسافر من تهيئة الزاد الموصّل . وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير ؛ وخير الزاد التقوى . قال تعالى : ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ فالله سبحانه هو هدف المؤمن ومبتغاه . واعلموا إخوانى أن رباً ذا إرادة أمر عبداً ذا إرادة . فإن وفّقه وأراد من نفسه أن يعينه ويلهمه فَعَلَ ما أمره به خالقه ؛ وإن خذله خلاه وإرادته ونفسه ، وهو من هذه الحيثية لا يختار إلا ما تهواه نفسه وطبعه فهو من حيث هو إنسان لا يريد إلا ذلك . ولذلك ذمه الله فى كتابه من هذه الحيثية . ولم يمدحه إلا بأمر زائد على تلك الحيثية وهو كونه مسلما ومؤمنا وصابرا ومحسناً ، وشكورا ، وتقياً ، وبرّاً ، وعدلا ؛ وهذا أمر زائد على مجرد كونه إنسانا وإرادته صالحة . ولكن لا يكفى مجرد صلاحيتها إن لم تؤيد هذه الصلاحية بقدر زائد على ذلك وهو التوفيق ، كما أنه لا يكفي فى الرؤية مجرد صلاحية العين للإدراك ان لم يحصل سبب آخر من النور المنفصل عنها ، ومن هنا نعلم يقينا سر الاقتداء برسول الله فى جميع التصرفات . ولذا وصفه الحق تبارك وتعالى فى كتابه : ﴿ ... **وَسِرَاجاً مُّنِيراً** ﴾ من حيث هو ظاهر فى نفسه مظهر لغيره . صلوات الله وسلامه عليه . فالحمد لله الذى أكرمنا بالإيمان به ولذا كان الخلق جميعا من أشد المحتاجين إليه ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ فى دنياهم وآخرتهم فاحتياجهم إليه فى الدنيا أشد من احتياجهم للطعام والشراب والنفس . وأما حاجتهم إليه فى

الآخرة : لأنهم سيستشفعون به كى يريحهم من هول الموقف بعد أن يتأخر الأنبياء جميعا عن الشفاعة ؛ حينئذ يتشفع الرسول ﷺ فيشفع له ، وهو الذى يستفتح لهم باب الجنة كما ورد فى الأثر ، ومن أجل هذا نستطيع أن ندرك معنى قول الرسول ﷺ « لَايُؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ... » الحديث أو كما قال .

وقد علمت أيها الإخوة : أن المطلب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية ونية صحيحة . فمن فقدهما تعذر عليه الوصول إلى الله ، فإن الهمة إذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره ، وإذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة إليه قال تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً** ﴾ ، فالنية تفرد له الطريق ، والهمة تفرد له المطلوب فإذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصول إلى غايته ، وإذا كانت همته سافلة تعلقت بالسفليات ولم تتعلق بالمطلب الأعلى ، وإذا كانت النية غير صحيحة كانت الطريق غير موصلة إليه قال تعالى: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ..** ﴾ الآيات . وقال تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ..** ﴾ الآيات فمدار الشأن على همة العبد ونيته . وهما مطلوبه وطريقه . ولا يتم ذلك إلا بترك الأغيار ومجاهدة النفس . قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ فالحمد لله والشكر له .

وإذا عرف هذا فالصادقون السائرون إلى الله والدار الآخرة قسمان : قسم صرفوا ما فضل من أوقاتهم بعد الفرائض إلى النوافل البدنية وجعلوها دأبهم من غير حرص منهم على تحقيق أعمال القلوب ومنازلها وأحكامها . وإن لم يكونوا خالين من أصلها ؛ لكن هممهم مصروفة إلى الاستكثار من الأعمال . وقسم صرفوا ما فضل من الفرائض والسنن إلى الاهتمام بصلاح قلوبهم وعكوفها على الله وحده ، وحفظ الخواطر والإرادات معه وجعلوا قوة تعبدهم بأعمال القلوب من تصحيح المحبة ، والخوف والرجاء والتوكل والإيمان والرضا بقضاء الله وقدره شكرا وصبرا . فإن أكمل الهدى هدى رسول الله ﷺ وقد أمر الله سبحانه عباده أن يقوموا بشرائع الإسلام على ظواهرهم .

وحقائق الإيمان على بواطنهم ولا يقبل واحد منهم إلا بصاحبه وقرينه : الإسلام علانية . والإيمان فى القلب فكل إسلام ظاهر لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة ليس بنافع حتى يكون معه شىء من الإيمان الباطنى . وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت . قال تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴾ فمن قام بظواهر الإسلام كما هو شأننا وليس فى باطنه حقيقة الإيمان لم ينجه ذلك من النار . أعاذنا الله وإياكم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

قال تعالى : ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ** ﴾ بفضله ورحمته ، وإنعامه وإحسانه إليهم ، وبرّه بِهِم . قال تعالى : ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى** ﴾ فالهدى منعه من الضلال ، والرحمة منعته من الشقاء . وهذا هو الذى ذكره الله فى أول السورة ــ سورة طه ــ ﴿ **طَهَ * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى** ﴾ فجمع بين إنزال القرآن عليه ونفى الشقاء عنه كما قال فى آخر السورة فى حق اتباعه ﴿ **فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى** ﴾ فالهدى والفضل والنعمة والرحمة متلازمات لا ينفك بعضها عن بعض . كما أن الضلال والشقاء متلازمان لا ينفك بعضهما عن بعض . قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ** ﴾ وقد تكرر فى القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال . فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضى الهدى اقتضاء السبب لمسببه ، والمؤثر لأثره . وكذلك الضلال وأعمال البر تثمر الهدى ، وكلما ازداد منها ازداد هدى . وأعمال الفجور بالضد . وذلك أن الله تبارك وتعالى يحب أعمال البر فيجازى عليها بالهدى والفلاح . ويبغض أعمال الفجور فيجازى عليها بالضلال والشقاء ؛ فإنه البَرُّ ويحب أهل البِرِّ فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البرّ ، ويبغض أهل الفجور فيبعد قلوبهم منه بحسب ما اتصفوا به من الفجور . والله المستعان : وهو ولىّ التوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله .

ـــأـــ تحية الإسلام وما فيها من خير كثير
ـــبـــ ما تحمله عبارة « لا حول ولا قوة إلا بالله »
من إيمان وتسليم

أخى :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . والله إن هذا القول وتلك التحية خير من الدنيا وما فيها ـــ إذا كان المراد بها وجه الله ورضاه ـــ حيْث لاخير فى كلام ونجوى مالم يكن أمرا بمعروف ، أو نهيا عن منكر ، أو أمرا بصدقة وإحسان . فالدنيا كلها لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، وملعونة الدنيا وما فيها إلا ذكر الله ومن والاه . وإنى أقسم لك أن من ملك الدنيا كلها : مالها ، وجاهها ، ونعيمها ، ومتعها ، لايخرج منها إلا نادما مالم يجعلها وسيلة ومطية : ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ** ﴾ واعلم أن الدنيا التى أعنيها بهذا اللون من الذم هى : التى لا أثر لها بعد فى صحيفة الأعمال الخالدة ، وفى الكتاب الذى يلقاه الإنسان يوم القيامة منشورا . ﴿ **اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً** ﴾ وعليه أرجو أن يُقنِع العبد نفسه بماله وبما عليه وبما هو آيل إليه طال العمر أم قصر ﴿ **قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ** ﴾ كما أرجو أن يعلم الأخ علما يجرى منه مجرى الدم : أن الشيطان يزين للإنسان الحياة الدنيا ، ويشكل له الأصناف فيها ، ويغريه بها بحيث يجعل همه محصورا فيها كأنه لا حياة إلا هى ولا بقاء فى الأرض إلا بالجمع والتحصيل ، والتهافت والتنافس ، والتمنى والاستعلاء .

وعليه أقول : إن الإقلال من حبها مع النظر إليها كوسيلة ومطية يقص من أجنحة الشيطان القوى ، ويشوه العرض الذى يزين به الإطار ، ويفسد من أدواته ومعداته ، فلا يكون له السلطان الكامل على الإنسان : ﴿ **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ** ﴾ فوالله إن هذا الأمر لدقيق . ولكونه كذلك جعله الله امتحانا واختبارا ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ**

لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ﴿ فَأَمَّا الإنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا ... ﴾

أخى :

لم يكن بودى أن أطلع عليك بهذه المقدمة . ولكن الله حين يريد شيئا يقول للشيء كن فيكون فالحمد لله . ولا بأس من أن أعيد القول : بأن السلام المشروع باللفظ المشروع إذا كان بالصدق والإخلاص فهو خير من الدنيا وما فيها ، إلا ذكر الله ومن والاه . ذرة واحدة من الحسنة تزن الدنيا الفارغة التى تنتهى بانتهاء الأجل . إن الدنيا التى عليها قوام المؤمن من حيث ... وحيث ... هى من الآخرة . أو هى الآخرة بعينها . ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ وعلى كل حال . فلا آخرة بلا دنيا ، ولا دنيا إلا بالحياة ولا حياة إلا بالأسباب : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ فالحمد لله. ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ واذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وأرجو أن يعلم الأخ علما يبنى عليه حياته ويقيم عليه أمره : أن كل شيء فى هذه الحياة ــ من قول وفعل ، وحركة وسكون ، وذهاب وإياب ، وأخذ ورد ، ولا يكون معاشا ومعادا ــ داخل فى اللغو والفضول مهما كانت الأسباب والدواعى . ومن صفة عباد الرحمن : الإعراض عن اللغو والفضول : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ وأرجو أن يعلم الأخ أن ما يتضمنه العمل الصالح العام من الشئون الحيوية لايدخل فى نطاق اللغو إذا كان الطريق صحيحا ، والسبيل مستقيما ، والأنانية البشرية مفقودة « فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » « والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره » الدنيا فتنة ، وقلّ من ينجو منها ، ومن شرها وبلائها . ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ قَلِيلٌ مَّاهُمْ ﴾ وليعلم أخى أن على السلام الكامل : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثلاثين حسنة ؛ كما ورد بذلك

الحديث الشريف . والاشتغال ثمانى ساعات أو سبع بغير نيّة صالحة لايكون عليه حسنة واحدة بل إن الاشتغال طول العمر بالدنيا جمعا وتحصيلا حتى يكون الثراء الواسع الغنى العريض ليس عليه حسنة واحدة مالم توجد النية الطيبة ، والبذل والإنفاق ، والإحسان ، والبرّ وانتفاع الغير ، فعلى هذا فقس وتدبر ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾.

أخى :

إن من نظر بعين البصيرة إلى كل شيء فى هذه الحياة : رأى من الآثار الربانية ما يحمله على الإقرار بالربوبية لله عز وجل جلاله وما يحمله على الإقرار بالعبودية التى شرفها بعلو على ما يتشرف به بنو الإنسان. فوالله ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ ولولا رحمته سبحانه ما ترك على ظهرها من دابة فالحمد لله على السلام ، والحمد لله على الدوام ، وأرجو أن يعلم الأخ : أن العبودية العامة يشترك فيها المسلم والكافر ، أما العبودية الخاصة فهى التى ينفرد بها الموحدون ، ويخلص بها العابدون ، ويعيش عليها العارفون ، ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ الآيات .

وعليه أقول : إن هذه الصفات لا تكسب جزافا ، ولا تكون اتفاقا ، كما أنها لا تورث من عصب ولا رحم ، ولا من شيخ ولاصديق ، إنما تكون بالأسباب الشرعية التى يترتب عليها الانخراط فى السلك ، والانتظام على الصراط ، وقد يكون فى أول الأمر أسهل منه بعد . فإنه كلما جدّ فى السَّيْر تفتحت له أبواب ، وكلما ولج بابا أشرف على ما يليه ولا نهاية للأبواب . أما فى أول الأمر فالسير على الهامش والانتظام على الصراط لا يتجاوز العادة . ولا يتعدى العرف كما يقولون فلان مستقيم من بيته لعمله . والاستقامة هذه هى التى شيبت صدغى رسول الله ﷺ من قول الله ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ ثم فى أول الأمر يكون الإنسان مغرورا بعض الشيء لإحساسه بالانتقال من حال إلى حال . ولأنه بدأ يعمل مالم يكن يعمل ، وبدأ يترك مالم يكن يترك ، وهكذا يتصور له أنه صار أحسن أو إلى الأحسن وربما يفسده هذا الشعور فى كل ماهو مقبل عليه . أو لأنه فهم العبودية على هذه الصورة التى عليها الكثير من الناس . فإذا استمر على هذا اللون يعيش كذلك لا زيادة ولا نقصان ولا إحساس بشيء سوى أنه صار أحسن . فإذا أراد

الله أن يزيده علما وقرباً إليه رزقه من يأخذ بيده ويدلّه عليه . وكلما جدّ فى السير تفتحت له أبواب إلى مالا نهاية : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ..

لا حول ولا قوة إلا بالله :

انظر أخى إلى معانى هذه الكلمات ستجد الكثير من الأسباب التى تعينك على العلم بالله ومعرفته . ومتى ما علمت وعرفت هان عليك طرق الباب ، وسهل عليك الولوج فيه ، فإن هذه الكلمات تتردد على الألسنة حتى أصبحت من الأمثال السائرة التى تقال عند المحاسبة فحسب !! مع أنها هى العمود الفقرى للإيمان ، فإنك متى علمت وعرفت بعلمك ومعرفتك أيقنت تجردك من الحول والقوة . وليس التجرد معناه الركون وعدم العمل . كلا . إنما هو الإحساس الفعلى بحول الله وقوته ، وإشرافه عليك فيما تعمل . فإن العمل الذى يكون منك تارة باليد ، وتارة بالقدم ، وتارة بالعين ، وتارة بالأذن ، وتارة وتارة . فمن الذى خلق لك كل هذا وبعث فيك القدرة والحول ؟ ومن الذى نفخ فيك الروح حتى تميزت وميّزت . ؟ ومن الذى يحييك ويبعثك إلى العمل كل يوم ؟ : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وللتأكيد أضرب لك المثل . الجوارح كلها تشتغل وتتحرك بأمر القلب . فأين القلب منك ؟؟ لا أدرى فالمراد بالقلب الإرادة التى تصدر منك إلى الجوارح ، وإن هذه الإرادة محلها القلب باعتباره أشرف عضو حيث القلب المعروف بلغة الأطباء هو الآلة التى تدير حركة القوة البدنية ، وتوزع الدم فى مجاريه الاعتيادية بانتظام . فإذا ما اختل اضطرب البدن واعتل . وهكذا تتصور الإرادة وتنسب إليه فيما يتعلق بالأعمال الصادرة من الجوارح . « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله .. وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » فكما يسيطر القلب على الجوارح ويحركها إلى مايشاء الله ؛ كذلك حول الله وقوته فى تسيير القلب وتصيره بصورة لا نلمسها إلا بالإيمان بالغيب . ﴿ الٓمٓ * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ . واعلم أخى أن الإيمان بالغيب معلوم وإقامة الصلاة بمعنى الانتصاب له سبحانه

وتعالى ، وبعبارة أفصح الاستقامة فى القصد وبالقصد بمقتضى الإيمان بالغيب السابق الذكر للإقامة .

ومما رزقناهم ينفقون : بمعنى البذل من نعم الله عليك ، والنعم كلها تكتسب بالجوارح والقلب . ومن هنا نعلم أن الإنفاق المطلوب مطلق غير مقيد بنعمة مخصوصة . فلا يتعلق بالمال وحده ، ولا بما يشبه المال من خيرات ، إنما هو بكل جارحة فيك : البصر مثلا كما تستعين به على مصالحك الدنيوية وحوائجك النفسية تنفق الفائض منه فى مرضاة ربك . وكذلك الأذن واليدان والقدمان والجوارح كلها مما يستخدم لحظوظك وأهوائك من رزق الله عليك : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ فالحمد لله . وكل هذا أنت مطالب به تفعله لسابق إيمانك : ﴿ وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُون ﴾ فإن الإيمان بالله ورسوله وبالكتاب المنزل يقتضيك اليقين باليوم الآخر ، ومتى تيقنت باليوم الآخر كان منك العمل له كما تعمل لدنياك ومعاشك حيث اليقين بالحياة الباقية تساوى فى نظرك مع الحياة الفانية التى أنت فيها . ومتى ما سلكت طريق العمل الصحيح انطبق عليك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

فالحمد لله . ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

صدق الله العظيم

* * * *

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
المقدمـة	٣
فى الإيثـار	٥
النفس البشرية كما يراها العارفون	١٢
النفس البشرية بين فجورها وتقواها	١٩
طلب المغفرة ضرورة للمؤمن	٢٧
الإيمان أساس النجاة	٣١
أنماط وأنواع من الإيمان	٣٧
العبـودية الحقـة	٤٤
التوحيد والنفس البشرية	٤٩
الإيمـان الحـق	٥٢
إن الإنسان لظلوم كفار	٥٧
من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه	٥٩
سلوك العوام والخواص	٦٣
مع قول الحق تبارك وتعالى ﴿ **يأيتها النفس المطمئنة** ...﴾	٦٩
تذكـر المـوت	٧٤
معالم الطريق إلى الله	٧٧
ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر	٨٢
ونبلوكم بالشر والخير فتنة	٨٥
المؤمن الحق لا يفتن بثواب عاجل	٨٩
الغفلة من أكبر العوائق فى الطريق إلى الله	٩٠
الـورع جوهـر الديـن	٩٣

صور من النفس البشرية ٩٧
الموت ينقل المؤمن من عالم الاختبار إلى عالم الثواب والنعيم ١٠٢
من دلائل الإيمان المبادرة إلى التوبة ١٠٧
الإخلاد إلى الشهوات والانغماس فى الملذات ١١١
المؤمن طالب الهداية دائماً ١١٧
أهمية الصلاة ١٢٤
خواطر نورانية مع قول الله تبارك وتعالى
﴿ فلما جنَّ عليه الليل ... ﴾ الآيات ١٢٩
وخلق الإنسان ضعيفاً ١٣٣
من هو العارف بالله ١٤٤
أضواء على العوائق والعلائق التى تعترض سالكى الطريق
إلى الله ١٥٠
الهجرة إلى الله ١٥٩
الإيمان بالجزاء ١٦٥
لا ينال العبد محبة خالقه حتى يقف مع نفسه وقفة حاسمة ١٧١
بم كرم الله الإنسان ؟ ١٧٧
الرسول عليه الصلاة والسلام هو المثل الأعلى للمؤمن فى
سلوكه وسيره إلى الله ١٨٢
أسلحة النصر ١٩٠
تحية الإسلام وما فيها من خير كثير ١٩٤
الفهرس ١٩٩

رقم الإيداع : ٧٤٣١ / ١٩٩٢

I . S . B . N . 977 - 5798 - 18 - 6